المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

مقرر الثقافة الإسلامية
(١٠١)

إعداد اللجنة العلمية

بكلية الدعوة وأصول الدين

١٤٤٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فلا يخفى ما للعلم الشرعي من أهمية بالغة ومنزلة سامقة في حياة الأمم والشعوب، في تصحيح مفاهيمها وتصوراتها للكون والحياة، في تعاملها مع ربها وخالقها تعالى بالتوحيد الخالص والعبودية الحقة، ومع البشرية في تهذيب أخلاقها وسلوكها وقيمها الفاضلة وفي شأنها كله كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]؛ لأن من المؤكد أنه لا صلاح ولا سعادة للبشرية جمعاء إلا بالعلم النافع والعمل الصالح ؛ والعلم النافع ما كان مصدره الوحي الرباني المعصوم، والعمل الصالح ما كان على هدي النبي - صلى الله عليه وسلم - وسنته.

ومن نعم الله تعالى علينا في هذه البلاد المباركة العناية بالتعليم الشرعي في جميع المراحل الدراسية، فقد نصَّت سياسة التعليم بالمملكة العربية السعودية على أن العلوم الدينية أساسية في جميع سنوات التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي بجميع فروعه، كما أولت الثقافة الإسلامية عناية خاصة حيث نصت على أن «الثقافة الإسلامية مادة أساسية في جميع سنوات التعليم العالي».

وذلك لأن من أهم أهداف التعليم الجامعي تخريج الكفاءات المؤهلة للمشاركة في التنمية الحضارية بكافة مجالاتها، وهذا التأهيل يتطلب العناية بجانبين:

الأول: الجانب العلمي والمعرفي من خلال المقررات التخصصية في شتى العلوم والمعارف وما يخدمها من معامل وبرامج تدريبية ونحوها.

الثاني: الجانب الفكري والسلوكي من خلال مقررات الثقافة الإسلامية التي تعنى بتزويد الطلاب والطالبات بقدر مناسب من المفاهيم الإسلامية، توضح لهم التصور الصحيح للكون والحياة، وتوضح لهم منهج الوسطية والاعتدال، وتحذرهم مناهج الزيغ والانحراف والانحلال، وتقرب لهم ما في الإسلام من حلول لمشكلات الحضارة والحياة.

ومن هنا أولت جامعة أم القرى، ومنذ غراس بذرتها الأولى التي كانت نواة للتعليم العالي في المملكة العربية السعودية ممثلة في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة، هذه المادة بمزيد من الاهتمام والعناية، فقررت تدريس أربعة مقررات في الثقافة الإسلامية لجميع طلابها وطالباتها على تنوع كلياتهم ومختلف تخصصاتهم، وأَلَّفت لكل مقرر كتابا قام على تأليفه نخبة من كبار أساتذتها في ذلك الوقت، وقد حذت الجامعات الأخرى حذوها، وقررت بعض الجامعات تدريس تلك المقررات نفسها.

ولما كانت صور الحياة متجددة ومطالبها متداخلة خاصة في هذا العصر الذي انفتحت فيه الشعوب بعضها على بعض، وسهل معها رحيل الثقافات من بيئة إلى أخرى مع تطور وسائل التواصل والاتصال، إضافة إلى بعض المستجدات العالمية والنوازل المستجدة مما يتطلب تحصينا للطالب الجامعي في عقيدته وفكره وسلوكه بما يمكنه من المحافظة على هويته الإسلامية واعتزازه بقيمه الإيمانية وصموده في وجه التيارات

المنحرفة وتعامله الراقي والمتزن مع مستجدات الفكر والحياة.

وسعيًا من الكلية في تحقيق الجودة العالية فيما يقدم لطلاب الجامعة من مقررات دراسية، ومنها مقررات الثقافة الإسلامية، فقد قامت الكلية، وبعد موافقة إدارة الجامعة، بتشكيل لجان علمية من مختلف التخصصات لإعادة صياغة وتأليف كتب الثقافة الإسلامية الأربعة لتكون موائمة لما أقره مجلس الجامعة من مفردات للمقررات، وما صدر من توجيهات عليها بضم بعض الموضوعات المهمة لمقررات الثقافة الإسلامية، مستفيدة من المقررات السابقة، وما استجد من موضوعات ثقافية مهمة وما تم إقراره في الجامعات الأخرى وتوصيات الندوات العلمية التي تمت إقامتها حول مقررات الثقافة الإسلامية.

ونظرًا لكون هدف هذه المقررات هو تقديم الثقافة الإسلامية العامة فقد حرصت هذه اللجان على أن تكون الصياغة بلغة واضحة وسهلة بعيدة عن لغة التخصص الشرعي الدقيق، مع الحرص على عدم التوسع في التفريعات والخلافات المذهبية والتركيز على الأصول والكليات العامة التي يشترك في الاحتياج إليها الطالب المتخصص في العلوم الشرعية والمتخصص في فنون العلوم الإنسانية والطبيعية الأخرى، ولا تكون تكرارا لما يتلقاه طالب العلوم الشرعية في دراسته التخصصية.

وقد تمت مراجعة عمل كل لجنة عدة مرات، ثم تطبيقه ــ تجريبيا ــ في عدة فصول دراسية، واستصحاب ملحوظات أساتذة وطلاب كل مقرر على حدة، حتى خرجت بهذه الصورة التي نحسبها مرضية، إن شاء الله تعالى.

سائلين المولى عز وجل أن يتقبل من الجميع جهودهم وأن يجزيهم خير الجزاء وأوفاه، وأن يكتب لهذا العمل المبارك النفع والقبول، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللجنة العلمية

بكلية الدعوة وأصول الدين

الأهداف العامة لتدريس الثقافة الإسلامية وأبرز موضوعاتها

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، أما بعد:

فيقصد من تدريس هذه المادة في مختلف الكليات الجامعية تحقيق ما يلي:

١- ترسيخ العقيدة الإسلامية الصحيحة وفق الأسس العلمية التي هدى إليها القرآن الكريم والسنة المطهرة، وأيدتها الفطرة النقيّة والعقول السليمة والمعارف والعلوم المختلفة، وإيجاد وعي علمي صحيح بحقيقة الإسلام وسمو مبادئه.

٢- ربط الطالب الجامعي بمصادر الدين والتشريع الإسلامي الأساسية (القرآن والسنة) وتبصيره بما فيهما من عناصر حق وخير وهداية وقوة لمن عمل بهما مع ما فيهما من دفع إلى اغتنام السعادتين الدنيوية والأخروية، والمحافظة على ذاتية المسلم وهويته فكرا وسلوكا.

٣- تزويد الطالب الجامعي في جميع تخصصات الجامعة، بالمبادئ والنظم وكليات المعارف الإسلامية الأساسية التي من شأنها أن تجلي له مفاهيمها الصحيحة، وأن تحميه من التيارات الفكرية الغازية المعارضة لمفاهيم الإسلام ولنظمه.

٤- إيضاح واقع التفكير العلمي في الإسلام من خلال دراسة نماذج من التاريخ العلمي والعملي عند المسلمين، وما قدمته من خدمة إنسانية للعالم بأسره.

٥- حل كبريات المشكلات التي قد تثيرها النظريات العلمية المعاصرة والثقافات الوافدة وذلك عن طريق عرض مفاهيم الإسلام عرضا علميا معاصرا كنظام الاقتصاد الإسلامي ومفاهيمه السليمة الخالية من عيوب النظم الأخرى، وكنظام الأسرة، وكنظام الحكم والأخلاق الإسلامية، وحقوق الإنسان وأسسها الإيمانية والشرعية، وفوائدها وثمراتها الفردية والاجتماعية.

٦- تزويد الطالب الجامعي بما يستطيع به الدفاع عن دينه ومبادئه وأمته وتاريخه المجيد، وبما يستطيع به العمل على نشر الإسلام والتبشير به ضمن الأوساط العلمية التي يتاح له الدخول فيها في مستقبل حياته وضمن زوايا اختصاصاته، وتأكيد ذلك بضرب أمثلة من تجارب النجاح لهذه الأمة وريادتها للعالم بأسره.

٧- الإسهام في تكوين المسلم الصالح القوي الذي يعمر هذا الكون مؤمنا بربه خاضعا له، ليكون لبنة صالحة في بناء المجتمع الصالح الذي تتكاتف قواه لإعلاء كلمة الله تعالى على أرضه.

٨- غرس العاطفة الإسلامية الرشيدة المعتدلة في قلب الطالب الجامعي، وتغذيته بما يدفعه إلى تطبيق الإسلام في سلوكه الفردي والاجتماعي بعيدا عن مظاهر التشدد والغلو، أو التميع والانسلاخ، ملتزمة بمنهج الاعتدال والوسطية في كل شؤونها.

٩- ملء قلب الطالب الجامعي بروح الاعتزاز بدينه وأمجاد أمته، وملء نفوس الأجيال المسلمة بالأمل بمستقبل عظيم علما وحضارة وقوة وسلطانا في الأرض إذا هي استمسكت بعقيدتها ونظام دينها،

واتخذت الإسلام منهج حياة لها، وتنمية روح الولاء للأمة المسلمة بعامة، ومجتمعه الذي يعيش فيه بخاصة ومراعاة مقدراته وخصائصه المميزة له، والتأكيد على مكانتها وأهمية رسالتها العظيمة للبشرية جمعاء.

١٠- تقديم الفكر الإسلامي الأصيل، وتصحيح المفاهيم الخاطئة لبعض القضايا الأساسية، ومحاربة الانحلال الثقافي والغزو الفكري المتمثل في نشر المذاهب الهدامة والتصورات الباطلة والانحلال الخلقي والسلوكي.

١١- ضرورة أن يكون الطالب الجامعي في المملكة العربية السعودية بعامة، وفي أم القرى على وجه الخصوص، في مركز القيادة بين طلاب العالم الإسلامي فكرًا وسلوكًا باعتبار أن هذه المملكة هي قلعة الإسلام الأولى وباعتبار أن (أم القرى) هي منطلق الدعوة إليه، ومنبع النور الهادي إلى الناس كافة، وباعتبار المزيج المتجانس بين العلم والإيمان الذي تربى عليه الطالب الجامعي في أحضان جامعته (أم القرى). إضافة إلى ما يتلقاه فيها «من أخلاق المهنة» التي تسمو بعطائه، وترفع من رصيده الأخلاقي الإسلامي الرفيع في كل تعاملاته، وفي شتى مجالاته.

أبرز الموضوعات:

ولتحقيق هذه الأهداف فقد اشتملت مقررات (الثقافة الإسلامية) الأربعة على العناصر الرئيسة التالية:

أ) عرض عام للقواعد الإسلامية الكبرى الاعتقادية والعملية والأخلاقية والآداب العامة عرضًا علميًا مقتبسًا من المصادر الأساسية للإسلام (القرآن والسنة) وهذا ما حواه المقرر الأول للثقافة الإسلامية.

ب) بيان مصادر التشريع الإسلامي الأصلية والفرعية، ووصل الطالب الجامعي بنصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة، وتعريفه ببعض الأصول المهمة المتعلقة بهما التي تزيد في إيمان الطالب بأنهما مصدرا الحق الذي لا شك فيه، وأن من ابتغى الحق من غيرهما أضله الله، وما يجب على المسلم تجاههما من التعظيم والتسليم والتقديم. مع الإجابة الضمنية عن بعض الشبهات التي يثيرها الأعداء حول هذه المصادر، ومعايشة الطالب لنماذج حية وواقعية من هذه النصوص؛ ولا شك أن المعرفة العامة بمصادر الدين والتشريع الإسلامي تشكل ركيزة أساسية في بناء ثقافة المسلم التي هو في أمس الحاجة إليها. وهذا ما تم تخصيص المقرر الثاني من الثقافة الإسلامية لتناوله.

ج) تعريف عام بالأصول والقواعد للنظم الإسلامية التي عالجت موضوعات الفرد والمجتمع وحقوق الإنسان، ومنها نظام الأسرة، والنظام الاقتصادي، والنظام السياسي، وحقوق الراعي والرعية، ونظام العقوبات في الإسلام بما يجيب عن شبهات الأعداء في الطعن في هذه الأصول وتشويه صورة الإسلام من خلالها، وهذه الموضوعات كانت نصيب المستوى الثالث من الثقافة الإسلامية.

د) دراسة المجتمع الإسلامي من حيث مصادر قوته وأسباب ضعفه وسبل النهوض به، مع دراسة نموذج مشرق لهذا النهوض متمثلا في دعوة

الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله، الإصلاحية، إضافة إلى بيان نماذج من مواضع الخلل، كالانحراف في بعض المفاهيم الرئيسة، وسبل العلاج ووسائل النهوض والإصلاح، وكان هذا نصيب المستوى الرابع والأخير من الثقافة الإسلامية.

* * *

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فلا شك أن الواقع المعاصر يموج بكم هائل من الأفكار والمذاهب، ويكتظ بركام ضخم من الآراء والنظريات التي تتصارع فيما بينها أشد التصارع على تقديم ما تظنه حلولًا صحيحة ومقنعة للتساؤلات الكبرى التي كانت وما زالت تشغل الإنسان عن المبدأ، والمصير، والغاية من وجوده على هذه الحياة، والنظام الأمثل الذي يحقق له السعادة والطمأنينة.

وقد بلغ التنافس في عالم الأفكار والمذاهب والفلسفات أوج غايته، وأقصى مداه بعد ما شهده العالم من ثورة في الاتصالات والمعلومات، وتطور في التقنية والاختراعات، وانتشار هائل لمواقع التواصل الاجتماعي التي حولت كوكبنا الأرضي إلى ما يشبه القرية الصغيرة الواحدة، التي ينتقل فيها الخبر من أقصاها إلى أدناها في التو واللحظة، وتتناقل المذاهب والأفكار والأخبار ما بين سائر فئات المجتمع، متجاوزة الحدود والسدود، ومستعصية على كل وسائل المنع أو المصادرة.

ومع حال كهذه تتعاظم حاجة المسلمين ــ ولاسيما شبابهم من طلاب الجامعات وطالباتها ـ إلى غذاء فكري صحيح، وزاد معرفي سديد وتصور متناسق متكامل، يرشد الفكر، ويسدد النظر، ويحصن العقل من أن تتلقفه المذاهب الوافدة، أو الأفكار الشاذة الشاردة، أو الفلسفات المصادمة

لثوابت الدين، وحقائق الفطرة، ومقتضيات النظر العقلي الصحيح.

وتمثل الثقافة الإسلامية بمعناها الشامل واحدًا من أعظم السبل لتحقيق هذا الغرض المشار إليه، نظرًا لانتسابها إلى الدين الصحيح الوحيد الموحى به من عند الله، ثم لتميزها بالأصالة والرصانة والشمول، وامتدادها الطويل عبر تاريخ الأمة العريق، وإسهام ثلة كبيرة من العلماء الأفذاذ في تسطير علومها، وإقامة بنيانها الشاهق على أصول محكمة تؤيدها البراهين، وتشهد لها الدلائل المتكاثرة.

وثمة أهداف عدة يهدف إليها مقرر الثقافة الإسلامية، ونود من أبنائنا الطلاب والطالبات أن يضعوها نصب أعينهم وهم يدرسون موضوعات هذا الكتاب المتنوعة.

ويأتي في مقدمة تلك الأهداف: ترسيخ العقيدة الإسلامية الصحيحة في النفوس، وربط الأجيال المسلمة بمصادر الإسلام الأساسية، وتعريف الشباب بما يحيط بهم من المخاطر المعاصرة، وإيجاد الحلول الإسلامية المناسبة للمشكلات التي تثيرها النظريات والنظم الوضعية، مع رد شبهاتها، وملء قلوب الأجيال المسلمة بروح الاعتزاز بدينها وأمجاد أمتها، وبث الأمل في مستقبل مشرق عظيم للأمة المسلمة، إذا ما استعادت تمسكها بعقيدتها ودينها واتخذته منهاج حياة، وسبيل رشاد ونجاة.

وبغية تحقيق الأهداف السابقة جاء الكتاب الذي بين أيدينا في **مقدمة** عن مفهوم الثقافة الإسلامية، وأهميتها، ومصادرها، ومكانة العلم وآداب طلبته، ثم أعقب ذلك أقسام ثلاثة: **أولها**: عن **العقيدة** مفهومها وأهميتها

وخصائصها، وأصولها الستة، **والثاني**: عن **العبادة** في الإسلام، مفهومها وشروطها ومكانتها وخصائصها، وآثارها في حياة المسلم، **والثالث** عن **الأخلاق** في الإسلام مفهومها، ومكانتها، وأسسها، ونماذج من الأخلاق الفاضلة، ووسائل اكتسابها.

وقد حرصنا غاية الحرص ـ ما أمكننا ذلك ـ على وضوح العبارة وتناسق الأسلوب، وانتقاء الموضوعات كي تخدم المقصد من هذا الكتاب سائلين الله تعالى أن ينفع به أبناءنا الطلاب والطالبات، وأن يكون دافعًا لهم للاستزادة من العلم والمعرفة بدينهم العظيم وعقيدتهم الصحيحة وثقافتهم الإسلامية الأصيلة، وحافزًا لهم على الجد، وعلو الهمة، وتحقيق أمانة الاستخلاف في الأرض، وعمارة الكون، وتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا والحمد لله رب العالمين.

اللجنة العلمية

بكلية الدعوة وأصول الدين

تقسيم موضوعات المقرر التدريسية

(من غير الاختبارات الفصلية والنهائية)

- الأسبوع الأول: مدخل لدراسة الثقافة الإسلامية
- الأسبوع الثاني: مقدمات في دراسة العقيدة
- الأسبوع الثالث: الإيمان بالله (الإيمان بوجود الله تعالى – توحيد الربوبية)
- الأسبوع الرابع: الإيمان بالله تعالى (توحيد الألوهية – توحيد الأسماء والصفات)
- الأسبوع الخامس: الإيمان بالملائكة والكتب
- الأسبوع السادس: الإيمان بالرسل عليهم السلام
- الأسبوع السابع: الإيان باليوم الآخر (١)
- الأسبوع الثامن: الإيمان باليوم الآخر (٢)
- الأسبوع التاسع: الإيمان بالقضاء والقدر
- الأسبوع العاشر: العبادة في الإسلام (١)
- الأسبوع الحادي عشر: العبادة في الإسلام (١)
- الأسبوع الثاني عشر: الأخلاق في الإسلام (١)
- الأسبوع الثالث عشر: الأخلاق في الإسلام (٢)

❖ ملاحظة: وما تعذر تدريسه من مفردات فيكلف به الطلاب أعمالاً فصلية.

مدخل لدراسة الثقافة الإسلامية

تعريف الثقافة:

لقد تعددت تعريفات كلمة الثقافة، وتنوعت بحسب منطلقات وخلفيات قائليها، وسنورد المعنى اللغوي للثقافة، ثم المعنى الاصطلاحي، مع بيان العلاقة بينهما، ونشير إلى الفرق بين التعريف الغربي والإسلامي للثقافة.

الثقافة لغة:

من الفعل الثلاثي ثَقِفَ الشيء ثَقْفًا، وتأتي للدلالة على معان متعددة، منها: الحذق، والفطنة، والذكاء، وسرعة التعلم والضبط، والظفر بالشيء[1]، وفي هذا المعنى الأخير جاء قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٥٧].

المعنى الاصطلاحي للثقافة:

مصطلح الثقافة، كمادة دراسية، مصطلح حادث بدأ مع المنتصف الثاني للقرن العشرين عندما أدخلت الجامعات العربية والإسلامية مادة الثقافة ومسار الثقافة كتخصص جامعي، يشمل مجموعة من المعارف الشرعية بصورة مختصرة، تُعطي تصوُّرًا عامًّا في العلوم الشرعية، كالعقيدة والفرق والفقه والحديث والتفسير، مع إبراز لمحاسن الإسلام والرد على

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور، مادة (ث ق ف) ٩/ ١٩.

التيارات الفكرية المنحرفة.

وكلمة الثقافة في معناها العام تعني: الحذق والفهم والقدرة، وتختلف بحسب ما تضاف إليه من علوم وفنون، فتطلق على الثقافة الشرعية، أو العلمية، أو السياسية، أو الطبية، أو الأدبية.. إلى غير ذلك من العلوم والفنون.

وإذا ذكر اللفظ دون إضافته إلى شيء فهي تعني: العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق بها بحيث تزود القارئ بالملامح العامة لهذا الفن أو ذاك.

وإذا كان هذا هو التعريف العام للثقافة، فإننا نلقي الضوء على التعريف الاصطلاحي للثقافة في الفكر الغربي والإسلامي والفرق بينهما في التالي:

معنى الثقافة في المجتمعات الغربية:

وردت عدة تعريفات للثقافة في الفكر الغربي، ومن أشهرها أن الثقافة هي: «ذلك الكل المعقد الذي يتضمن المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات، وكل المقومات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو.

وإذا تأملنا مقتضيات التعريف الغربي للثقافة نجده لا ينطلق من منطلقات شرعية، ولا يهتم بذكر مميزات تلك الثقافة؛ بينما التعريف الخاص بالثقافة الإسلامية يحدد مميزاتها ومنطلقاتها ومصادرها، باعتبارها الوجهة النظرية السلوكية والمعرفية والتصورات الكلية عن الإسلام المستقاة من مصادر التشريع الإسلامي، ومن أبرز تلك التعريفات ما يلي:

المعنى الاصطلاحي للثقافة في الفكر الإسلامي:

وثمة تعريفات عديدة للثقافة بمفهومها الإسلامي، ومن ذلك تعريف بعض الدارسين بأنها: «طريقة الحياة التي يعيشها المسلمون في جميع مجالات الحياة وفقًا لوجهة نظر الإسلام وتصوراته، سواء في المجال المادي الذي يسمى بالمدنية، أو في المجال الروحي والفكري الذي يعرف بالحضارة»[١].

وعرفها آخرون بأنها: «علم دراسة التصورات الكلية والمستجدات والتحديات المتعلقة بالإسلام والمسلمين بمنهجية شمولية مترابطة»[٢]كما عرفها الدكتور عبد الرحمن الزنيدي بأنها: «علم كليات الإسلام في نظم الحياة كلها بترابطها»[٣].

فمعنى الثقافة هي: ما يكتسبه الإنسان من ضروب المعرفة النظرية والخبرة العملية التي تحدد طريقته في التفكير ومواقفه في مختلف طرائق الحياة. والثقافة الإسلامية هي: مجموعة من العلوم والأحكام والقيم والأخلاق والمبادئ الإسلامية يتلقاها الفرد والمجتمع من مصادرها الأصيلة ليعمل بها فتكون سببًا في رقيه وتقدمه في أي زمان ومكان.

(١) صالح هندي، الثقافة الإسلامية، ص١٧.

(٢) المرجع نفسه، ص٢١.

(٣) مدخل إلى علم الثقافة الإسلامية، مجلة جامعة الإمام، عدد ٢، محرم ١٤١٠هـ، ص١٩.

ونخلص من هذه التعريفات المتعددة بأن مادة الثقافة الإسلامية تحرص على إعطاء الطالب صورة شاملة عن الإسلام، مع معرفة التحديات المعاصرة ومواجهتها معرفة كلية شمولية.

وأما ما تختلف فيه الثقافة الإسلامية عن غيرها من الثقافات الأخرى فهناك تباينات كبيرة في المصادر والمقومات والأهداف، فالثقافة الإسلامية تستمد كيانها من مصادر التشريع الإسلامي، بينما تقوم الثقافة الغربية على استمداد مصادرها من الأفكار الوثنية والمادية والثقافات اليونانية والرومانية، والثقافة الإسلامية مقاصدها شرعية تدور على تحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة، ودرء المفاسد، فتهدف إلى نشر العدل وإحقاق الحق، بينما الثقافة الغربية تهدف إلى استغلال الغني للفقير واستعباد الناس بعضهم بعضًا، واستعمار القوي للضعيف، وتغليب المصالح المادية على إحقاق العدل بين الناس(١).

وعليه فإن الثقافة الإسلامية ربانية المصدر، وموافقة للفطرة، كما تتميز بالشمولية، والوسطية، والتوازن، والتكامل، والواقعية، وصلاحيتها لكل زمان ومكان، وهذه الخصائص تتميز بها عن سائر الثقافات الأخرى.

العلاقة بين الثقافة الإسلامية والعلوم الشرعية الأخرى:

ولا شك أن هناك صلة واضحة، وارتباطًا وثيقًا بين الثقافة الإسلامية وما سواها من العلوم الشرعية الأخرى، فهذه الثقافة نابعة ومعتمدة اعتمادًا

(١) ينظر: محمود الخالدي، الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية، ص ٧٥.

تامًّا على أصول هذا الدين وعقائده وعلومه المختلفة من عقيدة، وتفسير، وحديث، وفقه، وأخلاق.

وتنقسم المصادر التي تعتمد عليها الثقافة الإسلامية إلى قسمين أساسيين أحدهما مصادر أصلية والآخر مصادر فرعية:

فأما الأصلية فتتمثل في القرآن الكريم والسنة المطهرة وإجماع العلماء المجتهدين

وأما المصادر الفرعية فهي كثيرة ومتنوعة، وتشمل: القياس المنضبط الذي لا يخالف نصًا في كتاب أو سنة أو أصلًا مجمعًا عليه من علماء الأمة الإسلامية، كما تشمل أيضًا التراث الإسلامي وكل ما ورثناه عن السلف الصالح من علوم ومعارف وأفكار واجتهادات في شتى المجالات المختلفة، وتشمل أيضًا الخبرات الإنسانية النافعة التي لا تتعارض مع ثوابت الدين وحقائقه الراسخة.

وربما ثار تساؤل في أذهان البعض عن جدوى هذا العلم وتميزه عن غيره مع أنه معتمد تمامًا على علوم العقيدة والتفسير والحديث والفقه؛ ومن ثم فلا حاجة إليه، وتلك العلوم تكفينا عن إنشاء علم جديد.

وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: إنه مع إقرارنا باعتماد علم الثقافة الإسلامية على منظومة العلوم الإسلامية المتنوعة وابتنائه التام عليها؛ إلا أنه مع ذلك يتسم بعدد من السمات التي تسوغ وجوده علمًا مستقلًا وتخصصًا متميزًا يضاف إلى العلوم الإسلامية، ويسد بعض جوانب الحاجة لدى الأجيال المعاصرة من المسلمين، ومن أبرز هذه السمات ما

يلي[١]:

١- الكلية: فالثقافة الإسلامية تبحث في الإسلام بصفته كلًا مترابطًا ووحدة متكاملة، وتؤكد التداخل بين نظمه من أجل أن يعطي هذا العلم آخذه تصورًا متكاملًا عن الإسلام في جوانبه المختلفة العقدية والعبادية، والجانب التعليمي والخلقي والعائلي والأسري والاقتصادي والسياسي، ومفاهيمه العامة كالحرية والتسامح وغيرهما.

٢- المقارنة: وهي من دعائم هذا المنهج؛ لأن هذا العصر هو عصر الصراع بين المذاهب والأفكار، لاسيما بين الإسلام والثقافة الغربية بفرعيها الديمقراطي والاشتراكي الاجتماعي، والمنهج المقارن يركز على تيارات الفكر المعاصر وقضاياه إلا أنه لا يغفل بحال من الأحوال التيارات والمذاهب الفكرية الغابرة المتجددة.

٣- التأصيل: فمع أن علم الثقافة الإسلامية علم مقارنة إلا أن منهج هذه المقارنة تابع لمنهج التأصيل، والتأصيل بهذا المقام بحث النظم الإسلامية من خلال الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح، رضوان الله عليهم أجمعين.

٤- النقد: علم الثقافة الإسلامية ليس علم مقارنة وتأصيل فحسب بل هو علم نقد في الوقت نفسه؛ فهو ينقد بموضوعية علمية المذاهب المعاصرة كالاشتراكية والتطويرية والرأسمالية أو حتى تلك التي

---

(١) انظر الثقافة الإسلامية تخصص علمي للدكتور / محمد بن يحيى النجيمي، ضمن ندوة مقررات الثقافة الإسلامية بين واقعها والمتغيرات ص ٦١، ٦٢.

تحارب الإسلام ونظمه كالاستشراق والتنصير.

أهمية تدريس الثقافة الإسلامية:

وتتجلى أهمية تدريس مادة الثقافة الإسلامية من خلال معرفتنا بأبرز الأهداف المرجوة من تدريسها والتي يأتي في مقدمتها ما يلي[(١)]:

١- إبراز النظرة الشمولية للإسلام، بوصفه منهجًا شاملًا لجميع جوانب الحياة، أساسه التوحيد، والتخلص من النظرة الجزئية للإسلام والتي تقصره على بعض جوانب الحياة.

٢- تعميق انتماء الطالب إلى الإسلام، وربطه بكتاب الله عز وجل وسنّة نبيه ﷺ، وتبصيره بما في هذين المصدرين الرئيسين من أصول القيم الخلقية والحضارية، وذلك من أجل تحصينه اعتقادًا وفكرًا وسلوكًا من التيارات الفكرية المعارضة للإسلام.

٣- تجلية مواقف الإسلام من قضايا العصر، وخاصة في مجالات العلوم المختلفة وحركة الفكر ونظم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية...، ونقدها من المنظور الإسلامي.

٤- بيان تفوق الإسلام وتميزه على المذاهب الفكرية والأيدلوجيات في كافة شئون الحياة، وإظهار قدرته على تحقيق السعادة الإنسانية في

(١) نشأة علم الثقافة الإسلامية، وتميزها على العلوم الأخرى للدكتور محمد بن صالح بن يوسف العلي، ضمن ندوة مقررات الثقافة الإسلامية بين واقعها والمتغيرات ص ٣٠، ٣١.

مقابل إخفاق تلك المذاهب.

٥- إعطاء الطالب صورة وافية عما صنعته رسالة الإسلام العامة الشاملة في الحياة الإنسانية، من تحريرها للبشر من الوثنيات والخرافات، وإنقاذهم من التخلف الفكري والتفكك الاجتماعي.

٦- تشخيص حال الأمة الإسلامية في مجالي الفكر والسلوك والحركة الحضارية، وبيان مواطن الخلل فيها ومنهج العلاج.

مكانة العلم وآداب طالب العلم:

العلم أمانة عظيمة، ومسئولية جليلة كريمة، تُبلغ بها رسالة الله وتُقام بها الحجة على عباد الله، امتن الله سبحانه وتعالى على نبيه ﷺ بالعلم وشرفه وكرمه به، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. والعلم بصيرةٌ لأن العالم يُبصر به الحقَ فيتبعه، ويُبصر به الباطل فيجتنبه، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]. والعلم بينةٌ تتجلى بها الحقائق، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ [الأنعام: ٥٧] وقد شَرَّف الله بالعلم من شاء من عباده، وشهد لمن حباه إياه بالخير الكثير، قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ البقرة: ٢٦٩]. والعلم كالغيثِ للقلوب يحيي اللهُ به الأفئدةَ بعد موتها، عَظَّمَ اللهُ أهلهَ وجعلهم عنده في أعلى الدرجات، وأوجب لهم جزيل العطايا والهبات، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾

[المجادلة: ١١].

وقد استشهد الله تعالى على وحدانيته بالعلماء، فقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. ومن مكانة العلم وفضله أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ بطلب الزيادة من العلم، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وجعل الله طلب العلم طريقًا إلى الجنة، قال ﷺ: «**من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله له طريقًا إلى الجنة**»(١). ومما أخبر به ﷺ في فضل العلم ومنزلة العلماء قوله ﷺ: «**إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون(٢) على معلم الناس الخير**»(٣).

آداب طالب العلم:

ولما كان العلم بهذه المكانة العظيمة والمنزلة العالية التي أشرنا إلى طرف منها آنفًا، فلابد أن يدرك كل طالب له أن الله قد أنعم عليه نعمة جليلة حينما يسر له سبيل العلم وهيأ له الطرق المؤدية إليه، كما لابد أن يتيقن من أن العلم لن يؤتي ثمرته ولن ينفع صاحبه إلا إذا تحلى بجملة من الآداب والأخلاق التي تزين طالب العلم، وترفع من قدره في الدنيا والآخرة، وكما

(١) سنن الترمذي، حديث رقم (٢٦٨٢).
(٢) أي يدعون لهم.
(٣) سنن الترمذي، حديث رقم (٢٦٨٥).

يقول الشافعي رحمه الله: «زينة العلماء التقوى، وحليتهم حسن الخلق، وجمالهم كرم النفس»(١).

ولا شك أن المتأمل لحقيقة ديننا الحنيف يلحظ أن الأدب يمثل جانبًا أساسيًا وركنًا ركينًا من أركان هذا الدين، وهو ضروريٌ للمسلم في علاقته مع ربّه سبحانه وتعالى، ومع الرسل، ومع الخلق عامّة، كما أنه ضروري للمسلم في جميع أحواله حتى في خلوته مع نفسه. ولقد بيّن الإسلام كيف ينبغي أن يكون عليه حال المسلم في طعامه وشرابه، وفي سلامه واستئذانه، وفي مجالسته وحديثه، وفي جِدّه ومزاحه، وفي تهنئته وتعزيته، وفي عطاسه وتثاؤبه، وفي قيامه وجلوسه، وفي معاشرته لأزواجه وأصدقائه، وفي حلّه وترحاله، ونومه وقيامه، وغير ذلك من الآداب المتنوعة.

وفيما يتعلق بموضوعنا ــ وهو آداب طلب العلم ــ نجد أن نصوص السلف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، قد تعددت في التأكيد على أهمية هذا الأدب وضرورة مراعاته، وأنه لابد أن يسبق تحصيل العلم نفسه، إدراكًا منهم لخطورة تعلم الطالب للعلم، دون أن يكون معه خلق يزكيه، وأدب يحليه، ومن أقوالهم في هذا الصدد ما نقل عن سفيان بن سعيد الثوري أنه قال: «كانوا لا يخرجون أبناءهم لطلب العلم حتى يتأدبوا ويتعبدوا عشرين سنة»، وقال عبدالله بن المبارك: «طلبت الأدب ثلاثين سنة، وطلبت العلم عشرين سنة، وكانوا يطلبون الأدب قبل العلم» وعن عبد الله بن المبارك أيضًا قال: «نحن إلى

---

(١) ابن حجر العسقلاني: توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس ص ١٣٥، تحقيق عبد الله القاضي.

كثير من الأدب أحوج منا إلى كثير من الحديث».

ومن أهم الآداب التي يجب على كل مشتغل بالعلم أن يراعيها ما يلي:

١-تقوى الله تعالى:

تقـوى الله تعـالى وصـيةٌ الله للأولـين والآخـرين، وموعظـةُ الله لعبـاده أجمعين، وطالبُ العلم الصادقِ المتقي لله أبعدُ الناس عن المحارم، وأعفُ النـاس عـن الحـرام، وأنـزههم عـن الفـواحش والآثـام، يخـاف الله في جميـع حركاته وسكناته(١).

وبتقوى الله يُيسر الله لطالب العلم علمه، فما قذف اللهُ نور التقوى في قلب إلا يسرَ أمره، وشرحَ صدره، وأحسنَ عاقبته وأمره، من اتقى الله نال محبة الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]. وبتقوى الله تعالى تُقبل الأعمال، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

٢-الإخلاص لله:

الإخلاص ثمرةٌ من ثمرات التقوى، وعليه مدارُ قبولِ الأعمال، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. وقال ﷺ: «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما خلص له، وابتغي به وجهه**»(٢) وقال الله تعالى

(١) معالم تربوية لطالبي أسنى الولايات البشرية، مرجع سابق، ص٥١.

(٢) المعجم الأوسط، حديث رقم (١١١٢).

في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(١).

والإخلاصُ أصلُ هذا الدين الذي لا يقبل الله دينًا سواه، ومن علامات الإخلاص في طلب العلم الزهدُ في الدنيا والطمعُ في الآخرة، والبعدُ عن الرياء وحبِ الظهور وتصدر المجالس، أو طلب حظ من زينة الدنيا وزخرفها بهذا العلم، أو طلب محمدة الناس وثنائهم.

٣-الأدب وحسن الخلق:

الأدبُ وحسنُ الخلق نعمةٌ من نعم الله تعالى، ورحمةٌ يرحمُ الله بها من أحبَ من عباده، ومن أثقل الأعمال في ميزان العبد يومَ القيامة، وحينما سُئل النبي ﷺ عن أثقل شيء في الميزان قال ﷺ: «**تقوىَ الله وحُسْنُ الخلق**»(٢).

فطالبُ العلم مَنْ وطَّن نفسه على مكارم الأخلاق، وسما بنفسه إلى فضائلها وإلى معالي الأمور، وترفع عن سفاسفها، فإذا أراد الله بالعبد الخير رزقه حلية العلم وجماله ووقاره وزينته وبهاءه، وهو: الأدبُ وحسن الخلق، ومن أحسنِ ما يتجملُ به طالبُ العلم من مكارم الأخلاق التواضعُ، والسكينةُ، والوقار، وطلاقةُ الوجه، وإفشاء السلام، والرفق، وحسن المنطق، والكلمة الطيبة، وبذل العلم، والبعد عن نواقضها من الخيلاء والكبرياء والعُجب واحتقار الآخرين، والبخل بالعلم، والحسد والبغضاء، والغيبة والنميمة،

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٩٨٥).
(٢) سنن الترمذي، حديث رقم (٢٠٠٤).

ومساوئ الأخلاق.

وأحق الناس بالتمسك بمكارم الأخلاق والتحلي بها والبعد عن نواقضها طلابُ العلم، فطالب العلم بما يحمل في قلبه من النور والبصيرة، أحرى به أن يقوده ذلك العلم إلى سلامة الصدر ونقاء السريرة، وسوف يرد معنا لاحقًا في هذا المقرر إن شاء الله حديث مفصل عن مكانة الأخلاق وأهميتها في الإسلام.

٤-رعاية حرمة العلماء والأدب معهم:

و من أوجب الواجبات على طلاب العلم رعايةُ حقوق العلماء، والتأدبُ معهم، وحفظُ حقوقهم، والتلطف معهم، وحسن السؤال والاستماع(١)، وترك التطاول والمماراة، وعدم التقدم عليهم بكلام أو مسير، أو مقاطعة العالم في حديث، أو الإلحاح عليه بسؤال، والتأدب في مجالس العلم بالتزام توقير المجلس وإظهار السرور بالدرس، وغيرها من آداب مجلس العلم(٢).

فإذا رأيت طالب العلمِ يحرص على الأدب في مجلس العلم فاعلم أنه على سنة، وذلك من علامات سمو النفس وعلو الهمة ولزوم التقوى، والتأدبُ مع العلماء من تعظيم شعائر الله، وقد أشعر الله بتعظيم العلماء، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:

(١) أبو بكر الآجري، أخلاق العلماء، ص٧٠.

(٢) بكر عبد الله أبو زيد، حلية طالب العلم، ص٣٦.

٣٢].

فلا يحفظُ حق العلماء إلا مُوفق، ولا يُقلل من شأنهم إلا من كان في قلبه مرض وزيغ، ومن حقوق العلماء البعد عن غيبتهم أو التنقيص من قدرهم، أو لمزهم، أو إثارة الضغينة فيما بينهم، والسير بالنميمة والفتنة بين العلماء، والصبر على ما قد يقع من بعضهم وحسن الظن بهم، وأنهم مجتهدون فيما ينفع طالب العلم.

ومن الأدب مع العلماء إجلالهم، قال ﷺ: «**إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وذي السلطان المقسط**»(١) والعناية برد الجميل لهم والدعاء لهم، قال ﷺ: «**من صنع إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له...**»(٢).

٥-الصبر والجدية وتحمل المشقة في طلب العلم:

طريق طلب العلم طريقٌ فيه من التعب والنصب ومكابدة النفس ومجاهدتها القدر الكبير، والعلمُ رسالة عظيمة تحتاج إلى جهاد وصبر وكفاح، وتحمل واحتساب للأجر، وما لاقاه ﷺ في أول نزول الوحي من كرب وشدة، وما واجهه موسى، عليه السلام، في قصته مع الخضر من عناء في طلب العلم من الأدلة على وجوب بذل الجهد وتحمل المشاق في طلبه؛ ومن صور الصبر وتحمل المشاق في طلب العلم مذاكرةُ العلم وحفظه في

(١) سنن أبي داود، حديث رقم (٤٨٤٣) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١٩٩).
(٢) سنن أبي داود، حديث رقم (١٦٧٢) وصححه الألباني في الصحيحة (٢٥٤).

الصدور والسطور[١]، فتقييد العلم بالكتابة أمانٌ من الضياع.

٦- حفظُ الوقت واغتنامه:

فأعز ما يملكه طالب العلم وقته، وهو مفتاح طلب العلم، ومن أعظم الآفات التي تضيع على طالب العلم الخير الكثير إضاعةُ الوقت، وقد قيل: إضاعة الوقت من المقت، ومن وفقه الله كان حريصًا على كل لحظة؛ لأنه يعلم أنه في طاعة وعبادة من أعظم القربات، وأثمنُ ما تقضى فيه الأوقات، ومما يعين على حفظ الوقت، بعد استشعار مكانة العلم وعظمته، البعد عن البطالين أصحابِ الهمم المتدنية مضيعي الأوقات، ومن وفقه الله يسر له رفيقًا صالحًا يعينه على الحق، صاحب همة ونشاط في طلب العلم يذاكر معه العلم ويراجعه معه.

٧-العمل بالعلم:

ثمرة العلمِ العملُ به والدعوة إليه، وأن يكون أثر هذا العلم جليًّا في هيئة طالب العلم وسمته، وباديًا على سلوكه وجوارحه، والعملُ بالعلم كمال للإنسان، ومن أعظم ما يعين على ضبط العلم والبركة فيه العمل به وبذله، وحتى لا يحيق به وعيد الله تعالى لمن لم يعمل بما علم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢] ومن بركة العلم الدعوة إليه ونشره وتدريسه وتعليم الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا مما يبقى لمسلم بعد موته: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا**

(١) ابن الجوزي، الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ، ص٢٥.

من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[١] ولشرف العلم فإنه يزيد بكثرة الإنفاق منه، وينقص مع البخل به وكتمه.

٨- معرفة قيمة العلم وأنه السبيل الوحيد لكل خير ورفعة في الدنيا والآخرة:

ولا شك أن المتأمل لنصوص الشرع ومقاصده يدرك يقينًا أن العلم هو السبيل لرفع الدرجات وبلوغ الخيرات، ودخول الجنة، ونوال فضل الله ورحمته، كما أنه السبيل للرفعة في الدنيا والتمكين فيها، ويكفي أن نشير في بيان هذا المعنى إلى قوله تعالى ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١] وقول النبي ﷺ: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين**»[٢].

ونضيف إلى ما سبق أنه لا يكاد يوجد خلاف على أن الثروة الحقيقية في عصرنا الحاضر لأي أمة والتي لا تدانيها ثروة أخرى، تتمثل فيما تملكه من علم وعلماء، وما تنشئه من جامعات ومدارس، وما تحصله من علوم ومعارف، وكم من أمم خاضت حروبًا مدمرة خرجت منها مهزومة هزيمة نكراء، لكنها سرعان ما استفاقت من غفوتها، وقامت من كبوتها، وأعادت مجدها في ظرف سنين قليلة، لأنها وإن خسرت جيشًا وسلاحًا، وأرضًا ومصانع، وقصورًا وبيوتًا، فقد احتفظت بعقول وعبقريات، ومعامل وجامعات، وعلماء وطلبة علم.

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١).

(٢) رواه مسلم (٨١٧).

وكل ذلك يؤكد أن الاهتمام بالعلم ـ بمعناه الواسع والشامل ـ فريضة شرعية، تأثم الأمة إن قصرت فيها، وضرورة معيشية وحياتية لا طريق غيرها للنهوض والتقدم، وما لم يعط العلم وأهله كل تقدير وعناية وكل حرص واهتمام، فلن يتسنى تغيير الحال أو تبديل الأوضاع السيئة في العالم الإسلامي والتي يشكو منها القاصي والداني.

٩- الشغف بالقراءة والمطالعة وحسن التعامل مع الكتب:

فالقراءة هي السبيل الأساسي لتحصيل المعرفة، والكتب من أعظم أدوات طالب العلم ووسائله في تلقي العلم، والاطلاع على دقائقه وتفصيلاته، ومن ثم فعليه أن يكون شغوفًا بها حريصًا على جمعها، مؤثرًا ذلك على المال، وسائر الملذات.

وقد نقل عن أهل العلم في القديم والحديث الكثير من الأقوال المنظومة والمنثورة والقصص، التي تبين عن مدى شغفهم بالكتب وحرصهم على تحصيلها، ومن ذلك قول بعضهم[(١)]: «لم أر قط أوعظ من قبر، ولا أمتع من دفتر، ولا أسلم من وحدة» وروي عن الحسن اللؤلؤي أنه قال: «لقد غبرت لي أربعون عامًا، ما قمت ولا نمت إلا والكتاب على صدري».

ومن شعر المتنبي المشهور:

أعز مكان في الدنا سرج سابح   وخير جليس في الأنام كتاب

(١) انظر الكثير من هذه الأقوال عند ابن عبد البر: جامع بيان العلم ٢/ ٢٠٤، وابن القيم: روضة المحبين ٦٩، ٧٠، ود. بكر أبو زيد: حلية طالب العلم ص ٥٤.

وقال أحمد شوقي:

أنا من بدل بالكتب الصحابا   لم أجد لي وافيًا إلا الكتابا

ومن أدب طالب العلم مع الكتب أن يحسن التعامل معها بأن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه ذلك، وأن يحافظ عليها فلا يعرضها للتلف أو التمزق، وأن يتصفحها بحرص وألا يكثر من التخطيط فيها حتى تصل إلى درجة طمس المكتوب، وأن يرتبها بطريقة تيسر له الحصول على ما يريد، وينبغي ألا يدخل في مكتبته كتابا إلا إذا تصفحه سريعًا وقرأ مقدمته وفهرسه ليلم بمجمل ما تضمنه من موضوعات، وطالب العلم إذا لم يبدأ بتأسيس نواة لمكتبة خاصة به مع أول ولوجه باب الدراسة الجامعية ثم تعهده بالنمو والزيادة مع استمرار الطلب فلا يعد من طلاب العلم الجادين.

١٠- الأدب مع رفاق الطلب(١):

وأول ذلك أن يتخير لصحبته ذوي الدين والخلق والهمة العالية، ممن يذكرونه إذا نسي، ويعينونه إذا عجز، ويحثونه إذا تكاسل، ويكونون نعم العون له في تذاكر مسائل العلم وقضاياه.

ومن أهم ما يجب مراعاته مع رفاق الطلب الجود والسخاء في نشر العلم والكتب، والبعدُ عما يفعله بعض من لا خلاق لهم من البخل بالعلم

---

(١) انظر ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم ص ١٣٩، ١٤٠، ود. بكر أبو زيد: حلية طالب العلم ص ٣٣، ٣٤، ود. محمد سعيد رسلان: فضل العلم ص ١٢٥، ١٢٦.

وحجب الفوائد عن الأقران بغية الاستئثار بها والتفوق على الآخرين، مع أن زكاة العلم إنفاقه، والجزاء من جنس العملُ والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، ومن بذل العلم للآخرين عوضه الله بأفضل مما أعطى، وفتح له من أبواب المعرفة ما لم يكن يخطر له على بال.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة**»(١) وقال ﷺ: «**مثل الذي يتعلم العلم ثم لا يحدث به كمثل الذي يكنز الكنز ثم لا ينفق منه**»(٢).

١١ – البعد عن سفاسف الأمور والآفات التي تذهب بركة العلم وثمرته:

وإذا كنا قد تكلمنا فيما مضى عن الآداب والخلال التي يجب على طالب العلم أن يتحلى بها فإن ثمة مجموعة من الآفات والرذائل التي تعكر صفو العلم، وتشوه مرآه الحسن، ويتعين على طلبة العلم أن يتجنبوها.

ومن هذه الآفات عدم الإخلاص، أو تعلم العلم لغير وجه الله تعالى، وكتم العلم، ولبس الحق بالباطل، والكبر والغرور، والتحاسد والتحاقد.

ومن الآفات الخطيرة التي ينبغي التحذير الشديد منها في عصرنا هذا آفة التعالم(٣) وهو ادعاء العلم والمعرفة، وتشبع المرء بما لم يعط،

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٨) وأحمد (٨٣٢٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤) وشعيب الأرناؤوط في التعليق على المسند.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٤٧٩) وصحيح الجامع (٥٨٣٥).

(٣) وانظر عرضًا مفصلًا لهذه الظاهرة في كتاب د. بكر أبو زيد: التعالم وأثره على الفكر =

وخوضه فيما لا معرفة له به من مسائل العلم وقضاياه، وهو من أعظم الأبواب للقول على الله بغير علم، والذي يعد من كبائر الذنوب مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] كما نهى الله سبحانه أن يخوض الإنسان فيما لا علم له به فقال: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقد كثرت شكاية أهل العلم في القديم والحديث من تدخل هؤلاء المتعالمين والدخلاء فيما لا معرفة لهم به، فقال الشافعي في الرسالة: «فالواجبُ على العالمين ألا يقولوا إلا من حيث علموا، وقد تكلم في العلم مَن لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الإمساكُ أولى به وأقربَ من السلامة له إن شاء الله» وقال الغزالي: «لو سكت من لا يعلم لقل الخلاف» وقال ابن حزم: «لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها، وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون، ويفسدون ويقدرون أنهم يصلحون».

وهناك الكثير من مظاهر التعالم، ومن أبرزها التعالم في الفتيا بالاجتراء عليها، والتصدي لها قبل استكمال شرائطها والتأهل لها، والخوض في مسائل ونوازل عظام هي من مهمات كبار العلماء الراسخين، لو عرضت

=

والكتاب.

على عمر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لجمع لها الأشياخ من أهل بدر، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أفتى فتيا غير ثبت، فإنما إثمه على من أفتاه**»[1] وبينما كان السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من أبعد الناس عن التصدر للفتيا وأكثرهم خوفًا منها، فإن المتعالمين من أكثر الناس جرأة عليه، وولوعًا بالغرائب والآراء الشاذة والمستنكرة، والاشتغال بنقد الآخرين، وتصنيف الناس، والانشغال بعيوبهم، والنهش في أعراضهم، ولو أن الطالب اشتغل بعيوب نفسه ومعالجة قصوره ونقصه، لكان أسلم له في دينه وعرضه.

١٢- التحلي بسمات الناجحين والبعد عن سمات المخفقين:

فالناجحون لهم سمات وخصائص يتميزون بها، وتعد من أهم الوسائل المعينة لهم في تحقيق التفوق والنبوغ، وعلى النقيض من ذلك المخفقون أيضًا لهم سمات وخصائص يجب على طالب العلم أن يبتعد عنها، وفيما يلي عرض موجز لأهم تلك السمات.

أهم سمات الطالب الناجح:

١- صاحب طموحات وأهداف سامية، وصاحب عزيمة عظيمة وهمة عالية في الدراسة.

٢- واثق من نفسه، غير شاعر بالعجز، وقوي الإرادة والشخصية، لا يخضع لأهواء الآخرين ورغباتهم.

٣- قادر على ضبط النفس وتنظيم أعماله، وتنفيذ خططه ومنهجه، وصبور وجلد يتحمل الصعوبات ويواجه المشكلات.

---

(١) رواه ابن ماجه (٥٣) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٦٩).

٤- ناجح في إقامة العلاقات الطيبة مع المحيطين به، وفعال ونشيط، لا يعرف الكسل والخمول بل يضيق بهما.

٥- محب للعلم والمعرفة والمطالعة، ويذاكر بانتظام، ويراجع الدروس السابقة.

٦- موفق في اختيار تخصص مناسب لقدراته ومواهبه.

٧- منتبه جيد للمحاضرات وتسجيل عناصر الدرس وتسجيل الملاحظات، ويستفسر عن كل ما غمض عليه ويهتم بالموضوعات العامة إلى جانب الاهتمام بالدراسة.

٨- صادق مع نفسه وغيره لا يفكر في الغش أو النجاح بالمحاباة والواسطة.

أهم سمات الطلاب المخفقين وعواملها:

١- عدم الرغبة في الدراسة أو التفوق فيها.

٢- سوء تنظيم الوقت والحياة العلمية.

٣- عدم الاستعداد للمحاضرة، وعدم الانتباه أو الاستماع للأستاذ، وسوء تدوين الملاحظات والتوجيهات.

٤- لا يذاكر بهمة عالية، وبطيء في القراءة وفهم الموضوعات، ولا يستفيد من المكتبة.

٥- سوء الاستعداد للاختبارات وسوء أدائها.

٦- النوم في الفصول أثناء المحاضرات أو الغفلة عنها، والانشغال بأشياء خارجة عن المحاضرة أثناء المحاضرة، وعدم التكيف مع الدراسة أو مع المحيطين به، وإهمال المذاكرة إلى قبيل الامتحانات، ولا يذاكر كل المقرر وإنما يترك بعض الموضوعات أملًا في ألا يأتي السؤال

عنها.

٧- عدم تحمل المسؤولية، وإلقاء اللوم عن الضعف على الآخرين باستمرار، وافتقاد روح التضحية من أجل الدراسة أو التفوق فيها، وضعف الروح المعنوية وعدم الثقة بالنفس والشعور بالعجز، ومحاولة النجاح بأي طريقة ولو كانت غير مشروعة؛ وذلك مثل تقديم أعذار غير مقبولة أو باستخدام الواسطة أو المحاباة.

١٢- التدرج في طلب العلم، والبدء بفروض الأعيان قبل فروض الكفايات، وبعلوم المقاصد قبل علوم الوسائل، وبالأصول قبل دقائق الفروع.

ونعني بذلك أن العلوم الشرعية ليست على مرتبة سواء، بل تنقسم بعدة اعتبارات، فهناك من العلوم ما يجب على كل مكلف أن يتعلمه ولا يسعه أن يجهله، وهناك علوم أخرى لا تجب إلا على المتخصصين، كما أن العلوم تنقسم إلى علوم مقاصد وعلوم وسائل، والواجب على طالب العلم أن يبدأ بالأوجب والأكثر أهمية، قبل أن يشغل نفسه بفروض الكفايات أو علوم الوسائل.

ومن لم يسلك سبيل التدرج والبدء بالمهم في طلب العلم فلن يصل إلى مطلوبه، وكما قيل من لم يتقن الأصول، حرم الوصول، ومن رام العلم جملة ذهب عنه جملة، ومما يشهد لضرورة التدرج في طلب العلم قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقال ﷺ:

«**إنما العلم بالتعلم**»(١) وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩] قال ابن عباس -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «ربانيين» أي: «حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ وَيُقَالُ الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ»(٢).

ومما يشهد لأهمية التدرج في التربية والتعليم معًا، ما رواه البخاري عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا أنها قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل لا تزنوا، لقالوا لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ، وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»(٣).

ومما لاشك فيه أن أفضل العلوم على الإطلاق هو العلم المعرف بالله تعالى وبدينه وشرعه، وهذا ليس حكرًا ولا خاصًا بطلاب التخصصات الشرعية، بل هو واجب على كل مسلم ليكون عنده من المعرفة والأصول ما يعرف به ربه سبحانه، وما يليق به تعالى ويعرف المكلف كيف يقوم بواجب العبودية والتقرب إلى الله تعالى، فيعبده بما شرع لا بهوى النفوس

---

(١) رواه الخطيب في (تاريخه) (٩/ ١٢٧) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٤٢).
(٢) رواه البخاري في كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل.
(٣) رواه البخاري (٤٩٩٣).

ولا يكـون أميًـا مقلـدًا، وهـذا ممـا يعـين علـى التـخصصات في المعـارف والعلوم الأخرى كالطبيعيات والإنسانيات وغيرها، بل هو الأساس لكل علم، ثم يتخصص الدارس بعد ذلك في سائر التخصصات الأخرى من كل علم نافع مفيد في الدنيا والآخرة.

❊ ❊ ❊

القســم الأول
العقيــــدة

مقدمات في دراسة العقيدة:

المقدمة الأولى: مفهوم العقيدة لغة واصطلاحًا:

فأما مفهوم العقيدة لغة فقد ذكرت المعاجم اللغوية استعمالات ومعاني متعددة لمادة (عقد) التي اشتق منها مصطلح العقيدة بعضها حسي، وبعضها معنوي، ويمكن إرجاعها إلى أصل كلي يدل على القوة والصلابة والثبات، والوثوق، ثم يتفرع عن هذا الأصل استعمالات متنوعة ليس من الصعب أن نوجد نوع علاقة بين الكثير منها، وبين المعنى الاصطلاحي للعقيدة.

فمن ذلك مثلًا ورودها بمعنى (العهد المؤكد) يقال: عهدت إلى فلان في كذا وكذا، أي ألزمته، والعقيدة على هذا المعنى عهد مؤكد بين العبد وربه، جوهره التصميم والعزم وقوة التنفيذ، وتأتي (عقد) أيضًا بمعنى (البناء)، والعقيدة في ضوء هذا المعنى حصن لبناء الإنسان يشده بقوة حتى لا يكون عرضة للانهيار أو السقوط، ويقال أيضًا: عقد الحبل يعقده إذا شده، وهكذا العقيدة لابد أن تكون قوية ثابتة، وغير قابلة للشك أو التذبذب(١).

---

(١) انظر ابن فارس: معجم مقاييس اللغة ٤/ ٨٦ – ٩٠، والفيروز آبادي: القاموس المحيط ١/ ٣١٢، ٣١٣، والفيومي: المصباح المنير ص ٥٧٥، والرازي: مختار الصحاح ص ٤٤٤، ٤٤٥.

وأما مفهومها اصطلاحًا فالعقيدة تطلق على الإيمان الجازم والحكم القاطع الذي لا يتطرق إليه شكٌّ، وهي ما يؤمن به الإنسانُ ويعقد عليه قلبَه وضميرَه، ويتخذه مذهبًا ودينًا يدين به؛ فإذا كان هذا الإيمان الجازم والحكم القاطع صحيحًا كانت العقيدة صحيحة، كاعتقاد أهل السنة والجماعة المبني على الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح، وإن كان باطلًا كانت العقيدةُ باطلة كاعتقاد فرق الضلال، والأديان المحرفة.

ويمكننا أن نعرف العقيدة بتعريف آخر يوضح معناها بجلاء فنقول إن المراد بها: (**التصديق القلبي الجازم – والمستلزم لانقياد الجوارح – بجملة الحقائق الواردة في القرآن أو السنة**)، وهي تشمل الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، كما عرف النبي ﷺ الإيمان بذلك.

المقدمة الثانية: أهمية العقيدة:

وهناك العديد من الأدلة والشواهد التي تؤكد على أهمية علم العقيدة، وضرورته، ووجوب تحصيله والاشتغال به، علمًا وعملًا، ودراسة وتأليفًا وتعليمًا، ومن أبرزها ما يلي:

١ – المتأمل لكتاب الله تعالى يجد أن العقيدة هي الموضوع الرئيس في القرآن كله، مكيه ومدنيه على السواء، وإن كانت في السور المكية تستوعب المساحة كلها، بينما هي في السور المدنية أشبه بالتيار الجاري الذي تستنبت على شاطئيه الحياة من كل جانب، لتترعرع وتزدهر بعد أن تشبعت بها النفس، ثم تأتي التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تنظم

حياة المجتمع المسلم، فتشغل معظم المساحة ولكنها تجيء مرتبطة بالعقيدة، ومستمدة منها.

ويستدل من تكرار الحديث عن العقيدة في القرآن للمؤمنين ـ وليس فقط لمن لم يؤمنوا بعد ـ أن الكلام عن العقيدة ليس درسًا يعطى ثم يمضى عنه إلى غيره، وإنما هو درس يعطى على الدوام ثم يمضى معه إلى غيره، ولا ينقطع عنه الحديث مطلقًا، وإذا كان القرآن وهو الكتاب الذي نزل لهداية البشر وإصلاح حياتهم، قد خصص كل هذا الحيز الواسع للحديث عن العقيدة وغرسها في القلوب فلا بد إذن أن تكون العقيدة هي محور إصلاح الحياة البشرية، وأن يكون اهتمام القرآن بها نابعًا من أنها الوسيلة إلى الغاية المطلوبة.

ولو كان هناك وسيلة أخرى أهم منها أو أجدر بتحقيق الإصلاح كالتنظيم الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي ـ مع الإقرار بأهمية ذلك كله ـ لأولاها القرآن نفس هذه الدرجة من العناية والاهتمام التي حظيت بها العقيدة، مما يجعلنا نقول: إن القرآن قد أعطى الأولوية العظمى لموضوع العقيدة قبل أي شيء آخر؛ لأن الله سبحانه يعلم أن هذا وحده هو السبيل الحقيقي لإصلاح البشر، وكل ابتداء بغيره، أو مضي بدونه سعي باطل وهباء منثور.

٢- والمتتبع لأحاديث السنة النبوية أيضًا لا يحتاج إلى كثير جهد كي يلحظ مدى الحيز الذي شغلته قضايا العقيدة ومسائلها، وكل من يتصفح المصنفات الحديثية الكبرى كالصحيحين والسنن الأربعة ـ ولا سيما

أبواب التوحيد والإيمان ـ والكتب الحديثية التي أفردت لمسائل العقيدة، وعنونت أحيانًا بالتوحيد أو الإيمان أو السنة، سوف يجد أنها تغطي كل أبواب ومسائل العقيدة، بدءًا من الإيمان بالله وتوحيده وأسمائه وصفاته، وانتهاء بأشراط الساعة وتفاصيل الآخرة.

٣- وثمة حقيقة أساسية تشترك فيها دعوات الرسل جميعًا، ومنهجهم في هداية الناس وإصلاحهم، وهي البدء بالدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده ونبذ الشرك ومعاداة أهله، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ويؤكد منهج الرسول ﷺ في الدعوة إلى الله هذه الأهمية أيضًا، حيث كان مفتاح دعوته وأساسها ومحور اهتمامه في المرحلة المكية التي استمرت قرابة ثلاث عشرة سنة هو ترسيخ العقيدة في قلوب أصحابه، وتعريفهم بربهم جل وعلا قبل أن يكلفوا بسائر الشرائع العملية من صلاة وزكاة وصيام وجهاد، وظل هذا الاهتمام في المرحلة المدنية التي نزلت فيها جملة التشريعات العملية في عشر سنوات، بل استمر حتى آخر لحظة من حياته ﷺ، ففي مرض موته ﷺ: «**طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا**»[(١)].

---

(١) رواه البخاري (٤٣٦) ومسلم (٥٣١).

٤ – جميع العلوم الشرعية من فقه وتفسير وحديث وغيرها تنبني على علم العقيدة وتستند إليه، فهو أساسها ومنه اقتباسها، وما لم يثبت الاعتقاد الصحيح لم يتصور علم تفسير ولا فقه ولا حديث، لأنها جميعًا متوقفة عليه ومقتبسة منه، كما أن جميع العبادات يتوقف قبولها على الإخلاص والتوحيد وإلا ردت على صاحبها كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

٥- العقيدة هي المدخل الأول والأهم لتغيير سلوك الناس أفرادًا ومجتمعات، وإصلاح واقع المسلمين والأخذ بأيديهم إلى طريق العزة والسعادة في الدنيا والآخرة، وإنما كان الأمر بهذه المثابة نظرًا لوجود نوع من الارتباط الوثيق بين العقيدة والسلوك، بحيث تؤثر عقيدة المرء في سلوكه ولابد إيجابًا أو سلبًا.

وكما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فإن: «الدين القائم بالقلب من الإيمان علمًا وحالًا هو الأصل، والأعمال الظاهرة هي الفروع وهي كمال الإيمان فالدين أول ما يبنى من أصوله، ويكمل بفروعه، كما أنزل الله بمكة أصوله من التوحيد والأمثال التي هي المقاييس العقلية والقصص والوعد والوعيد، ثم أنزل بالمدينة لما صار له قوة فروعه الظاهرة من الجمعة والجماعة والأذان والإقامة والجهاد والصيام وتحريم الخمر والزنا والميسر وغير ذلك من واجباته ومحرماته، فأصوله تمد فروعه وتثبتها، وفروعه تكمل أصوله وتحفظها، فإذا وقع فيه نقص ظاهر فإنما يقع ابتداء من جهة فروعه»(١).

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١٠/ ٣٥٥، ٣٥٦.

وأظن أنه ما من أحد يقف على حقيقة العقيدة الإسلامية ويدرك مفهومها الصحيح، أو يقرأ آيات القرآن وأحاديث السنة، التي يتكرر في مواضع كثيرة منها الاقتران بين الإيمان والعمل الصالح، إلا ويقطع بوجود تلازم وارتباط وثيق بين العقيدة والعمل، وبين الفكر والسلوك.

بل نستطيع أن نذهب أبعد من ذلك، فنقول: إن العقيدة بمعناها العام تعتبر الدافع الأساسي لكل عمل يقوم به الإنسان، ولا يتصور بحال انفكاك الكائن العاقل الخالي من الموانع عن إرادة تحركها عقيدة، أو فكرة ما تتحول بعد ذلك إلى ممارسة وتطبيق، فهو إذا توجه لعمل فلابد لهذا التوجه من إرادة وقصد ونية وعقيدة، تسبق العمل.

المقدمة الثالثة: ثمرات العقيدة وآثارها على الفرد والمجتمع:

والعقيدة الصحيحة تثمر أعظم الثمرات التي تظهر آثارها على الفرد أولًا، ثم تظهر فيما بعد على المجتمع كله، مع ضرورة أن نضع في اعتبارنا أن كل نفع أو صلاح للأفراد هو بالضرورة سبيل لصلاح المجتمع كله، لأن المجتمع في حقيقته ليس سوى مجموع أفراده رجالًا ونساء وصغار وكبارًا، ومن أبرز تلك الثمرات ما يلي[(١)]:

أولًا: آثارها على الفرد:

١ - النجاة في الدنيا والآخرة:

فالتوحيد والإيمان سبب النجاة والفلاح والفوز والرفعة في الدنيا

(١) انظر د. الفوزان: معنى لا إله إلا الله ومقتضاها وآثارها في الفرد والمجتمع، وسميرة جمجموم: أثر العقيدة في الفرد والمجتمع.

والآخرة، ففي الدنيا ييسر الله للمؤمن أموره، ويجعل له مخرجًا من كل ضيق، ويرزقه من حيث لا يحتسب، وينصره على أعدائه ويمده بمدد من عنده، ومن أول وأهم شروط حصول الاستخلاف في الأرض تحقيق الإيمان كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وأما في الآخرة فلا نجاة ولا فوز إلا لمن حقق التوحيد واجتنب الشرك، وقد حكم الله سبحانه أن الجنة محرمة على كل من أشرك به فقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢] ومن علامات حسن الخاتمة أن يكون آخر كلام المؤمن النطق بالشهادتين كما في الحديث: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»(١).

ومن فضائل التوحيد أنه سبب لتكفير الذنوب كما قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وسبب لترجيح كفة الحسنات على السيئات كما في حديث البطاقة المشهور، وسبب لمنع الخلود الأبدي في النار لقوله ﷺ: «**ما من أحد يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار**»(٢).

---

(١) رواه أحمد (٢١٥٢٩) وأبو داود (٣١١٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٩).

(٢) رواه البخاري (١٢٨) ومسلم (٣٢).

وهو سبب لنوال شفاعة المصطفى ﷺ، ففي الحديث أن أبا هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو نفسه**»[1] وسبب لتحقيق الأمن الكامل لقوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢] والظلم هنا معناه الشرك، وسبب للنجاة من الفزع الأكبر كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٠١].

٢- تحقيق معنى الكرامة الإنسانية:

إذ من المستحيل على الإنسان أن يشعر بقيمته وكرامته ومنزلته في كون الله الواسع الفسيح بكل ما يحدثه ذلك من آثار مهمة على طريقة تفكير الإنسان وأهدافه وغاياته ورسالته في الحياة، إلا إذا آمن بالله وكتبه ورسله والبعث بعد الموت.

فأما الإنسان عند أصحاب العقيدة الصحيحة والمؤمنين بوحي الله النازل من السماء، فهو مخلوق كريم على الله، خلقه ربه في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صورته، وقد خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته وميزه بالعلم والفهم، وجعله خليفة في الأرض، وسخر له كل ما في السماوات والأرض، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

---

(١) رواه البخاري (٩٩، ٦٥٧٠) وأحمد (٨٦٤١).

وقد تعددت الآيات القرآنية التي تظهر كرامة الإنسان وقيمته فضلًا عن تسمية سورة كاملة من القرآن بسورة الإنسان، ويكفي للدلالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] كما حكى سبحانه قصة خلق أبي البشر آدم عليه السلام، وكيف أمر الله الملائكة بالسجود له بعد أن أظهر الله لهم علم آدم وفضله، وكذلك ذكر سبحانه تسخير كل ما في الكون من مخلوقات ونعم لنفع الإنسان وصلاح أمره، فقال سبحانه وقال سبحانه ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

وهذه المكانة والمنزلة إنما تظهر على وجهها الأتم والأكمل في حق عباد الله الموحدين، فصاحب النظرة المادية يشعر بالتفاهة والضياع والعبثية، بينما صاحب العقيدة يشعر بمعاني الكرامة على الحقيقة، ليس بوصفه إنسانًا فحسب، وإنما بوصفه إنسانًا مؤمنا ينتمي إلى خير أمة أخرجت للناس: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] كما يشعر بالكرامة والعزة والحرية والاستعلاء والثقة بأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١] ويستحيل أن تتسرب إليه مشاعر الدونية أو الصغار والذلة والهوان: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

٣- تحقيق السعادة:

والسعادة هي الدرة المفقودة، والحلم المنشود الذي يلهث خلفه البشر جميعًا، من العالم في قمة تفكيره وتجريده إلى العامي في قاع سذاجته وبساطته، ومن الملك في قصره المشيد إلى الصعلوك في كوخه الصغير، ولا يتصور أن يوجد أحد من العقلاء يبحث عن الشقاء لنفسه أو يرضى بتعاستها بل الكل يسعى إلى طرد الهموم وراحة البال، وكما يقول ابن حزم رحمه الله: «تطلبت غرضًا يستوي الناس كلهم في استحسانه وفي طلبه فلم أجده إلا واحدا وهو طرد الهم، فلما تدبرته علمت أن الناس كلهم لم يستووا في استحسانه فقط ولا في طلبه فقط، ولكن رأيتهم، على اختلاف أهوائهم ومطالبهم وتباين هممهم وإراداتهم، لا يتحركون حركة أصلًا إلا فيما يرجون به طرد الهم، ولا ينطقون بكلمة أصلًا إلا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم... وليس في العالم ـ مذ كان إلى أن يتناهى ـ أحد يستحسن الهم، ولا يريد طرده عن نفسه»(١).

ولكن المشكلة ليست في اتفاق البشر أجمعين على طلب السعادة ودفع الهموم وإنما السؤال الذي حير الكثيرين هو أين السعادة؟ وكيف تحصل؟ وما السبيل إليها؟ وقد جرب الناس في شتى العصور ألوان المتع المادية، وصنوف الشهوات الحسية فما وجدوها تحقق السعادة أبدًا، بل زادتهم شقاوة وحسرة، فهناك من ظن السعادة في الأموال والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وهناك من ظنها في كثرة الولد الذين هم زهرة

---

(١) ابن حزم: الأخلاق والسير في مداواة النفوس ص ١٤.

الحياة وزينة الدنيا، وهناك من ظنها في الاستمتاع بالنساء واتخاذ الخليلات، وهناك من ظنها في علو الجاه وانتشار الصيت وتحصيل أعلى الشهادات والوصول إلى أرقى المناصب.

ولكن الشرع والعقل وشواهد الواقع تجزم بأن تلك الأشياء كلها لم تحقق لأصحابها السعادة أو الطمأنينة، وكما يقول ابن حزم ملخصًا النتيجة التي خلص بها من تأمله وتفكره الطويل في تلك المسألة: «وجدت العمل للآخرة ـ سالمًا من كل عيب خالصًا من كل كدر ـ موصلًا إلى طرد الهم على الحقيقة، ووجدت العامل للآخرة إن امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يسر، إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال به عون له على ما يطلب... ورأيته إن قصد بالأذى سر، وإن نكبته نكبة سر وإن تعب فيما سلك سر، فهو في سرور متصل أبدا، وغيره بخلاف ذلك أبدا، فاعلم أنه مطلوب واحد وهو طرد الهم وليس إليه إلا طريق واحد وهو العمل لله تعالى، فما عدا هذا فضلال وسخف»(١).

وهكذا فإن السبيل الوحيد لتحقيق السعادة هو توحيد الله ومعرفته والتقرب إليه بأنواع الطاعات والرضا بأحكامه الشرعية والقدرية، وقد قال سبحانه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، وفي القلب: «شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه

(١) المصدر السابق ص ١٥.

قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبدًا»(١).

٤- الرضا والأمل:

والرضا نعمة عظيمة، وهبة جزيلة، هيهات أن يصل إليها جاحد بالله أو شاك فيه، أو مرتاب في جزاء الآخرة، وإنما يصل إليها من قوي إيمانه بالله وحسن اتصاله به، وقد خاطب الله رسوله ﷺ بقوله ﴿ **فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ** ﴾ [طه: ١٣٠] وامتن عليه بقوله ﴿ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ** ﴾ [الضحى: ٥] وأثنى الله تعالى على المؤمنين بقوله: ﴿ **رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ** ﴾ [المائدة: ١١٩] وقال النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا**»(٢).

والمؤمن الموحد فقط هو الذي يغمره الإحساس بالرضا بعد كل قدر من أقدار الله، وهو الذي يحس تلك الحالة النفسية التي تجعله مستريح الفؤاد، منشرح الصدر، غير متبرم ولا متضجر ولا ساخط على نفسه وعلى

(١) ابن القيم: مدارج السالكين ٣/ ١٦٤.
(٢) رواه مسلم (٣٤) والترمذي (٢٦٢٣).

الكون والحياة؛ ومنشأ ذلك رضاه عن وجوده الخاص في نفسه، وعن الوجود العام من حوله ومبعث هذا وذاك وينبوع هذا الرضا هو الإيمان بالله رب العالمين.

فالمؤمن راض عن نفسه ـ أي عن وجوده ومكانه في هذا الكون ـ لأنه يعلم أنه ليس ذرة ضائعة ولا كمًا مهملًا ولا شيئًا تافهًا، بل هو خليفة الله في أرضه وأكرم مخلوقاته، وهو راض عن الحياة والكون من حوله لأنه يعتقد أن هذا الكون الفسيح صنع الله الذي أتقن كل شيء، والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وكل ذرة في الأرض أو السماء تدل على حكمة الله وتقديره.

ثم هو فوق ذلك كله راض عن ربه ومولاه جل وعلا، لأنه آمن بكماله وجلاله، وأيقن بعدله ورحمته، واطمأن إلى علمه وحكمته، وهو موقن تمام اليقين أن تدبير الله أفضل من تدبيره لنفسه، ورحمته تعالى به أعظم من رحمة أبويه به، ونعم الله تحيط به من كل جانب، وفضله قد عم المخلوقات جميعًا كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وإلى جانب الشعور بالرضا الذي تحدثه العقيدة في نفس صاحبها فثمة شعور آخر في غاية الأهمية وهو الأمل والرجاء وهو وقف على المؤمنين الموحدين وأبعد ما يكون عن الجاحدين المكذبين، والأمل والإيمان متلازمان، والمؤمن أوسع الناس أملًا، وأكثرهم تفاؤلًا واستبشارًا،

وأبعدهم عن التشاؤم والتبرم والضيق، بينما الكفر قرين لليأس وملازم له، وكلاهما سبب للآخر وثمرة له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] وقال سبحانه: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ [هود: ٩] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾ [الإسراء: ٨٣] وقال سبحانه: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ [فصلت: ٤٩].

ومبعث الأمل والتفاؤل عند الموحد هو إيمانه بربه ومولاه الذي بيده ملكوت كل شيء، والفعال لما يريد، والبر الرحيم التواب، والمؤمن المعتصم بهذا الإله الرحيم الودود دائمـًا متفائل، ينظر إلى الحياة بوجه ضاحك، ويستقبل أحداثها بثغر باسم، ولا يتسرب الحزن أو التشاؤم والقنوط إليه أبدًا.

فهو إذا حارب كان واثقًا بالنصر لأنه مع الله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ [النساء: ٤٥] وإذا مرض لم ينقطع أمله في الشفاء والعافية: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] وإذا اقترف ذنبًا لم ييئس من المغفرة، ومهما كان ذنبه عظيمًا فإن عفو الله أعظم: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وإذا أعسر لم يزل مؤملًا في اليسر لأنه يعلم أن

﴿مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ [الشرح: ٥] وإذا أصابته مصيبة كان على رجاء من الله أن يؤجره في مصيبته ويخلفه خيرًا منها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

٥- تحقق الأمن بمفهومه الشامل:

وعلى قدر رسوخ العقيدة في القلب، وكمال الإيمان ظاهرًا وباطنًا، والسلامة من الشرك بمختلف صوره وأشكاله يتحقق للمكلف الأمن بمعناه الشامل والمتكامل، وقد قصر الله في كتابه حصول الأمن على المؤمنين وحدهم فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وإنما كان الأمر بهذه المثابة لأن غير المؤمن في قلق دائم وخوف مستمر مما يخبئه المجهول ويأتي به الغد، وأما المؤمن فهو مطمئن ومستبشر وآمن من كل ما يخاف منه الآخرون، فهو آمن على رزقه حيث يوقن بأنه بيد الله وحده الرزاق ذي القوة المتين، وآمن على أجله حيث يعلم أنه بيد الله المحيي المميت، ولن يتقدم أو يتأخر لحظة عن الوقت المحتوم، ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، وآمن مما يخبئه المستقبل لأنه واثق بحسن تقدير الله له، وأن أمر المؤمن كلَّه خير كما قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»[1].

---

(١) رواه مسلم (٥٣١٨).

وهذا الأمن المتحقق للمؤمن يحصل هاهنا في الدنيا أولًا، ثم يبلغ تمامه وكماله في الآخرة حيث ينتفي كل ما يضاد الأمن من خوف أو حزن أو هم أو فزع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٥، ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

ولا شك أن كل أمن يناله أفراد المجتمع المسلم تتجلى آثاره على المجتمع ككل؛ حيث يأمن كل فرد فيه على نفسه وماله وعرضه، وقد جعل الله نعمة الأمن من النعم العظيمة التي امتن بها على قريش فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٤]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، ودعا إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يجعل مكة بلدًا آمنًا فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقال النبي ﷺ في بيان عظم شأن نعمة الأمن وأهميتها: «**من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»(١).

ثانيًا: آثار العقيدة على المجتمع:

ولعل من المهم أن ننبه إلى أن كل ما ذكرناه من آثار للعقيدة على الفرد

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٦٨) وصححه الألباني.

وما تحققه من نفع أو صلاح له هو بالضرورة سبيل لصلاح المجتمع كله، إذ إن الحدود بين الفرد والمجتمع متداخلة متشابكة.

ومع إقرارنا بالحقيقة السابقة فسوف نشير فيما يلي بإيجاز إلى بعض ثمرات العقيدة وآثارها على المجتمع ككل ومن ذلك(١).

١ – **تحقيق الوحدة بين المسلمين واجتماع الكلمة** التي ينتج عنها حصول القوة للمسلمين والانتصار على عدوهم؛ لأنهم يدينون بدين واحد وعقيدة واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣] والاختلاف في الدين والعقيدة يسبب التفرق والنزاع والتناحر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍۚ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، ولا يجمع الناس سوى عقيدة الإيمان والتوحيد، بل إن مال الدنيا كله ليس بكاف لجمع القلوب وتأليفها كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ومن العجيب أن يتفرق المسلمون، وربهم واحد ودينهم واحد وكتابهم واحد ورسولهم واحد وقبلتهم واحدة، ولا يخفى ما بين الوحدة والتوحيد من اقتران واضح وتلازم وثيق في اللفظ والمعنى، كما أن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]

(١) انظر في بيان ذلك د. الفوزان: معنى لا إله إلا الله ومقتضاها وآثارها في الفرد والمجتمع ص ١٠٤، وسميرة جمجموم: أثر العقيدة في الفرد والمجتمع ص ١٠٤.

إشارة بينة لهذا الاقتران، فلا وحدة حقيقية بين المسلمين إلا مع كلمة التوحيد الخالص».

٢- **توفر الأمن والطمأنينة في المجتمع الموحد** الذي يدين بمقتضى لا إله إلا الله؛ لأن كلًا من أفراده يأخذ ما أحل الله له ويترك ما حرم الله عليه تفاعلًا مع عقيدته التي تملي عليه ذلك، فيكف عن الاعتداء والظلم والعدوان وسفك الدماء المعصومة والإفساد في الأرض؟ ويحل محل ذلك التعاون والمحبة والموالاة؛ وقد ظهر هذا الأمر جليًا في حالة العرب قبل أن يدينوا بكلمة التوحيد وبعدما دانوا بها، فقد كانوا من قبل أعداء متناحرين يفتخرون بالقتل والنهب والسلب، فلما دانوا بها أصبحوا إخوة متحابين كما قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٣- حصول السيادة والاستخلاف في الأرض:

فالأرض لله سبحانه يرثها عباده الصالحون وللاستخلاف والتمكين شروط واضحة ذكرها الله في كتابه فقال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

٤- تحقق معاني المساواة والأخوة، وشيوع العدل وانتفاء التفرقة والظلم:

فكل من تحقق معنى الإيمان ورسخ في قلبه يعلم أن المؤمنين جميعًا

إخوة كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وهم رحماء بينهم، وأذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، ولا يؤمن أحد حق الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ثم إن المؤمنين جميعًا متساوون لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ولا تفرقة ولا تمييز بين عربي وعجمي ولا بين أبيض أو أسود إلا بالتقوى، والمسلمون كما قال ﷺ: «**تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم**»(١) وكل المؤمن على المؤمن حرام دمه وماله وعرضه، وهم متعاضدون متعاونون كالبنيان يشد بعضه بعضًا و: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»(٢).

المقدمة الرابعة: خصائص العقيدة الإسلامية:

ونعني بخصائص العقيدة الإسلامية أبرز السمات والملامح والمميزات التي تختص بها تلك العقيدة وتنفرد بها عن سائر العقائد المحرفة، أو الأديان الوضعية، أو المذاهب والأفكار الفلسفية المختلفة

ومن الفوائد لمعرفة تلك الخصائص أنها ترشدنا إلى معرفة المنهج الأمثل للتعامل مع مسائل العقيدة وتلقيها والاستدلال عليها، فما دامت تلك العقيدة عقيدة ربانية منزلة من عند الله، فالطريق الوحيد لمعرفتها هو

(١) رواه النسائي (٤٦٥٣) وأبو داود (٢٣٧١).

(٢) رواه البخاري (٥٥٥٢) ومسلم (٤٦٨٥).

الوحي الإلهي ممثلًا في القرآن والسنة، ومن الخطأ الفادح أن نستعير أي منهج أو مصدر معرفي آخر للتعامل مع قضايا العقيدة؛ ودور العقل البشري هو حسن الفهم لها، وإقامة البراهين على صحتها، ورد شبه المشككين فيها، وليس له أي مجال مطلقًا في إنشاء العقيدة ابتداء أو تطويرها وتغييرها لاحقًا كما يدعي المفترون.

ونشرع الآن في ذكر أهم هذه الخصائص بإيجاز، وفي مقدمتها ما يلي:

١ -**الربانية** وهذه الخصيصة هي أول وأبرز خصائص العقيدة الإسلامية وكل ما عداها فهو تبع لها، والربانية تعني الانتساب إلى الرب سبحانه وتعالى، ويطلق على الإنسان أنه رباني إذا كان وثيق الصلة بالله، عالمًا بدينه وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

والمقصود بالربانية، كخصيصة من خصائص العقيدة الإسلامية، هو أن هذه العقيدة بجملتها وتفصيلها موحى بها من عند الرب سبحانه وتعالى، وليس لأحد من الخلق نصيب في إنشائها، أو سلطة الزيادة أو النقص منها، وحتى رسل الله، صلواته وسلامه عليهم، ليس لهم دور في إنشاء العقيدة أو إضافة شيء إليها، وإنما يتلقونها تلقيًا من عند الله سبحانه وتنحصر وظيفتهم في النقل الدقيق وإبلاغ البشر بها، ثم بيانها وتوضيحها، وترسيخها بالقول والفعل والتربية في نفوس المكلفين.

وقد تعددت الآيات القرآنية التي تبين أن ما جاء به الرسول ﷺ وحي من الله، وأنه لا يستطيع أن يتقول شيئًا من عنده ـ حاشاه من ذلك ﷺ ـ ومن

تلك الآيات قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

وإذا قارن المسلم بين عقيدته الربانية هذه، وبين سائر عقائد الأديان المحرفة والمنسوخة الأخرى، فضلًا عن الأفكار والتصورات البشرية الوضعية، فإن باستطاعته أن يقول وهو مطمئن وواثق تمامًا: إن العقيدة الإسلامية هي العقيدة الوحيدة الباقية بأصلها الرباني وحقيقتها الربانية، أما سائر العقائد التي جاءت بها الديانات السماوية السابقة فقد انتابها التحريف والتبديل، وأضيفت إليها شروح وتصورات وأفكار وتأويلات بشرية، بدلت من طبيعتها الربانية، وبقي الإسلام وحده محفوظ الأصول، لم يشب نبعه الصافي مثقال ذرة من كدر، مصداقًا لموعود الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

والعقيدة الإسلامية، بجملتها وتفصيلها – خلافا للعقائد الأخرى – وحي من الله سبحانه وليست من وضع مجمع من المجامع، ولا من إضافة هيئة من الهيئات، ولا من إملاء أحد من البابوات، وليس لأحد من صحابة الرسول ﷺ مع علو مكانتهم، ولا لأحد من أئمة الإسلام وفقهائه مع جليل

قدرهم، أن يزيد فيها أو ينقص منها، فلا قياس ولا استحسان في العقيدة، خلافًا لما عليه الحال في عقيدة كالنصرانية مثلًا التي غيرها بولس عما كانت عليه تمامًا، كما تفننت المجامع الكنسية المختلفة في الزيادة منها والنقصان والتغيير والتبديل، تبعًا لأهواء ورغبات الأباطرة والكهنة والبابوات.

٢- التوقيفية.

وهذه الخصيصة تابعة للخصيصة السابقة ومتفرعة عنها، إذ طالما أن العقيدة الإسلامية ربانية المصدر والغاية، وموحى بها في جملتها وتفصيلها من عند الله فمعنى ذلك أنها عقيدة توقيفية، أي يوقف بها عند الحدود التي حددها وبينها وبلغها النبي ﷺ، فلا مجال فيها لزيادة أو نقصان، أو تعديل أو تبديل.

ويترتب على سمة التوقيفية هذه أمران في غاية الأهمية، يجب أن ينتبه المسلم لهما:

الأول: أن يترسخ في اعتقاد المسلم أن الرسول ﷺ قد أوقف أمته على حقائق العقيدة كاملة ومفصلة، بحيث لم يترك من مسائلها شيئًا إلا بينه وأوضحه، وهذا المعنى من ضروريات إكمال الدين الذي أخبر الله سبحانه عنه بقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣] فما لم يكن ذلك اليوم دينًا فليس بدين.

وبيان الرسول ﷺ لقضايا العقيدة وأصول الدين لا يقتصر فقط على المسائل دون الدلائل، وإنما يشمل بيان المسائل والدلائل معًا، أي بيان مسائل العقيدة التفصيلية ومفرداتها، ثم بيان الأدلة والبراهين الدالة على صحتها.

وأصول الدين إما أن تكون مسائل يجب اعتقادها والعمل بها كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد، وإما أن تكون دلائل هذه المسائل، وقد اشتمل الكتاب والسنة على كلا الأمرين بأتم بيان وأوضح دليل(١).

الثاني: أنه لابد من التوقيف في الكلام عن قضايا العقيدة، ولاسيما ما يتعلق بأسماء الله وصفاته وسائر الغيبيات، بحيث يلتزم المسلم بالكتاب والسنة لفظًا ومعنى، فلا يستعمل في التعبير عن العقيدة إلا الألفاظ التي جاءت بها النصوص الشرعية، كما يجب أن تستعمل هذه الألفاظ فيما سيقت له من المعاني المرادة بها في الكتاب والسنة، وبذلك يكون التوقيف متحققًا في مصادر العقيدة، وفي ألفاظها وأساليب التعبير عنها؛ وإنما كان الأمر بهذه المثابة لأن العقل البشري مهما أوتي من قوة في الفهم والإدراك، فليس بوسعه مطلقًا أن يستقل بإدراك حقائق العقيدة على وجه التفصيل والإيضاح التام، كما أن من قضايا العقيدة ما قد يعلو على إدراك العقل ويحار في كيفيته، وإن كان العقل مع ذلك لا يمكنه أن يحكم ببطلانه أو استحالته.

٣- الوسطية:

والوسطية هي العدل والتوسط بين الطرفين المتقابلين أو المتضادين، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ويطرد الطرف الآخر، أو يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه ويطغى على مقابله ويحيف عليه، وهي سمة بارزة لدين

(١) انظر ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٣/ ٢٩٥، ٢٩٦.

الإسلام ورسالته، ومن حكمة الله أن اختارها شعارًا لهذه الأمة المسلمة التي هي آخر الأمم، وقد وصفها بذلك فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] ولفظة الوسط هنا تعني العدل، كما أنها تستلزم الخيرية والفضل والتميز، وإذا كان من المتصور أن يوجد نوع من الميل إلى جانب على حساب الآخر في رسالة مرحلية محدودة الزمن والإطار – مثلما مالت المسيحية إلى جانب الروح على حساب المادة لتعالج التطرف في التعلق بالمادة الذي كان موجودًا عند اليهود - فمن المستحيل أن يوجد غير الوسطية والعدل في الرسالة الخالدة والخاتمة.

وإذا كانت الوسطية من سمات الإسلام وخصائصه البارزة ومن صفات الأمة المسلمة؛ فمن الضروري أن تتجلى آثارها واضحة في كل جوانب الإسلام من عقيدة وشريعة وتربية وأخلاق ونظام حياة، وسوف نركز فيما يلي على إبراز وسطية العقيدة من جانبين الأول وسطية العقيدة الإسلامية مقارنة بالعقائد الأخرى، والثاني وسطية عقيدة أهل السنة والجماعة مقارنة بعقائد المذاهب والفرق الأخرى من خوارج ومعتزلة وأشاعرة وشيعة وغيرهم.

أولًا: وسطية العقيدة الإسلامية مقارنة بالعقائد الأخرى(١):

أ – العقيدة الإسلامية وسط بين معتقدات الخرافيين الذين يسرفون في

---

(١) انظر ابن تيمية: الصفدية ٢/ ٣١٠ – ٣١٣، مجموع الفتاوى ٣/ ١٤١، ١٦٨، والنبوات ص ١٤٧، والجواب الصحيح ١/ ٦٩ – ٧١، وابن عثيمين: شرح العقيدة الواسطية ٢/ ٦٣، ٦٤.

الاعتقاد فيؤمنون بغير مستند أو برهان ويصدقون بكل شيء، وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس ولا يستمعون لصوت الفطرة ولا نداء العقل، وأما العقيدة الإسلامية فهي تدعو إلى الإيمان ولكن بما قام عليه الدليل والبرهان كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

ب – وهي وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط، خانقين صوت الفطرة في صدورهم ومتحدين منطق العقل في رءوسهم، وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبدوا الأبقار والأحجار والأشجار، وأما عقيدة الإسلام فتقوم على الإيمان بإله واحد أحد ليس له شريك ولا والدة ولا ولد، وكل ما عداه فعباد مخلوقون مربوبون لرب العالمين جل وعلا.

ج – وهي وسط في صفات الله بين عقيدة اليهود الذين شبهوا الخالق بالمخلوق فوصفوا الخالق بالصفات التي تختص بالمخلوق، وهي صفات النقص، فقالوا إن الله فقير، وإن الله بخيل، وإن الله تعب لما خلق العالم فاستراح، وبين عقيدة النصارى الذين شبهوا المخلوق بالخالق، فوصفوا المسيح بالصفات المختصة بالخالق سبحانه وقالوا: إنه الله، وأما العقيدة الإسلامية فتصف الخالق بصفات الكمال وتنزهه عن صفات النقص، كما تنزهه أن يكون أحد كفوًا له في شيء من صفات الكمال، فهو منزه عن صفات النقص مطلقًا، ومنزه في صفات الكمال أن يماثله فيها شيء من المخلوقات.

د – وهي وسط في نظرتها إلى الأنبياء عليهم السلام بين اليهود الذين كذبوا الأنبياء وقتلوهم، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا

لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧] كما نسبوا إليهم القبائح التي يستحيل صدورها من نبي البتة، وبين النصارى الذين غلوا في الأنبياء فأشركوا بهم وبمن دونهم فيما هو من حق الله الخالص، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

وأما المسلمون فقد آمنوا بهم كلهم، ولم يفرقوا بين أحد منهم، إذ الإيمان بجميع النبيين فرض واجب، ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بهم كلهم، ومن سب نبيًا من الأنبياء فهو كافر قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

ثانيًا: وسطية عقيدة أهل السنة والجماعة مقارنة بالمذاهب والفرق الأخرى(١):

وإذا كانت الأمة الإسلامية وسطًا بين الأمم الأخرى، فإن أحق طوائف

---

(١) انظر في تفصيل الكلام عن هذه المسألة ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٣/ ١٤١، ١٦٨، والصفدية ٢/ ٣١٣، ٣١٤، والجواب الصحيح ١/ ٧١ – ٧٣، ٤/ ٣٩٤ – ٣٩٧ وابن القيم: بدائع الفوائد ١/ ١٨٠، وابن عثيمين: شرح العقيدة الواسطية ٢/ ٦٥ – ٧٦، ود. محمد باكريم: وسطية أهل السنة والجماعة بين الفرق.

الأمة بهذا الوصف هم أهل السنة والجماعة ممن ساروا على منهج الرسول ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعقيدتهم هي العقيدة الوسط إذا ما قورنت بعقائد الفرق الأخرى في سائر أبواب العقيدة وأصولها الكبار.

أ – فهم وسط في باب الصفات بين المعطلة ممن نفوا صفات الله وعطلوها كليًا أو أثبتوا بعضها ونفوا بعضها الآخر بحجة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين، وبين المشبهة ممن غلوا في الإثبات وجعلوا صفات الله كصفات المخلوقين ومثلوا الله تعالى بخلقه، وأما أهل السنة فهم يثبتون لله سبحانه كل ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺدون تعطيل أو تحريف أو تكييف أو تمثيل.

ب– وهم وسط في باب أسماء الدين والإيمان ـ وهي الأسماء التي رتب الله عليها وعدًا ووعيدًا كمؤمن ومسلم وكافر وفاسق ونحو ذلك ـ بين الوعيدية الذين سلبوا عن العاصي اسم الإيمان في الدنيا وسموه إما كافرًا كما تقول الخوارج، وإما في منزلة بين المنزلتين كما تقول المعتزلة، وبين المرجئة والجهمية ممن يخرجون العمل عن مسمى الإيمان، ويرون أن العاصي مؤمن كامل الإيمان، وأما أهل السنة فيرون أنه لا يصح إطلاق الاسم ولا ترتيب الوعد والوعيد عليه إلا وفقًا لما جاءت به النصوص الشرعية، والعاصي بكبيرة من الكبائر هو مؤمن من جهة وفاسق من جهة، فهو مؤمن ناقص الإيمان وليس كافرًا أو في منزلة بين المنزلتين.

ج– وهم وسط في باب القضاء والقدر وأفعال العبد بين الجبرية ممن

غلوا في إثبات القدر حتى سلبوا الإنسان قدرته واختياره وجعلوه مثل ريشة في مهب الريح فلا قدرة له ولا فعل، وإنما هو مجبر على أفعاله، وبين القدرية ممن جعلوا العبد مستقلًا بفعله وخالقًا له، وليس للقدرة والمشيئة الإلهية دخل في أفعال العبد مطلقًا، وأما أهل السنة فقد قالوا إن للإنسان اختيارًا وإرادة وهو مسؤول تمامًا عن أفعاله الاختيارية؛ لكن كل فعل له إنما يقع بمشيئة الله وقدرته، وهو مخلوق لله تعالى الذي لا يقع في ملكه ما لا يشاؤه أو يريده.

د- وهم وسط في أصحاب رسول الله ﷺ بين الشيعة والخوارج والنواصب، فليسوا كالخوارج ممن كَفَّروا كثيرًا من الصحابة وآل البيت، وليسوا كالشيعة ممن غلوا في علي رضي الله وأهل بيته ووقعوا في أبي بكر وعمر وطائفة من كبار الصحابة، بل ذهبوا إلى تكفير جل الصحابة، كما أنهم ليسوا مثل النواصب ممن عادوا عليًا -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأهل البيت وانتقصوا كثيرًا من مكانتهم وجحدوا ما صح من مناقبهم، وأما أهل السنة فهم يحبون الصحابة جميعًا ويوالونهم ولا يكفرون أحدًا منهم، ويحبون آل البيت ويوالونهم ويعرفون لهم قدرهم، كما لا يغلون فيهم ولا يرفعونهم فوق المكانة التي أمرنا الله بإنزالهم إياها.

هـ- وهم وسط في باب المنقول والمعقول بين طائفة غلت في المعقولات وقدمتها على نصوص الشرع، وبين طائفة أخرى جفت عن المعقولات وأهملتها بالكلية، وأما أهل السنة فهم يعتمدون على النقل الصحيح والعقل الصريح، ويعظمون النصوص ويقدرونها حق قدرها كما

يولون العقل ما يستحقه من مكانة، وهم يرون أن العقل يشهد لصحة النقل ويتفق معه، ومن المحال أن يتعارض صحيح المنقول مع صريح المعقول.

و- وأهل السنة وسط في باب التزكية وأعمال القلوب بين نفر من الفقهاء الذين انشغلوا بالأعمال الظاهرة، وتعمقوا في أحكامها مهملين أعمال القلوب وإصلاحها، وبين المتكلمين والفلاسفة الذين انشغلوا بقضايا المعقول وعويص المسائل بكل ما فيها من جفاف وجمود وقسوة للقلب، وبين الصوفية الذين أهملوا العلم وجعلوا ترقيق القلب بكل وسيلة غاية لهم بغض النظر عن مشروعية الوسائل المؤدية إلى ذلك.

أما أهل السنة فقد جمعوا بين أبواب الخير كله فانشغلوا بالعلم الشرعي وأعطوا مسائل الفقه وأعمال الجوارح الظاهرة حقها من البحث والتحقيق؛ مع الاهتمام بتزكية النفوس وإصلاح القلوب من خلال أدلة الشرع، مقتصرين على ما جاء في الكتب والسنة، بعيدًا عن الطرق المبتدعة أو الوسائل الذوقية أو الكشفية التي لم يقم عليها برهان من كلام الله، أو كلام رسوله ﷺ، أو فعل سلف الأمة من الصحابة والتابعين.

٤ – الوضوح:

ومن سمات العقيدة الإسلامية البارزة: الوضوح والبيان، وخلوها من التعارض والتناقض والغموض والتعقيد في ألفاظها ومعانيها؛ وذلك لأنها مستمدة من كلام الله المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن كلام رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، بينما المعتقدات الأخرى هي نتاج لتخليط البشر أو تأويلهم وتحريفهم، وشتان بين وحي الخالق وأفكار البشر.

ويعتبر الوضوح إحدى خصائص الإسلام العامة وميزاته البارزة، التي تتجلى في كل جوانب هذا الدين، سواء فيما يتعلق بالأصول والقواعد، أو بالمصادر والمنابع، أو بالأهداف والغايات، أو بالمناهج والوسائل.

فمصادر الإسلام الأساسية التي تستقى منها عقائده وشرائعه واضحة ومبينة ومحددة، وهي متمثلة في القرآن والسنة، وكلاهما قد بلغا الغاية في البيان والوضوح، فالقرآن: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] وكلام النبي ﷺ في قمة الفصاحة والبيان، بل إن من مقاصد إيحائه الأساسية أن يبين للناس ما نزل عليهم كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] فلا ألغاز في دين الله ولا أسرار ولا رموز ولا غموض.

وأهداف الإسلام وغاياته واضحة وتتمثل في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى التوحيد، وتعبيدهم لربهم جل وعلا، وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وأصول الإسلام العقدية، كتوحيد الله والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر، واضحة ويسيرة الفهم، وخالية من كل تعقيد أو غموض، وقد قام علي صحتها ما لا يحصى من البراهين النقلية والعقلية والفطرية الكافية لإقناع كل عقل، أيًا كان مقداره من العلم والمعرفة، فالتوحيد مثلًا قضية واضحة في ضمير كل مسلم، ودليلها أيضًا واضح في فكره، كما أن أثرها واضح في حياته، وكيف لا وهو يستقبل الحياة بالتوحيد حينما يؤذن له والده أو وليه في أذنه، ويودعها بالتوحيد حيث يسن أن يلقن المحتضر لا إله إلا الله.

وفي مقابل هذا الوضوح والبيان في العقيدة الإسلامية نجد العقائد والمذاهب الفلسفية الأخرى مليئة بالصعوبة والتعقيد والغموض واستحالة الفهم، حتى صار شعار البعض منها كالنصرانية اعتقد أولًا ثم فكر، كما تضمنت الكثير من الأسرار التي لا يستطيع أحد فهمها سوى قلة من رجال الكهنوت الذين يزعمون كذبًا أنهم قد وقفوا على تلك الأسرار، مع أن الخلاف بينهم دائم ومستمر.

ويكفي أن نضرب مثلًا لذلك بقضية طبيعة المسيح عليه السلام، وهل هو إله أم ابن إله، أم بشر خالص، أم بشر حل فيه الإله، أم جزء من أقانيم ثلاثة يتكون منها الإله، وقد عقدت المجامع الكنسية للفصل في تلك المسائل وتفرق النصارى بسببها شيعًا وأحزابًا، مع أن الحق فيها واضح ويسير وهو أن المسيح عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وليس إلهًا ولا ابن إله ولن يستنكف قط أن يكون عبدًا لله سبحانه.

٥- موافقتها للفطرة:

فالعقيدة الإسلامية ليست غريبة عن الفطرة ولا مناقضة لها، بل هي منطبقة عليها تمام الانطباق ويتجلى وصف العقيدة الإسلامية بالفطرية من وجهين:

فهي أولًا عقيدة فطرية، بمعنى أنها مغروسة في نفس الإنسان منذ ولادته ونشأته الأولى، وكل ما يحتاجه هو التذكير بتلك الحقيقة الراسخة والمستقرة في وجدانه.

ثم هي عقيدة فطرية بمعنى ثان وهي أنه لا توجد حقيقة من حقائق

العقيدة الإسلامية تتعارض أو تتناقض مع الفطرة الإنسانية السوية، وكل أصول العقيدة الكبرى كالإيمان بالله وتوحيده والنبوات والبعث والجزاء يمكن للفطرة البشرية أن تهتدي إليه بيسر وسهولة.

ومن المهم أن نشير إلى أن فطرية العقيدة الإسلامية فرع عن فطرية دين الإسلام ككل، كما قال سبحانه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠] وقال النبي ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة**»(١) وأكثر أهل العلم على أن المراد بالفطرة هنا الإسلام(٢) لكن يجب أن نضع في اعتبارنا أن من فسر الفطرة بالإسلام لا يعني بذلك أن كل مولود يخرج من بطن أمه عالم بالدين كله، ومدرك لحقائقه وتفصيلاته، فذلك أمر غير متصور عقلًا أو واقعًا، وإنما المراد أن فطرته موجبة ومقتضية لدين الإسلام، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه وربوبيته والتعبد له، ومحبته وإخلاص الدين له، ومقتضيات الفطرة تحصل شيئًا بعد شيء، ولو خُلي وعدم المعارض لهذا المقتضي لم يعدل عن الإسلام إلى غيره، تماما كما يولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة، فتشتهي نفس المولود اللبن الذي يناسبه ويغذيه(٣).

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٨٥، ٤٧٧٥، ٦٥٩٩)ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) انظر ابن تيمية: درء التعارض٨/ ٣٥٩ – ٤٢١ وابن القيم: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ص ٦٠٧.

(٣) انظر ابن القيم: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ص ٦١٨.

٦- اليسر والسهولة:

وهي من خصائص العقيدة الإسلامية النابعة من طبيعة الإسلام ذاته، فدين الإسلام كله، بعقائده وشرائعه وأخلاقه، يسر لا عسر فيه بأي وجه من الوجوه، والحرج والمشقة مرفوعان ومنفيان جملة وتفصيلًا، والتخفيف عند وجود المشقة قاعدة أصيلة من قواعد الدين.

وقد تكررت الإشارة إلى يسر الدين وانتفاء الحرج والمشقة كثيرًا في الكتاب والسنة، ومن ذلك قول الله سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: ٢٨] وقوله سبحانه: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾ [لأنفال: ٦٦] وقال سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾ [المائدة: ٦] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٧٨] وببعثة النبي ﷺ وضع الله عنا الآصار والأغلال التي كانت على من كانوا قبلنا كما قال سبحانه: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال النبي ﷺ: «**إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه**»(١) ومن هديه وأخلاقه أنه: «ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما»(٢).

ويتجلى يسر العقيدة الإسلامية من وجوه عديدة: منها أن المصادر

---

(١) رواه البخاري (٣٩) والنسائي (٥٠٣٤).

(٢) رواه البخاري (٣٥٦٠، ٦١٢٦) ومسلم (٢٣٢٧).

التي تعتمد عليها وهي القرآن والسنة، سهلة ويسيرة لمن رام تفهمها وتدبرها، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧] وقد أنزل الله القرآن بلسان عربي مبين ومفصل، حتى تنقطع حجج العباد، ولئلا يحتج أحد باستحالة الفهم أو صعوبة الإدراك لما تضمنه من معان ومقاصد. وأما سنة النبي ﷺ فقد أُعْطِي الرسول جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصارًا، وجاءت أحاديثه في الذروة العلا من الفصاحة والبيان.

ومن هذه الأوجه أيضًا أن هذه العقيدة عقيدة سهلة تخلو من التعقيد والصعوبة والغموض أو الأسرار كبعض العقائد الأخرى، فأصول العقيدة الإسلامية واضحة ومحدودة، ويمكن فهمها واستيعابها من الكبير والصغير والمتعلم والأمي والحضري والبدوي، وقد كان الأعرابي يأتي النبي ﷺ فيسأله عن الإسلام بعقائده وأحكامه فيعلمه الرسول ﷺ ذلك في كلمات معدودة.

المقدمة الخامسة: سمات أهل السنة والجماعة، وأبرز أصولهم المنهجية:

وأهل السنة والجماعة: هم من كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابُه، وهم المتمسكون بسنة النبي ﷺ، وهدي الصحابة والتابعين، وأئمة الهدى المُتَّبِعين لَهُم، وهم الذين استقاموا على الاتِّباع وابتعدوا عن الابتداع في أي مكان وفي أيِّ زمان، وهم باقون منصورون إلى يوم القيامة، وسمُّوا بذلك لانتسابهم لسنة النبي ﷺ، واجتماعهم على الأخذ بها: ظاهرًا وباطنًا، في القول، والعمل، والاعتقاد.

ولأهل السنة العديد من السمات والأصول المنهجية التي تميزهم عن غيرهم من أهل البدع ومن أهمها ما يلي:

١- الاعتصام بالكتاب والسنة، والتسليم الكامل لهما، والاهتمام بدراسة كتاب الله حفظًا وتلاوة وتفسيرًا، والاهتمام بالحديث، معرفة وفهمًا وتمييزًا لصحيحه من سقيمه، مع إتباع العلم بالعمل، وفهم نصوص الكتاب والسنة كما فهمها السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباعهم، ثم العمل به كما عملوا، فإن كان علمًا فبالإيمان والتصديق، وإن كان أمرًا فبالإتيان منه بما يستطيعه المسلم، وإن كان نهيًا فبتركه والانكفاف عنه.

٢ – الدخول في الدين كله، والإيمان بالكتاب كله، فيؤمنون بنصوص الوعد ونصوص الوعيد، وبنصوص الإثبات للصفات، ونصوص التنزيه، ويجمعون بين الإيمان بقدر الله، وإثبات إرادة العبد، ومشيئته، وفعله، كما يجمعون بين العلم والعبادة، وبين التعليم والتزكية، وبين القوة والرحمة، وبين العمل بالأسباب والتوكل التام على الله سبحانه.

٣- وأهل السنة هم أَهل الوسط والاعتدال بين الإفراط والتفريط، وبين الغلو والجفاء، سواء أكان ذلك في باب العقيدة، أَم في باب الأَحكام والسلوك، فهم وسطٌ بين فرق الأمَّة، كما أَنَّ الأُمة وسطٌ بين الملل.

٤- وأهل السنة يعظمون أصحاب رسول الله ﷺ، ويثنون عليهم ويعتقدون عدالتهم ويكفون عما شجر بينهم، ويوجبون فهم الكتاب والسنة بفهمهم، ويعتقدون أن إجماعهم حجة شرعية لا يجوز مخالفتها لأنهم لا يجتمعون على ضلالة قط.

٥- ومع أن أهل السنة يجلون السلف الصالح، ويعتقدون أن طريقة السلف أَسْلَم، وأعلم وأحكم من طريقة الخلف فليس لهم إِمام مُعظَّمٌ يأَخذون كلامه كلَّه ويدعُونَ ما خالَفه إِلا رسول اللّه ﷺ وهم أَعلمُ الناسِ بأَحواله، وأَقواله، وأَفعاله وهم أَشدُّ النَّاس حُبّا للسُّنَّة وأَحرصهم على اتباعها، وأكثرهم موالاة لأَهلها.

٦- ومن أصول أهل السنة جمعُهُم بين النصوص في المسألة الواحدة وَردهم المتشابه إِلى المحكم، ورَفْضهُم التأويل الفاسد، واستسلامهم للشرع، وإبطالهم لمبدأ تقديم العقل على النقل، وتركهم الخصومات في الدِّين، ومجانبة أَهلها، وترك الجدال والمراء في مسائل العقيدة، ومسائل الحلال والحرام.

٧- حِرْصُهُم على نشرِ العقيدة الصحيحة، والدين القويم، وتعليمهم النَاس وإرشادهم والنصيحة لهم، والاهتمام بأُمورهم، مع الصبر على ذلك كله ابتغاء مرضاة الله، وطمعًا في جنته ورضوانه.

٨- الحرص على جمع كلمة المسلمين على الحق، وتوحيد صفوفهم على التوحيد والاتباع وإبعاد كل أسباب النزاع والخلاف بينهم، ومن هنا لا يتميزون على الأمة في أصول الدين باسم سوى السنة والجماعة، ولا يوالون، ولا يعادون، على رابطة سوى الإسلام والسنة.

٩- محبَّة بعضهم لبعض، وترحُّم بعضهم على بعض، وتعاونهم فيما بينهم، وسد بعضهم لنقص بعض، ولا يوالون ولا يعادون إِلا في اللّه، كما أَنَّ اللّه- عز وجل- عَصَمَهمُ من تكفير بعضهم بعضًا.

١٠- وأهل السنة هم أعرف الناس بالحق وأرحمهم بالخلق وأكثر الناس عدلًا وإنصافًا، فهم يحكمون على الموافق والمخالف بعلم وعدل وإنصاف، وهم يراعون حق الله تعالى لا حق النفس أو الطائفة؛ ولهذا لا يغالون في مُوالٍ، ولا يجورون على معاد، ولا يغمطون ذا فضل فضله أيًا كان، وبالجملة: فهم أحسنُ النَّاس أَخلاقًا، وأَحرصهم على تزكية أَنفسهم بطاعة اللّه تعالى، وأَوسعُهم أُفُقًا، وأَبعدهم نظرًا، وأَرحبهم بالخلاف صدرًا، وأَعلمُهم بآدابه وأصوله.

١١- وأهل السنة هم القدوة والنموذج لكل سائر إلى الله بثباتهم على الحقِّ وعدم تَقَلُّبِهِمْ وتذبذهم، واتِّفاقهم على أُمور العقيدة، وجمعهم بين العلم والعبادة، وبين التوكل على اللّه والأَخذ بالأَسباب، وبين التوسع في الدُّنيا والورع فيها، وبين الخوف والرجاء، والحب والبغض في اللّه، وبين الرحمة واللين للمؤمنين، والشدةِ والغلظة على الكافرين، وعدم اختلافهم مع اختلاف الزمان والمكان.

❊ ❊ ❊

أصول العقيدة
الأصل الأول: الإيمان بالله تعالى

والإيمان بالله وتوحيده هو أصل هذا الدين وأساسه، وعليه مدار الإسلام كله وهو: «أول الدين وآخره، وباطن الدين وظاهره»(١) وإذا تحقق هذا الإيمان كان ركيزة لما بعده من حقائق الدين، سواء ما كان منها عقديًا يطلب تحمله بالتصديق القلبي، أو ما كان شرعيًا يطلب تحمله بالعمل السلوكي، وإذا خالط هذا الإيمان الشك أو ناقضه الجحود انهدم ما بعده من تلك الحقائق، ولم يعد الإيمان بها أو العمل بحسبها يساوي شيئًا في ميزان الدين، كما أن الإيمان بالله وتوحيده هو أصل العقيدة ومحورها، وركنها الأول والأهم، وهو بالنسبة لبقية أركان العقيدة الأخرى ـ كالإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر ـ مثل أصل الشجرة بالنسبة للسوق والفروع.

وبقدر رسوخ ووثاقة الإيمان بالله في قلب المكلف، بقدر ما يكون الإيمان بالعقيدة الإسلامية ـ عامة ـ راسخًا وثابتًا، والعكس صحيح، فكلما أصاب هذا الإيمان غفلة أو نسيان أو داخلته الظنون والشكوك، أصبحت العقيدة كلها في حال من الضعف لا يتأتى معها عمل صالح، أو حال من الاضطراب الذي يكون به غير مغن في ميزان الإيمان شيئًا، والمتأمل لكتاب الله تعالى يلحظ

---

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ٥/ ٣٤٩.

بوضوح أن: «التوحيد هو سر القرآن، ولب الإيمان»[١] بل نستطيع أن نقول دون مبالغة: إن كل آية في القرآن هي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه»[٢].

ولا يتم الإيمان بالله على وجهه الصحيح الواجب شرعًا، والذي تتحقق به النجاة في الآخرة، إلا إذا آمن المكلف بهذه الأمور الأربعة، وهي:

١ – الإيمان بوجود الله.

٢ – الإيمان بربوبية الله (توحيد الربوبية).

٣ – الإيمان بألوهية الله (توحيد الألوهية).

٤ – الإيمان بأسماء الله وصفاته (توحيد الأسماء والصفات).

أولاً: الإيمان بوجود الله:

ولعل من الضروري في مفتتح كلامنا عن هذه القضية المهمة أن نؤكد على أن وجود الله سبحانه ومعرفته من الحقائق الفطرية البديهة، الراسخة والمستقرة في نفس كل إنسان، وأن الأدلة على ذلك لا يحصرها العد ولا يحيط بها الحد، بل إن دلائل الربوبية وآياتها أعظم وأكثر من كل دليل على كل مدلول، وقد جعل الله لكل قوم بل لكل إنسان من الدلائل المعينة التي يريه الله إياها في نفسه وفي الآفاق ما لا يعرف أعيانها قوم آخرون[٣]كما قال

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١/ ٣٦٨، وانظر أيضًا ١٥/ ١٦٤.

(٢) انظر ابن القيم: مدارج السالكين ٣/ ٤٥٠.

(٣) انظر ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٦/ ٣٧٨.

تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ولا شك أن علمنا بهذا الأمر يوفر علينا الكثير من الجهد والوقت، ويعفينا من الاستفاضة في الاستدلال وإقامة الحجج والبراهين على تلك الحقيقة الساطعة التي ظلت البشرية عبر تاريخها الطويل لا تكاد تعرف جاحدًا لها أو مشككًا فيها، كما أنه يدفعنا إلى تركيز اهتمامنا على معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وكيفية التقرب إليه وعبادته، وليس على إثبات وجوده.

وقد كان حريًا بنا ألا نقف كثيرًا عند أدلة وجود الله؛ لأن الفطرة الإنسانية تشهد بذلك، ولا يكاد يعرف منكر لوجود الخالق في الماضي إلا النزر اليسير، وهم لا يمثلون نسبة تذكر في البشرية، لكن الانحراف اليوم وصل إلى الدرك الأسفل، ووجد من يزعم أنه لا خالق لهذا الكون، وحاول أصحاب هذا الرأي التمسح بالعلم التجريبي، وأنه يؤيد صحة زعمهم، مما يدعونا إلى ذكر **عدد من الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى**، وسوف نجملها فيما يلي:

١ – دليل الفطرة[1]:

وأول الأدلة على وجود الله جل جلاله ليس شيئًا خارجًا عن كيان

(١) انظر في الكلام تفصيلًا عن دليل الفطرة: ابن تيمية: درء التعارض ٨/ ٤٥٨، وابن القيم: الروح ص ١٦٨، وشفاء العليل ص ٢٨٣، وحافظ أحمد حكمي: معارج القبول ١/ ٢٩ – ٣٤، ٤٣، وابن عثيمين: شرح العقيدة الواسطية ١/ ٥٨، وشرح أصول الإيمان ص ٧٦.

الإنسان، بل هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها وهي الإسلام، ونعني هنا بالدليل الفطري على وجود الله ذلك الشعور الغامر بأن فوق الكائنات المحدودة المتناهية إلهًا عظيماً يهيمن على كل شيء، ويدبر كل أمر، يرجى ويخشى، ويعظم ويقصد، وهذا الشعور ينبع من أعماق الإنسان، ويستمد من كيانه كله، لا من عقله وحده ولا من وجدانه بمفرده، بل هو شعور يجده الإنسان في نفسه بغير تعلم ولا تلقين ولا اكتساب، وهو أشد رسوخًا في النفس من مبدأ العلم الرياضي كقولنا إن الواحد نصف الاثنين، ومبدأ العلم الطبيعي كقولنا: إن الجسم لا يكون في مكانين، وغير ذلك من الحقائق والمسلمات، ولولا أن شدة الظهور قد تلد الخفاء، واقتراب المسافة جدًا قد يعطل الرؤية ما اختلف على ذلك مؤمن ولا ملحد.

ويعد دليل الفطرة من أهم الأدلة التي نبه عليها القرآن الكريم، بل إنه جعله في مقدمة تلك الأدلة وأساسًا لها، وثمة شواهد وأدلة عديدة تؤكد على أن الإيمان بالله فطرة خلق الإنسان عليها، وأنه طبيعة راسخة فيه مثل سائر الطبائع التي لا تفارقه في أصل وجوده، ومن هذه الشواهد ما يلي:

أ – الأدلة من الكتاب والسنة: ومن ذلك آية الميثاق أي قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠] ويضاف إلى ذلك استفهامات التقرير بالربوبية وهي كثيرة في القرآن، وتتضمن تقريرًا

للناس بأمر تعرفه فطرهم وهو ما غرسه الله فيهم من معرفته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧] وأما السنة فقد ورد فيها أحاديث كثيرة منها قول النبي ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[١] وقوله فيما يرويه عن ربه جل وعلا: «**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم**»[٢].

ب – الشاهد النفسي: فما من إنسان إلا ويجد في نفسه عند لحظات الصفاء والتحرر من ضغوط الحياة شوقًا إلى قوة قادرة وعظيمة، يطلب عندها الحماية والأمن، وينشد عندها الطمأنينة والروح، وإذا عاند معاند في ذلك الشعور فلينظر في نفسه عندما يضيق به الحال ويداهمه الخطر العظيم، أو عندما تشتد به العلل ويجد نفسه على أبواب الهلاك، وهو حينذاك لا يملك مهما كان من الجحود إلا أن يفزع إلى الله يطلب عنده النجاة، ويناشده حسن المآل وليس ذلك إلا الفطرة السليمة التي بانت جلية عند الشدائد.

ج – الشاهد الاجتماعي التاريخي: حيث يشهد تاريخ الإنسان بأنه لم يخل مجتمع بشري قط من الإيمان بأن يتخذ معبودًا، وما زالت علوم الأنثروبولوجيا وعلوم الحفريات تؤكد يومًا بعد يوم أن المجتمعات البشرية

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٨٥، ٤٧٧٥، ٦٥٩٩)،ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥)، وأحمد (١٧٠٣٠، ١٧٨٧٤) ومعنى اجتالتهم أي استخفوهم، فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل، انظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ١٩٧.

منذ وجدت كانت تتخذ لها إلهًا تؤمن به وتتقرب له بالعبادات، وقد شاعت هذه الحقيقة بين الدارسين والمفكرين حتى أوشكت أن تصبح مسلمة بين كل الناظرين في تاريخ الإنسان، وإذا كانت بعض الجماعات قد انحرفت في إيمانها بالله فاتخذت له شركاء في الألوهية، فإن ذلك ليس إلا تعبيرًا خاطئا عن أصل الفطرة الموحدة؛ والشاهد على ذلك أن كل المشركين يكون من بين آلهتهم إله هو الأكبر فيهم وتكون سائر الآلهة الأخرى وسائط إليه بشكل أو بآخر، وتلك دلالة واضحة على أن الأصل كان هو التوحيد، والشرك هو الانحراف عنه.

وبعد أن ذكرنا الأدلة السابقة التي تقطع بأن الإيمان بالله فطرة راسخة ومستقرة في النفس بالبشرية يبقى تساؤل مهم وهو أنه إذا كان الإيمان بالله فطرة في النفس، فكيف نفسر ظاهرة الكفر والإلحاد عند بعض البشر؟

والجواب هو أن الإيمان بالله وإن كان فطرة راسخة في النفس، إلا أن غواشي وحجبًا قد تطرأ عليه فتطمسه وتغطيه، فيصير الإنسان على غير وعي به، رغم أنه مضمر وكامن في النفس على الدوام، ولهذا فإن كلمة الكفر مأخوذة لغة من الستر والتغطية، وأطلقت على الكافر لأنه يستر ويغطي مقتضيات فطرته بحجب الشبهات والشهوات.

وحواجب الفطرة وغواشيها كثيرة ومتعددة، ومنها أهواء النفوس وشهواتها، والاستكبار والغرور، وتقليد الآباء والأجداد، كما قال ﷺ في حديث الفطرة المتقدم: «**فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[1]، ومن

(١) رواه البخاري (١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٨٥، ٤٧٧٥، ٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

الموانع أيضًا الغنى والترف، لكن هذه الموانع جميعًا سرعان ما تزول وتتهاوى تحت مطارق الشدائد وحلول البلاء، حينئذ ينقلب الملحد الكفور ضارعًا منيبًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

٢ – آيات الله في الأنفس والآفاق:

ولا شك أن كل شيء في كون الله الواسع الفسيح إذا تأمله الإنسان حق التأمل فسوف يأخذ بيده وقلبه إلى الله، ويدله على وجوده بل على وحدانيته وتفرده بالملك والتدبير، كما يدله على أسمائه الحسنى وصفاته العلا، والإنسان نفسه آية فريدة دالة على الله، فهو وحده عالم خاص اجتمع له من حسن الصورة ومن قوى الإدراك والشعور والبصيرة ما لم يحظ به غيره؛ ولهذا كله نجد أن القرآن يوجه العقول إلى النظر في آفاق الكون بعناصره المختلفة أرضًا وبحرًا وسماء، كي ينتقل منها إلى ما وراءها من علة وجودها، وقد كثرت الآيات الداعية إلى هذا النظر وتنوعت، بحيث أصبحت تمثل مبدأ قرآنيًا ثابتًا في المعرفة عمومًا وفي معرفة الله خصوصًا، وهو الأمر الذي لا نجد له نظيرًا في أي كتاب من كتب الأديان الأخرى.

ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذريات: ٢٠ – ٢١] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِم

مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم: ٨] وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١] كذلك يتكرر في القرآن القسم ببعض خلائق هذا الكون ومظاهره كالليل والنهار، والشمس، والقمر، والسماء والأرض، والنجوم والبحار، والشفع والوتر، وما نبصر وما لا نبصر، وكل ذلك كي تستيقظ العقول الغافلة، وتصحو القلوب المريضة، كما أن الله سبحانه ينكر على الكافرين أنهم أوصدوا عقولهم ومشاعرهم فلا ينتفعون بآيات الله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

والمتأمل لآيات الله في الأنفس والآفاق يمكن أن يخرج منها بعدد كبير من الأدلة والبراهين القطعية التي تهديه إلى خالق الكون ومدبر أمره سبحانه وتعالى، من أبرز هذه الأدلة:

أ- دليل الخلق:

والمراد بالخلق: الإيجاد والإحداث، أي إبراز الأشياء من العدم إلى الوجود كما هو الشأن في خلق الإنسان وسائر الأحياء، وخلق الكون بكل ما فيه من نجوم وكواكب ومجرات وأرض وجبال وبحار وما إلى ذلك.

وتعد ظاهرة الخلق من الظواهر الملموسة للناس جميعًا، ولا يستطيع عاقل التشكيك فيها، كما أن إثبات خلق هذا الكون بكل ما يشتمل عليه، حدوثه بعد أن لم يكن شيئًا، لا يحتاج إلى كثير نظر واستدلال؛ ولما كان دليل الخلق على هذه الدرجة من الوضوح واشتراك سائر البشر في الإقرار

به وعدم إنكاره، فقد تكرر تذكير الخلق به وتعددت الإشارة إليه في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، حتى بلغ عدد مرات ورود مادة (خلق) وما اشتق منها أكثر من مائتين وخمسين مرة[1]، ويكفي أن نشير هنا إلى أن الله سبحانه قد ذكر عباده بهذا المعنى في أول آية نزلت من القرآن في سورة العلق حيث قال سبحانه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١-٢] لكن من المهم أن نشير إلى أن الآية لم تسق لتذكير العرب والبشرية كلها بمعلومة جديدة أو حقيقة كانت خافية عليهم، وهي أن الله هو خالقهم وأنه خلقهم من علق، فقد كانوا يعرفون الأمرين كما قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وقال سبحانه ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٩].

فالمعلومات إذن لم تكن جديدة، وإنما الجديد هو طريقة المعرفة والقصد منها، فمعلومات العرب في الجاهلية بحقيقة الخلق كانت معلومات باردة ميتة؛ لأنها في محيط الذهن وحده، وهنا يراد لها أن تكون معلومات حية نابضة لأنها لا تستكن في الذهن، وإنما تنتقل إلى القلب فتنبض في وجدان حي، وتتحول إلى سلوك إيماني، ومن ثم يتوجه العبد إلى خالقه كي يعبده ويشكره ويوحده.

ب- دليل التسوية:

---

(١) انظر محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٢٤١ – ٢٤٥.

ومعنى تسوية الشيء: إحسان خلقه، وإكمال صنعته، وإمداده بأسباب صلاحه وبقائه وجعله مستويًا معتدلًا متناسب الأجزاء دون تفاوت أو خلل، بحيث يكون مهيأ لأداء وظيفته على أكمل وجه.

وإذا كان دليل الخلق يدل على الله سبحانه، فإن التسوية أبلغ في الدلالة وأخص منها؛ لأن الشيء يمكن أن يخلق دون أن يكون مسوّى على الوجه الأكمل والأتم، وتسوية المخلوقات أمر ظاهر للعيان في كل ما ذرأه الله وبرأه، سواء في السماوات أو في الأرض، وفي الحيوان أو النبات، وأما الإنسان فهو نسيج وحده في هذا الباب، ويكفي أن نمثل بأي عضو من أعضائه كالعين أو القلب لنرى عجيب صنع الله، وإحسان خلقه جل وعلا.

وقد تكررت الإشارة إلى دليل التسوية في القرآن الكريم بعبارات متنوعة وإن كانت متقاربة في الدلالة، ومنها التسوية كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى: ٢]، ومنها الإتقان كما قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] ومنها الإحسان كما في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧] وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] ومنها نفي التفاوت كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ) [الملك: ٣].

ج- دليل الهداية:

وكما أن الله سبحانه قد خلق كل شيء في الكون على الصورة التي تناسب وظيفته وتعينه على أدائها، فهو سبحانه قد هداه أيضًا إلى ما خُلق لأجله، وألهمه غاية وجوده، ويسر له الطريق ليدرك غاية الكمال الذي يناسبه، وهذه الهداية شيء آخر فوق الخلق والتسوية والتقدير، إنها الإلهام أو التعليم الذي يتم بها التقدير ويكمل الخلق والتدبير.

وكثيرا ما يجمع الله سبحانه في كتابه بين الخلق والهداية، كقوله في أول سورة أنزلها على رسوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ –٥] وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ – ٤].

كذلك ذكر الله سبحانه الهداية في كتابه بعد ذكر صفة الخلق والتسوية والتقدير فقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣] وقال سبحانه حكاية عن كلام موسى لفرعون: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ) [طه: ٥٠] فإعطاء الخلق إيجاده في الخارج، والهداية التعليم والدلالة على سبيل بقائه وما يحفظه ويقيمه وهي شاملة لهداية الحيوان كله ناطقه وبهيمه، طيره ودوابه، فصيحه، وأعجمه(١).

ومظاهر الهداية في الكون أكثر من أن تحصى أو تحصر، وهي سمة عامة مبثوثة في كل شيء في الكون من حي أو جامد، وصامت أو ناطق،

(١) انظر ابن القيم: شفاء العليل ص ٧٩ .

وليست مقصورة على الإنسان وحده، بل أمثلتها في عالم النبات وعالم الحيوان وعالم الفلك أشهر من أن تذكر.

٣ ـ دليل النبوات والمعجزات:

ومع أن المعجزات ودلائل النبوة إنما تساق في الغالب لإثبات صحة نبوة الرسل ورسالتهم، إلا أنها تعد أيضًا من الأدلة القاطعة على وجود الرب سبحانه وتعالى، وذلك من عدة وجوه:

الوجه الأول: أن كل رسول أو نبي يأتي من عند الله سبحانه فإن دعوته ورسالته تتضمن عدة أمور وهي أنه رسول مبعوث لدعوة الناس إلى الإقرار لله بالربوبية والإلهية، وأن هناك ربًا وإلهًا هو الذي أرسله، سواء أكان المخاطب يقر بوجود هذا الإله أم لا.

وإذا جاء الرسول بمعجزة تدل على صدقه، فقد ثبت تبعًا لذلك كل ما تضمنته رسالته من حقائق، ومن أولها أن لهذا الكون ربًا وإلها، وليس بلازم أن تتقدم معرفة المكلف بالله حتى يصدق بالرسل، لأن المعجزة نفسها دليل على وجود الله وربوبيته، وأما إن كان المكلف مقرا بوجود الله بمقتضى فطرته التي لم تتغير فإن المعجزة تقرر عنده صدق النبوة، وقبل ذلك وحدانية الله جل وعلا.

ومما يندرج في هذا المسلك الاستدلالي ما جاء في قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، ففرعون كان منكرا للرب جل وعلا ظاهرًا ومقرا به باطنًا وقد حاجه موسى عليه السلام، ومن ضمن ما احتج به عليه آية اليد والعصا وقد وصفهما الله بالبرهانين، ولو لم يكن في المعجزة حجة على

وجود الرب وربوبيته ما احتج بهما موسى عليه السلام على دعوى فرعون في جحد الربوبية ولاعترض فرعون على ذلك بأن تلك الآيات ليست بحجة.

الوجه الثاني: أن المعجزات التي أيد الله بها أنبياءه ورسله وجعلها من دلائل صدقهم وصحة رسالتهم تدل بنفسها على وجود الخالق سبحانه شأنها في ذلك شأن سائر المخلوقات، بل هي أخص منها في الدلالة لأن الحوادث المعتادة ليست كالحوادث العجيبة الخارقة للعادة والتي تفوق قدرة البشر وإمكاناتهم، بل إنها كانت مثار دهشة بعضهم مثلما حدث لموسى عليه السلام حينما تحولت عصاه إلى حية تسعى، ولهذا يسبح الرب ويمجد عند حصول تلك الحوادث العجيبة أكثر من غيرها ويحصل بها في النفوس ذلة من ذكر عظمته ما لا يحصل في المعتاد.

الوجه الثالث: حصول العاقبة للأنبياء وأتباعهم والدائرة على أعدائهم: وكل من تتبع قصص الأنبياء وسيرتهم مع أقوامهم يرى أن من سنن الله المطردة نصر الأنبياء وأتباعهم وإهلاك أعدائهم، وسلامة الأنبياء والمؤمنين ونجاتهم على الدوام من نزول العذاب عليهم.

وقد كثرت الإشارة في القرآن إلى هذه الدلالة ووصفها بأنها آية تستحق الاعتبار والتفكر وكل ذلك مما يلفت الأنظار إلى أهميتها، واعتبارها دليلا من أدلة الربوبية، فضلا عن دلالتها على النبوة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ

ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠] وقال تعالى عن نوح: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥] وقال سبحانه عن إبراهيم: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

٤ ـ إجابة الدعوات وكشف الكربات:

وقد دل على هذا النوع من أدلة وجود الله وربوبيته قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢] ولا شك أن حصول إجابة دعوة المضطر وكشف الكربة عنه بعد رفع يديه إلى السماء واستعانته بخالقه من أعظم الأدلة على وجود رب قادر سميع بصير، لأن اقتران الإجابة بالدعاء وحصول عين المدعو به دليل عقلي حسي صريح على وجود السميع المجيب سبحانه.

ولا يعترض على ذلك بعدم حصول الإجابة في بعض الحالات، لأنه ليس من شرط هذا الدليل اطراد الإجابة في كل حالة استغاثة، إذ من الممكن أن توجد موانع تمنع الإجابة في بعض الحالات، كما أن الله بحكمته قد يقضي أحيانًا بعدم الإجابة العاجلة.

وظاهرة إجابة الدعاء من الظواهر المطردة والمتواترة التي يستحيل عدها أو حصرها فضلا عن إنكارها أو التشكيك فيها، بل إن لكل واحد منا تجربته الخاصة في هذا الصدد، وما من أحد من المؤمنين أو من غير

المؤمنين إلا ومرت عليه فترة فيها شدة وقلق وانكسار واضطرار فتوجه إلى الله بقلب كله رجاء وأمل، فإذا بالكرب يزول وبالشدة تنجلي.

ومن أبرز نماذج إجابة الدعوات ما حكاه الله سبحانه من قصص الأنبياء وسيرتهم مع أقوامهم واستجابة الله لدعائهم، وأما بخصوص نبينا ﷺ فهناك عشرات الحوادث التي استجاب الله فيها دعاءه، وقد ذكرت كتب دلائل النبوة ذلك تفصيلا، ولا تقتصر حالات إجابة الدعوات وكشف الكربات على الأنبياء أو الصالحين وحدهم، بل هناك نماذج وشواهد كثيرة لا تحصى على ذلك، وكتب التاريخ والسير حافلة بذلك بل إن هناك بعض المؤلفات التي أفردت لهذا الأمر.

ثانيًا: الإيمان بربوبية الله تعالى (توحيد الربوبية):

والربوبية لغة نسبة لاسم الله (الرب) ويطلق لفظ الرب على عدة معان من أشهرها(١): أن الرب بمعنى المربي: من التربية والتعهد والإصلاح، والرب بمعنى المالك، والرب بمعنى السيد أو الحاكم، كقول يوسف عليه السلام للرسول الذي جاءه بالسجن: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠] ولا يطلق الرب بالألف واللام إلا على الله عز وجل، ويجوز إطلاق هذا اللفظ مقيدا بالإضافة على غيره فيقال رب الدار.

---

(١) انظر ابن فارس: معجم مقاييس اللغة ٢/ ٣٨١ – ٣٨٣، والفيروز آبادي: القاموس المحيط ١/ ٧٠، والرازي: مختار الصحاح ص ٩٦، وابن منظور: لسان العرب ١/ ٣٩٩، ٤٠٠.

ويقصد بتوحيد الربوبية: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى رب كل شيء، ولا رب غيره، ولا يشاركه أحد في فعله، وأنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير الذي ربى جميع الخلق بالنعم وربى خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة والأخلاق الجميلة والعلوم النافعة(١).

ويمكننا أن نعرف توحيد الربوبية بتعريف دقيق ومختصر فنقول إنه: «إفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير»(٢)، لأن هذا النوع من التوحيد يستوجب إفراد الله عز وجل بجميع معاني الربوبية اللغوية والشرعية، ونفي الشريك عنه في أي منها، فيشمل بذلك توحيد الله تعالى في أفعاله المتعلقة بمشيئته كالخلق والتدبير، كما يشمل صفات الربوبية الذاتية كالملك والقيُّومية والصمدية.

وكل هذه المعاني المذكورة ثابتة لله عز وجل على التمام والكمال، فهو سبحانه رب الناس أي المربي لهم بنعمه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى

---

(١) انظر ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١١/ ٥١، وابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٢٤، وسليمان بن عبد الوهاب: تيسير العزيز الحميد ١/ ٣٣.

(٢) انظر سليمان بن عبد الوهاب: تيسير العزيز الحميد ص ٣٣، وابن عثيمين: شرح العقيدة الواسطية ١/ ٢١، والقول المفيد على كتاب التوحيد ١/ ٢، وفتاوى مهمة لابن باز وابن عثيمين ص ٤.

ﵟٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖﵞ [هود: ٦] وهو سبحانه مالك الناس ومالك المخلوقات كما في قوله: ﵟقُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِﵞ [الناس: ١، ٢] وقوله: ﵟرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِﵞ [النمل: ٢٦] أي مالكه وهو سبحانه الرب، بمعنى السيد والحاكم كما في قوله: ﵟإِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِﵞ [يوسف: ٤٠].

ومن هذه المعاني الكثيرة للفظ الرب اشتق اسم الربوبية، والتي تعني الخلق والرزق والملك والسيادة والتربية والإصلاح والتدبير، ولما كان الله سبحانه هو الرب الحق للعالمين، فقد اختص بالربوبية دون سواه، ووجب توحيده فيها وامتنع عن الشريك فيها، بحيث لا تصلح الربوبية لغيره.

ولا يتحقق توحيد الربوبية من المؤمن على وجهه الصحيح إلا إذا أفرد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير(١):

وقد دلت الفطرة على توحيد الربوبية كما دلت على وجود الله تعالى، وذلك أن اتجاه النفوس حال الاضطرار إنما يكون إلى جهة واحدة وملجأ واحد لا تلوي على غيره ولا ترجو الإغاثة عند سواه، وفي هذا أكبر دلالة على أن النفوس مفطورة على أن ربها ومدبر شؤونها والقادر على أمرها إنما هو رب واحد لا شريك له، كما قال سبحانه: ﵟوَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًاﵞ [الإسراء: ٦٧]

---

(١) انظر ابن عثيمين: شرح العقيدة الواسطية ١/ ٢١ – ٢٤، والقول المفيد على كتاب التوحيد ١/ ٢.

ومن دأب عقلاء الناس في كل زمان ومكان أنهم يتحاشون أن ينسبوا شيئًا من صفات الربوبية لغير الله تعالى الرب الحق الذي لا رب غيره ولا إله سواه، وذلك لما يعلمه الإنسان العاقل ذو الفطرة السليمة من عدم صلاحية المخلوقين للاتصاف بصفات الربوبية وعجزهم عنها، لأن المخلوق لا يخلق والمملوك لا يملك: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧].

ويكفي شاهدا على تلك الحقيقة اعتراف مشركي العرب حين نزول القرآن ـ وهم يُدعون إلى عبادة الله وحده ـ بعدم صلاحية آلهتهم لشيء من صفات الربوبية وحقائقها، مع شدة تعصبهم لتلك الآلهة وتقديسهم لها وتعظيمهم إياها، فإنهم كانوا لا يترددون في الاعتراف بعدم صلاحية الإنسان فضلا عن غيره من التماثيل والأصنام للاتصاف بصفات الربوبية، فلم يكونوا ينتحلونها لأفرادهم ولا لآلهتهم، ولا يدعونها لهم بحال، وذلك لما وقر في نفوسهم بحكم الفطرة البشرية من عجز المخلوقين عن الخلق والرزق والتدبير.

وقد أخبر الله في محكم التنزيل عن اعترافهم وعجزهم هذا في أكثر من آية كقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١] وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩].

ثالثا: الإيمان بألوهية الله (توحيد الألوهية):

ويقصد به الاعتقاد الجازم بأن الله عز وجل هو ــ وحده ــ المستحق للعبادة وإفراده بجميع أنواع العبادات الظاهرة والباطنة، والبراءة من كل معبود من دونه، فلا يعبد إلا الله ولا يتوكل إلا عليه ولا يتحاكم إلا إليه ولا يتلقى الهدى إلا منه ولا يتوجه بالعمل إلا إليه، وأن يكون الله وحده أحب إلى العبد من كل ما سواه، وأخوف عنده من كل ما سواه، وأرجى له من كل ما سواه، فيعبده بمعاني الحب والخوف والرجاء بما يحبه هو ويرضاه، وهو ما شرعه على لسان رسوله لا بما يريده العبد ويهواه، وتلخيص ذلك في كلمتين إياك أريد بما تريد، فالأولى توحيد وإخلاص، والثانية اتباع للسنة وتحكيم للأمر(١).

والألوهية لغة نسبة للإله، والإله هو المألوه، أي المعبود المحبوب الذي تألهه القلوب بحبها وتخضع له، وتذل له، وتخافه وترجوه، وتنيب إليه في شدائدها وتدعوه في مهماتها وتتوكل عليه في مصالحها، وتلجأ إليه، وتطمئن بذكره وتسكن إلى حبه، وليس ذلك إلا الله وحده الذي يستحق أن يعبد لما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع(٢).

---

(١) انظر ابن القيم: مدارج السالكين ٣/ ٣٩٨، وابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٢٤، وحافظ أحمد حكمي: معارج القبول ١/ ٢١٩، ود. محمد خليل هراس: دعوة التوحيد ص ٣٤، وابن عثيمين: القول المفيد على كتاب التوحيد ١/ ٤، وشرح العقيدة الواسطية ١/ ٢٤.

(٢) انظر ابن القيم: طريق الهجرتين ص ٤٧٣.

وهناك عدد من الأسماء التي أطلقت على هذا النوع من التوحيد[١]:
منها تسميته بتوحيد الألوهية أو توحيد العبادة، فباعتبار إضافته إلى الله يسمى توحيد الألوهية، لأنه مبني على إخلاص التأله وهو أشد المحبة لله وحده، وباعتبار إضافته إلى العابد يسمى توحيد العبادة، كما سماه بعض العلماء بالتوحيد الإرادي الطلبي أو التوحيد العملي، وجعله قسيما للنوعين الآخرين من التوحيد ـ أي توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ـ واللذين يطلق عليهما التوحيد العلمي أو الاعتقادي الخبري.
وإنما سمي بتوحيد الإرادة لأنه مبني على إرادة وجه الله بالأعمال، وسمي بتوحيد القصد لأنه مبني على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده وسمي بتوحيد العمل لأنه مبني على إخلاص العمل لله وحده، كما قال تعالى ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] وقال: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

ولن نطيل في بيان أهمية توحيد الألوهية، ومنزلته العظيمة، ويكفي أن نشير إلى أنه أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل وآخرها وهو معنى قول لا إله إلا الله، فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة والخشية والإجلال والتعظيم وجميع أنواع العبادة، وهو أول واجب على المكلف وآخر واجب، وأول ما يدخل به الإسلام وآخر ما يخرج به من

(١) انظر ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١/ ٢٣، ١٠/ ٢٧٣، ٣٧٤، وابن القيم: مدارج السالكين ١/ ٢٥، وسليمان بن عبد الوهاب: تيسير العزيز الحميد ١/ ٣٨.

الدنيا، كما قال ﷺ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»[١] وقال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله** ﷺ»[٢] وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح وأبدأ فيه وأعاد، وضرب لذلك الأمثال بحيث إن كل سورة في القرآن فيها الدلالة على هذا التوحيد.

ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار، وهو أول أمر في القرآن، كما قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ٢١].

كما أن هذا التوحيد هو مفتاح دعوة الرسل، ومقصد رسالتهم، ومحط اهتمامهم الأول، ومحك الخلاف بينهم وبين أممهم، وتتبع قصص الأنبياء في القرآن يدل على هذا الأمر بوضوح، فقد قال تعالى مخبرا عن نوح عليه السلام: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾ [المؤمنون: ٢٣] وقال عن هود عليه السلام: ﴿**وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾ [الأعراف: ٦٥] وتكررت هذه الكلمة وتلك الدعوة على لسان صالح وشعيب وسائر

---

(١) رواه أبو داود (٣١١٦) وأحمد (٢١٥٢٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٩).

(٢) رواه البخاري (٢٥) ومسلم (٢١).

الأنبياء والرسل عليهم السلام، كما أن الله سبحانه ذكر قاعدة عامة في دعوة كل الرسل فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وأما رسالة نبينا محمد ﷺ، فقد كانت الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله هي أول ما بدأ به ﷺ، وبقي ثلاثة عشر عاما في مكة لا هم له بالليل أو النهار إلا غرس التوحيد في القلوب، وإخلاص العبادة لله وحده، امتثالا لأمر الله، كما قال سبحانه عن نبيه: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر: ١١] وقال: ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤] وحينما بعث ﷺ أصحابه إلى البلاد معلمين ودعاة إلى الله كان أول وأهم ما أمرهم به هو الحرص على دعوة الناس إلى التوحيد، ففي قصة بعث معاذ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى اليمن قال له النبي ﷺ: «**إنك تأتي قوما أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله**»[١] وفي مرض موته ﷺ كان من أهم ما يشغله صيانة جانب التوحيد وسد الذرائع المؤدية إلى الشرك، ففي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة جعل يلقي على وجهه طرف خميصة له، فإذا اغتم كشفها عن وجهه وهو يقول: «**لعنة الله على اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. تقول عائشة يحذر مثل الذي صنعوا**»[٢].

(١) رواه البخاري (١٤٥٨، ٧٣٧٢) ومسلم (١٩).
(٢) رواه البخاري (٤٣٦) ومسلم (١٩).

أساليب القرآن في الدعوة إلى توحيد الإلهية:

وقد تنوعت أساليب القرآن في الدعوة إلى توحيد الإلهية، ومن ذلك ما يلي:

١- أمره سبحانه بعبادته وترك عبادة ما سواه وإخباره أنه خلق الخلق لعبادته؛ كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

٢- إخباره سبحانه أنه أرسل جميع الرسل بالدعوة إلى عبادته والنهي عن عبادة ما سواه؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ [النحل: ٣٦].

٣ – الاستدلال على توحيد الإلهية بانفراده بالربوبية والخلق والتدبير؛ كما في قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ ﴾ [النحل: ١٧].

٤- الاستدلال على وجوب عبادته سبحانه بانفراده بصفات الكمال وانتفاء ذلك عن آلهة المشركين؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله عن خليله إبراهيم: إنه قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢].

٥- تعجيزه سبحانه لآلهة المشركين وبيان أنها لا تملك شيئًا لعابديها؛

كما في قوله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢]، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

٦- تسفيه المشركين الذين يعبدون غير الله؛ كقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥].

٧- بيان عاقبة المشركين الذين يعبدون غير الله، وبيان مآلهم مع من عبدوهم، حيث تتبرأ منهم تلك المعبودات في أحرج المواقف؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

٨- ضرب الأمثلة الكثيرة في القرآن التي يتضح بها بطلان الشرك

وضلال أهله، من ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]؛ فشبه سبحانه التوحيد في علوه وارتفاعه وسعته وشرفه بالسماء، وشبه تارك التوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين؛ لأنه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر، وشبه الشياطين التي توسوس له بالطير التي تمزق أعضاءه، وشبه هواه الذي يبعده عن الحق بالريح التي ترمي به في مكان بعيد.

خطر الشرك والتحذير منه:

ولا شك أن في معرفة المسلم للشرك والكفر وأسبابهما ووسائلهما وأنواعهما فوائد عظيمة إذا عرف ذلك معرفة يقصد من ورائها السلامة من هذه الشرور والنجاة من تلك الآفات، والله سبحانه يحب أن تعرف سبيل الحق لتحب وتسلك، ويحب أن تعرف سبل الباطل لتجتنب وتبغض، والمسلم كما أنه مطالب بمعرفة سبيل الخير ليطبقها، فهو كذلك مطالب بمعرفة سبل الشر ليحذرها، ولهذا ثبت في الصحيحين عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني»(١).

الأدلة على ذم الشرك وبيان خطره:

وقد تنوعت دلالة النصوص على ذم الشرك والتحذير منه وبيان خطره

---

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦) ومسلم (١٨٤٧).

وسوء عاقبته على المشركين في الدنيا والآخرة.

١ - فقد أخبر الله سبحانه أنه الذنب الذي لا يغفره إلا بالتوبة منه قبل الموت، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

٢ - ووصفه بأنه أظلم الظلم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

٣ - وأخبر أنه محبط للأعمال، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

٤ - ووصفه بأن فيه تنقصا لرب العالمين ومساواة لغيره به، فقال تعالى: ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٦- ٩٨].

٥ - وأخبر أن من مات عليه يكون مخلدًا في نار جهنم، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢] إلى غير ذلك من أنواع الأدلة، وهي كثيرة جدًا في القرآن الكريم.

سبب وقوع الشرك:

وأصل الشرك وسبب وقوعه في بني آدم هو الغلو في الصالحين المعظمين، وتجاوز الحد في إطرائهم ومدحهم والثناء عليهم، قال الله

تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾ [نوح: ٢٣- ٢٤]. فهذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح لما ماتوا جعلوا لهم أصناما على صورهم وسموها بأسمائهم قاصدين بذلك تعظيمهم وتخليد ذكرهم وتذكر فضلهم إلى أن آل بهم الأمر إلى عبادتهم(١).

أنواع الشرك:

ينقسم الشرك إلى قسمين: أكبر وأصغر، فالشرك الأكبر: هو اتخاذ ند مع الله يعبد كما يعبد الله، وهو ناقل من ملة الإسلام محبط للأعمال كلها، وصاحبه إن مات عليه يكون مخلدًا في نار جهنم لا يقضى عليه فيموت ولا يخفف عنه من عذابها.

وأما الشرك الأصغر فهو كل ما كان ذريعة إلى الشرك الأكبر ووسيلة للوقوع فيه أو ما جاء في النصوص تسميته شركا ولم يصل إلى حد الأكبر، وهو يقع في هيئة العمل وأقوال اللسان. وحكمه تحت المشيئة كحكم مرتكب الكبيرة، ومن أمثلته يسير الرياء، والدليل ما رواه الإمام أحمد وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**»(٢) وقول الإنسان: «ما شاء الله وشئت»،

(١) انظر صحيح البخاري (٤٩٢٠).
(٢) رواه أحمد (٢٣١١٩).

روى أبـو داود في سـننه عـن النبـي ﷺ: «**لا تقولـوا مـا شـاء الله وشـاء فـلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان**»[١].

الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر:

بين الشرك الأكبر والأصغر فروق عديدة، أهمها ما يلي:

١ - أن الشـرك الأكـبر لا يغفـر الله لصـاحبه إلا بالتوبـة، وأمـا الأصـغر فتحت المشيئة.

٢- أن الشرك الأكبر محبط لجميع الأعمـال، وأمـا الأصـغر فـلا يحبط إلا العمل الذي قارنه.

٣- أن الشـرك الأكـبر مخـرج لصـاحبه مـن ملـة الإسـلام، وأمـا الشـرك الأصغر فلا يخرجه منها.

٤- أن الشرك الأكبر صاحبه خالـد في النـار ومحرمـة عليـه الجنـة، وأمـا الأصغر فكغيره من الذنوب.

رابعًا: الإيمان بأسماء الله وصفاته (توحيد الأسماء والصفات):

ويقصد بتوحيد الأسماء والصفات الإقرار والاعـتراف الجـازم بكـل مـا ورد في كتاب الله تعالى، وما ورد في سنة رسول الله ﷺ الصحيحة من أسـماء الله الحسنى وصفاته العلا، والإيمان بذلك كله على الوجـه الـذي يليـق بـالله سبحانه وتعالى، دون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

وباب الأسماء والصفات من أعظم الأبواب التي يتعرف بها العباد على

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٨٠).

ربهم ويزدادون له محبة ورجاء وخشية وخوفا وإنابة وتوكلا، ومن المسلم به أن المرء لا يستطيع أن يعبد العبادة الحقة، ولا يخلص القصد والنية، إذا كان لا يعرف من يعبده ومن يتوجه إليه.

ولما كان إدراك الذات الإلهية أو الإحاطة بها متعذرا، فإن الطريق الوحيد والصحيح لتحقيق مزيد من المعرفة بالله سبحانه هو الوقوف على أسمائه وصفاته والإيمان بها وفهم معانيها، والتعبد لله سبحانه بها.

وقد تكرر ذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العلا في كتاب الله فيما لا يحصى من المواضع، ويكفي في التدليل على ذلك أن نشير إلى أنه ما من سورة من سور القرآن إلا وجاء في صدرها ذكر لبعض أسماء الله الحسنى، فجميع سور القرآن باستثناء سورة التوبة صدرت بالبسملة (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) وهي تشتمل على ثلاثة أسماء من أسمائه سبحانه، وأما سورة التوبة فقد ذكر لفظ الجلالة في أول آية منها.

وفي آية الكرسي وحدها خمسة أسماء من أسماء الله الحسنى مذكورة صراحة إضافة إلى الصفات المذكورة في الآية صراحة أو ضمنا، وفي سورة الحشر اجتمع أكبر عدد من الأسماء الحسنى في سياق واحد، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ – ٢٤].

وإجمالا فلا يخلو موضوع من موضوعات القرآن الكريم من ذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، لا فرق في ذلك بين العقائد أو الشرائع أو الأحكام، وما من موضوع تناوله القرآن إلا ويفتتحه أو يختمه أو يتخلله ذكر اسم من أسماء الله أو صفة من صفاته.

وقد فهم الجيل الفريد من صحابة رسول الله ﷺ هذا المعنى وآمنوا بأسماء الله وصفاته كلها دون أن يثيروا الخلاف والشقاق حولها أو يؤولوها ويحرفوها عن معانيها أو يفهموا منها ما لا يليق بالله سبحانه؟ ورغم أن الصحابة قد اختلفوا في بعض المسائل الفقهية، إلا أنهم بحمد الله لم يختلفوا مطلقا في باب الأسماء والصفات.

لكن للأسف الشديد فقد نبتت خلوف بعد جيل الصحابة والتابعين، تأثروا بالأفكار الوافدة والفلسفات البشرية المتهافتة والمتضاربة، وحولوا قضية الأسماء والصفات من باب عظيم لمعرفة الله ومحبته والتعلق به وتقديره حق قدره، إلى ساحة اختلاف وشقاق وبدع وضلالات، وأحدثوا مقالات وآراء غريبة، وابتدعوا قواعد وأصولا ما أنزل الله بها من سلطان.

وقد ترتب على ذلك أن انقسمت الأمة تجاه هذه القضية العظيمة ـ أي قضية الأسماء والصفات ـ إلى عدة اتجاهات نجملها فيما يلي:

١ – اتجاه التشبيه، والتجسيم: ويقصد به المبالغة في إثبات الصفات إلى درجة تسويتها بصفات المخلوقين، وهو نزعة يهودية الأصل.

٢ – اتجاه التعطيل: ويراد به نفى الصفات وتعطيل النصوص الواردة بشأنها عن طريق تفريغها وإخلائها من دلالتها الحقيقية على ما تضمنته من معان.

٣- اتجاه التأويل: وأصحاب هذا الاتجاه يثبتون الصفات التي لا يرونها مخالفة للعقل أو موهمة لمشابهة الله بالمخلوقين، وما عدا ذلك يصرفونه عن ظاهره بأوجه التأويل المتعددة وقد اختلفوا في الصفات التي تثبت أو تؤول كل تبعًا لمذهبه، كما اختلفوا في التعيين التفصيلي لكل تأويل من تلك التأويلات، ولم يتفقوا على ضابط معين في هذا الباب.

٤- اتجاه التفويض للمعاني: وهو موقف مخالف لمنهج السلف ويمكن وصفه بأنه محاولة غير سديدة أرادت التوسط بين اتجاهى الإثبات والتأويل، فهو يشترك مع الإثبات في رفضه للتأويل، وتعيين معنى باجتهاد بشرى تحمل عليه النصوص، لكنه يتفق مع التأويل من جهة أخرى في القول بأن الظاهر من النصوص غير مراد لإيهامه مشابهة المخلوقين، ثم يسكت المفوض فلا يحدد معنى بينما المؤول يبحث عن هذا المعنى ويجتهد في تعيينه.

وبإزاء هذه الاتجاهات المخالفة كليا أو جزئيا للكتاب والسنة يبقى الموقف الصحيح الموافق للكتاب والسنة والذي يجب على كل مسلم اعتقاده والاحتذاء على منواله، وهو موقف سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم من الأئمة المشهود لهم بالعلم والفضل ويمكن تسميته باتجاه الإثبات مع التنزيه، وهو الموقف الوسط الخيار، المنبثق من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وخلاصة هذا الموقف هو إثبات كل اسم أو صفة وردت في الكتاب أو

السنة، على ظاهرها اللائق بجلال الله وكماله، مع التنزيه التام والمباينة الكاملة عن مشابهة صفات المخلوقين، وقطع الطمع عن إدراك كنه الصفة أو كيفيتها، فهو إثبات دون تشبيه أو تجسيم، ووصف لله دون تحريف أو تعطيل أو توقف وكما يقول ابن تيمية رحمه الله فإن: «القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، وبما وصفه به السابقون الأولون، لا يتجاوز القرآن والحديث، قال الإمام أحمد –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث».

ومجمل اعتقاد السلف في هذه المسألة هو: «أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، ونعلم أن ما وصف الله به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه، لاسيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول، وأفصح الخلق في بيان العلم، وأفصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد، وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقة، وله أفعال حقيقة، فكذلك له صفات حقيقة، وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وكل ما أوجب نقصا أو حدوثا فإن الله منزه عنه حقيقة»[١].

---

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٥/ ٢٦، ٢٧.

ثمرات الإيمان بأسماء الله وصفاته:

ولا شك أن للإيمان بأسماء الله وصفاته العديد من الآثار والثمرات الجليلة التي تنفع العبد في دينه ودنياه، وتزيده قربا من ربه ومحبة له ومعرفة به وإنابة وإخباتا له، وثقة وتوكلا عليه.

وسوف نذكر فيما يلي بعض الثمرات والفوائد العظيمة التي يجنيها العبد من إيمانه بأسماء الله وصفاته(١):

١ – فمن ثمرات الإيمان بصفات الله عَزَّ وجَلَّ: أن العبد يسعى إلى الاتصاف والتحلِّي بما يصح أن يتحلى به من هذه الصفات؛ لأنه من المعلوم عند أرباب العقول أن المحب يحب أن يتصف بصفات محبوبه؛ كما أن المحبوب يحب أن يتحلَّى مُحِبُّهُ بصفاته؛ فهذا يدعو العبد المحب لأن يتصف بصفات محبوبه ومعبوده كلٌّ على ما يليق به، فالله كريم يحب الكرماء، رحيم يحب الرحماء، رفيق يحب الرفق، فإذا علم العبد ذلك؛ سعى إلى التحلي بصفات الكرم والرحمة والرفق، وهكذا في سائر الصفات التي يحب الله تعالى أن يتحلَّى بها العبد على ما يليق بذات العبد.

٢ – ومن ثمرات الإيمان بصفات الله عَزَّ وجَلَّ أن يظل العبد دائم السؤال لربه، فإن أذنب؛ سأله بصفات (الرحمة، والتَّوب، والعفو، والمغفرة) أن يرحمه ويتوب عليه ويعفو عنه ويغفر له، وإن خشي على

---

(١) انظر ابن القيم: مفتاح دار السعادة ٢/ ٩٠ – ٩٠، وبدائع الفوائد ١/ ١٧٠، ١٧١، وعلوي بن عبد القادر السقاف: صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة ص ٣٠ – ٣٦.

نفسه من عدو متجهم جبار؛ سأل الله بصفات (القوة، والغلبة، والسلطان، والقهر، والجبروت)؛ فإن آمن أن الله (كفيل، حفيظ، حسيب، وكيل)؛ قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، وتوكل على (الواحد، الأحد، الصمد)، وعلم أن الله ذو (العزة، والشدة، والمحال، والقوة، والمنعة) مانعه من أعدائه، ولن يصلوا إليه بإذنه تعالى.

٣ – ومنها: أن العبد إذا آمن بصفة (الحب والمحبة) لله تعالى، وأنه سبحانه (رحيم ودود) استأنس لهذا الرب، وتقرَّب إليه بما يزيد حبه ووده له، وسعى إلى أن يكون ممن يقول الله فيهم: (يا جبريل إني أُحبُّ فلانًا فأحبَّه، فيُحبُّه جبريل، ثم ينادي في السماء: إن الله يحبُّ فلانًا فأحبوه، فيُحبُّه أهلُ السماء ثم يوضع له القبول في الأرض)(١) ومن آثار الإيمان بهذه الصفة العظيمة أن من أراد أن يكون محبوبًا عند الله اتبع نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وحبُّ الله للعبد مرتبطٌ بحبِ العبد لله، وإذا غُرِست شجرةُ المحبة في القلب، وسُقيت بماء الإخلاص، ومتابعة الحبيب ﷺ، أثمرت أنواعَ الثمار، وآتت أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذن ربها.

٤ – ومنها: أنه إذا آمن العبد بصفات (العلم، والإحاطة، والمعية)؛ أورثه ذلك الخوف من الله عَزَّ وجَلَّ المطَّلع عليه الرقيب الشهيد، فإذا آمن بصفة (السمع)؛ علم أن الله يسمعه؛ فلا يقول إلا خيرًا، فإذا آمن بصفات

(١) رواه البخاري (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٦).

(البصر، والرؤية، والنظر، والعين)؛ علم أن الله يراه؛ فلا يفعل إلا خيرًا؛ فما بالك بعبد يعلم أن الله يسمعه، ويراه، ويعلم ما هو قائله وعامله، أليس حريا بهذا العبد ألا يجده الله حيث نهاه، ولا يفتقده حيث أمره؟! فإذا علم هذا العبد وآمن أن الله (يحبُّ، ويرضى)؛ عمل ما يحبُّه معبوده ومحبوبه وما يرضيه، فإذا آمن أن من صفاته (الغضب، والكره، والسخط، والمقت، والأسف، واللعن)؛ عمل بما لا يُغْضب مولاه ولا يكرهه حتى لا يسخط عليه ويمقته ثم يلعنه ويطرده من رحمته.

٥- ومنها: أن العبد إذا تدبر صفات الله من (العظمة، والجلال، والقوة، والجبروت، والهيمنة)؛ استصغر نفسه، وعلم حقارتها، وإذا علم أن الله مختص بصفة (الكبرياء)؛ لم يتكبَّر على أحد، ولم ينازع الله فيما خصَّ نفسه من الصفات، وإذا علم أن الله متصف بصفة (الغنى، والملك، والعطاء) استشعر افتقاره إلى مولاه الغني، مالك الملك، الذي يعطي من يشاء ويمنع من يشاء.

٦- ومنها: أنه إذا علم أن الله يتصف بصفة (القوة، والعزة، والغلبة)، وآمن بها؛ علم أنه إنما يكتسب قوته من قوة الله، وعزته من عزة الله؛ فلا يذل ولا يخنع لكافر، وعلم أنه إن كان مع الله؛ كان الله معه، ولا غالب لأمر الله.

٧- ومن ثمرات الإيمان بصفات الله: ألا ينازع العبد اللهَ في صفة (الحكم، والألوهية، والتشريع، والتحليل، والتحريم)؛ فلا يحكم إلا بما أنزل الله، ولا يتحاكم إلا إلى ما أنزل الله. فلا يحرِّم ما أحلَّ الله، ولا يحل ما حرَّم الله.

٨- ومنها أن العبد الذي يعلم أن من أسماء الله (السلام، والمؤمن) فإنه يشعر بالطمأنينة والهدوء النفسي؛ فالله هو السلام، ويحب السلام، فينشر السلام بين المؤمنين، وهو المؤمن الذي أَمِنَ الخلقُ من ظلمه، وإذا اعتقد العبد أن الله متصف بصفة (الصدق)، وأنه وعده إن هو عمل صالحًا جنات تجري من تحتها الأنهار؛ علم أن الله صادق في وعده، لن يخلفه، فيدفعه هذا لمزيدٍ من الطاعة، طاعة عبد عاملٍ يثقُ في سيِّده وأجيرٍ في مستأجره أنَّه موفيه حقَّه وزيادة.

❊ ❊ ❊

الأصل الثاني: الإيمان بالملائكة

والملائكة عالم غيبي كريم خلقهم الله عز وجل من نور، وحباهم بالعديد من القوى والصفات الحميدة، وجعلهم مجبولين على طاعته والتذلل له وعدم عصيان أوامره، ولكل منهم وظائف خصه الله بها.

والإيمان بالملائكة هو الأصل الثاني من أصول الإيمان، ولا يصح إيمان المكلف بدونه ومن الواجب على كل مسلم أن يصدق تصديقا جازما بوجود الملائكة، وأنهم مخلوقون من نور، وأنهم كما وصفهم الله عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله بالقيام بها.

وقد تضافرت آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة الصحيحة في الدلالة على وجوب الإيمان بالملائكة، وإدراج ذلك ضمن أصول الاعتقاد الكبرى كما في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وفي قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقال رسول الله ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر**»(١).

وكما يرد الإيمان بالملائكة مقترنا بالإيمان بالله وسائر أصول الاعتقاد فكذلك الحال في التحذير من الكفر بهم أو معاداتهم، فمنكر وجود الملائكة

(١) رواه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧) ومسلم (٩، ١٠).

كافر وضال، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: من الآية١٣٦] وعدو الملائكة أو عدو أي واحد منهم هو من الكافرين أعداء الله ورسله، كما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

والقاعدة العامة التي سوف نستصحبها في هذا الباب هي أنه طالما ثبت النص وفهم على وجهه الصحيح، فالواجب على المكلف التصديق الجازم بكل ما تضمنه، حتى لو كان خارج مجال إدراك الحواس أو تصور العقل، مع التيقن التام أنه لا يوجد في ذلك مطلقا ما يتناقض مع العقل أو يتعارض معه، والنصوص الشرعية وإن تضمنت بعض محارات العقول – أي ما يفوق إدراكها – فإنها لا تأتي مطلقا بشيء من محالات العقول(١) أي ما يتناقض مع العقول ويستحيل تصديقه.

صفات الملائكة الخَلْقِية والخُلُقِية(٢):

أولًا: صفاتهم الخَلْقِية:

١ – مادة الخلق التي خلق منها الملائكة هي النور، كما أن مادة خلق الجن النار، ومادة خلق الإنسان الطين، ويدل على ذلك قول الرسول ﷺ:

---

(١) انظر ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٢/ ٣١٢، والجواب الصحيح ٢/ ٤١٤.

(٢) انظر أبو بكر الجزائري: عقيدة المؤمن ص ١٩٦، ٢٠٧، وحافظ أحمد حكمي: معارج القبول ١/ ٤٨ وابن عثيمين: شرح العقيدة الواسطية ١/ ٦٤.

«خُلِقَتْ الْمَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»(١).

٢- لم يرد في النصوص الشرعية ما يدل على تحديد الوقت الذي خلق فيه الملائكة، وكل ما نعلمه من نصوص القرآن والسنة أن خلقهم سابق على خلق أبينا آدم عليه السلام، حيث أعلم الله الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] كما أمرهم بالسجود لآدم حين خلقه ونفخ الروح فيه فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] وفي الصحيحين من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أن النبي ﷺ قال: « خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنْ الْمَلائِكَةِ جُلُوسٌ فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ فَقَالُوا: السَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللهِ فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ فَلَمْ يَزَلْ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الآنَ»(٢).

٣- وخلق الملائكة خلق عظيم جدًا من حيث القوة، وجمال الشكل، وقد وصف الله ملائكة النار بأنهم غلاظ شداد فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦) وأحمد (٢٤٨٢٦).

(٢) رواه البخاري (٣٣٢٦، ٦٢٢٧) ومسلم (٢٨٤١).

﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ووصف جبريل عليه السلام فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠] ووصفه بأنه ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] وحينما جاء ملك الجبال إلى النبي ﷺ عندما آذاه أهل الطائف استأذنه أن يطبق عليهم الأخشبين، ولكنه ﷺ أبى ذلك[١]، وقد أخبرنا الله تعالى أن للملائكة أجنحة وأنهم متفاوتون في عدد تلك الأجنحة فقال في أول سورة فاطر: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [فاطر: ١] ومن الملائكة من لهم ستمائة جناح، وقد روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ رأى جبريل وله ستمائة جناح[٢].

أما عن جمال منظرهم وحسن هيئتهم فيكاد هذا الأمر أن يكون من الحقائق المقررة في أذهان البشر، ومما يشهد لذلك ما حكاه الله عن النسوة اللاتي دعتهن امرأة العزيز لرؤية يوسف عليه السلام، حيث قلن عندما بهرن بحسنه وجماله الفائق: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ [يوسف: ٣١] كذلك فسر بعض أهل العلم قوله تعالى في حق جبريل عليه السلام: ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ﴾ [النجم: ٦] أي ذو منظر حسن.

٤ – وقد وهب الله الملائكة القدرة على التشكل في صور مغايرة لهيئتهم الأصلية ومنها الصورة البشرية، وقد ورد في القرآن والسنة نماذج

---

(١) وهذا الحديث رواه البخارى (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥).

(٢) رواه البخارى (٣٢٣٢، ٤٨٥٦) ومسلم (١٧٤).

كثيرة لذلك منها مجيئهم لإبراهيم عليه السلام على هيئة أضياف فبادر إلى إكرامهم، كما جاؤوا إلى لوط عليه السلام في صورة شباب حسان الوجوه فضاق بهم ذرعا وخشي عليهم من قومه الفاسقين، وتمثل جبريل عليه السلام لمريم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في صورة بشر كما ورد ذلك في سورة مريم، وكثيرا ما كان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة بشرية وكان أشبه ما يكون حينئذ بالصحابي دحية الكلبي(١).

٥ - والأصل أن مساكن الملائكة ومنازلهم في السماء، وإن كانوا يتنزلون منها تنفيذا لما يأمرهم الله تعالى به، ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥] وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، وقال النبي ﷺ: «**إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ**»(٢).

٦- والملائكة يختلفون عن الإنس والجن في أنهم لا يأكلون ولا يشربون، ويدل على ذلك ما ورد في قصة مجيئهم إلى إبراهيم عليه السلام

(١) انظر ما رواه البخاري (٣٦٣٤، ٤٩٨٠) ومسلم (٢٤٥١).

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٤٩).

كي يبشروه بغلام عليم، حيث قرب إليهم الخليل عليه السلام طعاما لكن أيديهم لم تقترب منه مما أثار عنده شيئًا من التوجس نحوهم حتى كشفوا له عن حقيقتهم والمقصد من إرسالهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠].

كذلك لا توصف الملائكة بالذكورة أو الأنوثة، كما هو الحال عند الجن والإنس، وقد أكذب الله مشركي العرب الذين جعلوا الملائكة إناثا وزعموا أنهم بنات الله، مع أن الواحد منهم كان يستنكف إذا رزق بأنثى ويظل وجهه مسودًا وهو كظيم كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] وقال سبحانه: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٩،١٥٠].

وإذا كانت الملائكة تختلف عن الإنس والجن فيما تقدم من صفات كالأكل والشرب والتعب والملل والذكورة والأنوثة، فهم يتفقون معهم ومع سائر المخلوقات في أنهم يموتون، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] وقال سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

ثانيا: صفات الملائكة الخُلُقِية:

وقد ورد في القرآن والسنة طرف من أخلاقهم ومن ذلك:

١ – وصف الله الملائكة بأنهم عباد مكرمون وبأنهم كرام بررة، وأنهم سفرة بين الله ورسله وأنبيائه، فقال سبحانه عنهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] ووصف القرآن بأنه: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٥، ١٦].

٢- والملائكة طائعون لله طاعة تامة: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]ولا يمكن لأحد منهم أن يسبق الله بقول أو فعل، أو يتقدم بين يديه مقترحا أو معترضا على أمر من أوامره، كما قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]، وفي صحيح البخاري[١] أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ [مريم: ٦٤]، ولا يتكلم الواحد منهم إلا بإذن الله وأمره: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، كما لا يشفعون إلا لمن ارتضى سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وهم خائفون من الله أشد الخوف كما قال سبحانه: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

(١) رواه البخاري (٣٢١٨، ٤٧٣١).

٣- والملائكة في عبادة دائمة وتسبيح لا ينقطع دون أن يصيبهم سأم أو ملل كما قال سبحانه: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠] وقال سبحانه: ﴿ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ﴾ [فصلت: ٣٨].

٤- والملائكة منظمون في كل شؤونهم من عبادة وغيرها، وهم لا يتقدمون ولا يتأخرون عن الموضع أو المقام الذي أمرهم الله به كما قال سبحانه حاكيا عنهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ [الصافات: ١٦٤، ١٦٥] وفي مجيء الملائكة يوم القيامة يأتون صفوفا منتظمين كما قال سبحانه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢] وقال سبحانه: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ [النبأ: ٣٨].

٥- ومن صفات الملائكة التي وردت بها النصوص تأذيهم من كل ما هو كريه من الأصوات أو الروائح غير الطيبة التي يتأذى منها بنو آدم، ويدل على ذلك حديث جَابِر بن عبد الله -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قَالَ نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَكْلِ الْبَصَلِ وَالْكُرَّاثِ فَغَلَبَتْنَا الْحَاجَةُ فَأَكَلْنَا مِنْهَا فَقَالَ: «**مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْمُنْتِنَةِ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ الْإِنْسُ**»(١) كذلك من صفات الملائكة أنها تستحيي استحياء يليق بحالها،

(١) رواه مسلم (٥٦٤) والنسائي (٧٠٧).

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال عن عثمان بن عفان: «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة**»(١).

أسماء الملائكة الذين أخبرنا الله بهم: يجب على المسلم أن يؤمن بوجود الملائكة إجمالا سواء أعرف أسماءهم أم لا كما يجب عليه الإيمان التفصيلي بمن ذكر الله أسماءهم تحديدا، ومع أن الظاهر أن للملائكة أسماء يختص بها كل واحد منهم، غير أنه لا يجوز لنا أن نعين أو نحدد اسما لأحد الملائكة إلا إذا وردت النصوص الشرعية بذلك.

ومن الملائكة الذين وردت أسماؤهم في القرآن أو السنة الصحيحة: جبريل وميكال (أو ميكائيل) عليهما السلام، حيث قال سبحانه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨] وكذلك إسرافيل عليه السلام حيث كان من دعاء النبي ﷺ في قيامه بالليل: «**اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»(٢).

ومنهم أيضا: مالك خازن النار، والذي ورد ذكره في قول الله تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]ومنكر

---

(١) رواه مسلم (٢٤١٠) وأحمد (٥١٦).

(٢) رواه مسلم (٧٧٠).

ونكير وهما الملكان الموكلان بسؤال القبر، وهاروت وماروت الملكان اللذان ورد ذكرهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢] وهؤلاء ـ تقريبا ـ هم من صرحت النصوص الشرعية بأسمائهم، أما تسمية ملك الموت بعزرائيل أو عبد الرحمن فلا يثبت شيء من ذلك.

وظائف الملائكة[(١)]:

استفاضت النصوص الشرعية في بيان الوظائف التي يقوم بها الملائكة عليهم السلام بأمر الله سبحانه، وهي من التنوع والكثرة، والتعلق بعالم الروح وعالم المادة، والكون والإنسان، حتى ليمكن القول بأن: «ما يشاهد من تدبير العالم العلوي والسفلي ومالا يشاهد إنما هو على أيدي الملائكة، فالرب تعالى يدبر بهم أمر العالم، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم، فوكل بالشمس والقمر والنجوم والأفلاك طائفة منهم، ووكل بالقطر والسحاب طائفة، ووكل بالنبات طائفة، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة، ووكل بالموت طائفة، وبحفظ بني آدم طائفة، وبإحصاء أعمالهم وكتابتها طائفة، وبالوحي طائفة، وبالجبال طائفة وبكل شأن من شؤون العالم

---

(١) انظر ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٤/ ٢٥٢، ابن القيم: إغاثة اللهفان ٢/ ١٢٥ – ١٣١، والتبيان في أقسام القرآن ص ٨٣ ١٧٨، ١٧٩، وحافظ أحمد حكمي: معارج القبول ١/ ٤٩ – ٥٦ وابن عثيمين: شرح العقيدة الواسطية ١/ ٥٩– ٦٤.

طائفة»(١).

ولا يفهم من هذا الكلام نفي ما أثبته العلم وأقرت به العقول والحواس من وجود قوانين وأسباب يرتبط بعضها ببعض: «لأن هذه القوانين والأسباب إنما هي مخلوقات لله، والملائكة موكلة بها أيضًا وموكلة برعايتها كما ترعى المخلوقات الأخرى، ولولا إرادة الله في حفظ هذه الأسباب والقوانين، ولولا قدره في تسخير الملائكة للحفاظ عليها، فإن العقل لا يستلزم أبدا بقاءها على هذه الآماد الطويلة في انتظامها وتناسقها».

وقد تكرر الإقسام بعمل الملائكة وما يقومون به من وظائف في صدر أكثر من سورة من السور القرآنية، كما سميت تلك السور بواحد من هذه الأعمال ومنها سورة الصافات وسورة المرسلات وسورة النازعات، وسوف نكتفي بالإشارة إلى نماذج من تلك الأعمال، مع ملاحظة أن الله سبحانه وكل كل طائفة من الملائكة بعمل معين.

١- وأعظم وظائف الملائكة وأجلها شأنا السفارة بين الله ورسله، والنزول بالوحي ورسالة الله إلى أهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢] والملك الموكل بهذه المهمة هو أفضل الملائكة وأمين الوحي جبريل عليه السلام والذي وصف بالكثير من الأوصاف العظيمة كما في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وفي

(١) ابن القيم: التبيان في أقسام القرآن ص ١٧٨، ١٧٩ .

قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ [التكوير: ١٩ -٢١] وقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]. وإضافة إلى نزول جبريل عليه السلام بالقرآن فقد كان ينزل على النبي ﷺ في مواقف عدة منها تعليمه الصلاة، ومنها مدارسته القرآن، ومنها رقيته لما اشتكى، ومنها قتاله المشركين إلى جانب المصطفى ﷺ.

٢- ومن أصناف الملائكة حملة العرش، وهم ثمانية كما قال تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧] وحملة العرش دائمو التسبيح بحمد ربهم والاستغفار للمؤمنين والدعاء لهم بدخول الجنة والنجاة من النار كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

٣- خزنة جهنم وهم الملائكة الذين وكلهم الله تعالى بحراسة جهنم والقيام عليها وتعذيب الكافرين حينما يدخلونها، وقد أخبر الله تعالى أن هؤلاء الخزنة يوبخون الكافرين على استمرارهم في الكفر بعد مجيء الرسل، ويأمرونهم بدخول جهنم التي يستحقونها لأنهم استكبروا عن الإيمان بربهم، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١] وفي آية أخرى يخبر سبحانه أن أهل

النار يطلبون من الخزنة أن يسألوا الله تخفيف العذاب عنهم فلا يظفرون من وراء ذلك بطائل، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩] وقد ورد في القرآن اسم رئيس هؤلاء الخزنة وهو مالك عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

كذلك أخبر سبحانه أن خزنة النار غلاظ شداد ممتثلون لأمر ربهم ولا يعصونه سبحانه في أي شيء مما يأمرهم به: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وأما عدد خزنة النار فهم تسعة عشر، وقد جعل الله هذا العدد فتنة للاختبار والامتحان، إذ ربما ظن الكافرون أو المنافقون ضآلة هذا العدد وقلته، مع أن الملك الواحد من القوة بحيث يكفي لإهلاك العالم بأسره، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر: ٣١].

٤- خزنة الجنة وهم القائمون على أمرها واستقبال الموحدين فيها وتحيتهم بأحسن تحية كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وقال سبحانه عن أهل الجنة أيضا: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣].

٥- ملك الموت ومن معه من الملائكة الموكلين بقبض الأرواح، وقد

ذكر في القرآن ملك الموت وحده تارة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١] وذكرت الملائكة بصيغة الجمع تارة أخرى كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] ويجمع بين الأمرين بأن ملك الموت له أعوان يقبضون معه أرواح العباد، أو يتلقفونها منه إذا استل الروح من الجسد.

٦ – الملك الموكل بالنفخ في الصور وهو إسرافيل عليه السلام، وقد جاء في القرآن أن هناك نفختين في الصور، يصعق الخلق على إثر النفخة الأولى ثم يبعثون على إثر الثانية: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] وسمى النبي ﷺ إسرافيل بصاحب القرن فقال: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ: قُولُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا**»[١].

٧- الملائكة الموكلون بالظواهر الكونية المختلفة مثل تدبير أمر المطر والرياح والسحاب والنبات والجبال وسائر أمور الكون، وقد تكرر ذكرهم في القرآن على سبيل الإجمال في مطلع سورة الصافات والمرسلات والنازعات.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٣١) وأحمد (٣٠٠١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٩٢).

ثمرات الإيمان بالملائكة:

ولا شك أن للإيمان بالملائكة ثمرات عظيمة، وآثارا مهمة في حياة المسلم وسلوكه والله سبحانه لم يطلعنا على شيء من أمور الغيب إلا وفيه منة عظيمة على الخلق، ومن ثمرات الإيمان بالملائكة ما يلي:

١ – عصمة المؤمن من الوقوع في الخرافات والأوهام، فقد جنبنا الله سبحانه بما أطلعنا من أمر هذه الأرواح المؤمنة وأفعالها أن نقع في الأباطيل والخرافات التي وقع فيها من لا يؤمنون بالغيب ولا يتلقون معارفهم عن الوحي الإلهي.

٢– العلم بعظمة الله تعالى وقوته وسلطانه، فإن عظمة المخلوق من عظمة الخالق، والملائكة بما هم عليه من قوة الخلق وجميل الأخلاق دليل واضح على صفات خالقهم سبحانه وعظمته وقوته وقدرته على كل شيء.

٣– العلم بتكريم الله لبني آدم وشكره سبحانه على عنايته بهم، حيث وكل من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم ورعايتهم في كافة مراحل حياتهم وإرشادهم إلى الخير وتثبيتهم والدعاء والاستغفار لهم، وغير ذلك الكثير من الوظائف التي أشرنا إليها سابقا.

٤ – الاستقامة على منهج الله عز وجل، فإن من يستشعر بقلبه وجود الملائكة ومراقبتهم لأعماله وأقواله وشهادتهم على كل ما يصدر عنه، فلا بد أن يمتلئ قلبه بالحياء من الله وجنوده، ويمتنع عن اقتراف المعاصي في السر والعلانية إذ كيف يقدم على ذلك وهو يعلم أن كل شيء محسوب ومكتوب ومشهود عليه كما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً

إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

٥- الإحساس بالمسؤولية والجزاء، فالمؤمن بالملائكة حينما يوقن بوجود هؤلاء العباد المكرمين وجند الله الذين لا يعلمهم إلا هو، سوف يزداد إحساسه بأنه ليس وحده في الكون، بل هناك مخلوقات أخرى تشاهده وتراقبه، وقد كلفوا بتسجيل أعماله، وكل ذلك مما يعمق من الإحساس بالمسؤولية نحو كل ما يصدر عن العبد من أعمال، كما أن الإيمان بالملائكة يزيد من استشعار القلب البشري بعظمة القدرة الربانية المعجزة التي تخلق من النور ملائكة ذوي أجنحة مثنى وثلاث ورباع.

٦ – الصبر والثبات، وعدم تسرب اليأس أو القنوط، وهذه المعاني كلها من لوازم الإيمان بالملائكة، ومعرفة ما أخبر الله من أفعالها وأحوالها.

❊ ❊ ❊

الأصل الثالث: الإيمان بالكتب

والإيمان بالكتب هو الركن الثالث من أركان الإيمان وأصول العقيدة التي لا يصح إيمان المكلف إلا إذا حققها على وجهها الصحيح، والمقصود بهذا الركن هو التصديق الجازم بأن لله كتبا أنزلها على أنبيائه ورسله، وهي من كلامه حقيقة، وأنها نور وهدى، وكل ما تضمنته حق وصدق ولا يعلم عددها إلا الله، والواجب الإيمان بها إجمالا إلا ما ورد منها مفصلا فيجب الإيمان بها على التفصيل.

وقد تضافرت أدلة القرآن، والسنة الصحيحة على وجوب الإيمان بكتب الله ورسالاته، وأن ذلك من أصول الإيمان الأساسية. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] وقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥] كما توعد سبحانه من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر بالآخر بأشد العذاب والخزي في الدنيا والآخرة فقال: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ

وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥].

ويتكرر في كتاب الله الإشارة إلى أن تكذيب الرسالات وعدم الانصياع لما جاء فيها من أعظم أسباب هلاك الأمم وحلول نقمة الله وتعذيبه لها، وقد أخبر الله عما قاله نبيان كريمان من أنبياء الله بعدما نزل العذاب بقومهما، ففي سياق الكلام عن صالح عليه السلام قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [لأعراف: ٧٩] وفي قصة شعيب قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وأما أدلة السنة فمن أشهرها حديث جبريل المعروف الذي تكرر معنا مرارا وفيه أنه سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر**» وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به**»(١).

---

(١) رواه البخاري (٢٤٧، ٦٣١١) ومسلم (٢٧١٠).

الكتب الإلهية الواجب الإيمان بها:

يدل ظاهر عدد من آيات القرآن الكريم على أن جل الرسل قد بعثوا إلى أقوامهم ومعهم كتاب فيه وحي الله إلى تلك الأقوام، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] وقوله سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] وقد بلغ الرسل جميعا رسالات الله سبحانه وامتدحهم الله على صنيعهم هذا فقال: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

لكننا مع ذلك لا نعلم تحديدا عدد الكتب التي أوحاها الله إلى رسله ولا أسماء كل كتاب منها، والمصدر الوحيد الذي يصح الرجوع إليه في معرفة الكتب الإلهية بالتفصيل هو القرآن الكريم، لأنه الكتاب الوحيد المحفوظ حفظا قاطعا فلا يتطرق إليه الزيادة ولا النقص ولا التحريف ولا التبديل بحال من الأحوال وكذلك السنة النبوية وهي وحي من الله سبحانه، والكتب السماوية التي ورد ذكرها في القرآن هي بحسب ترتيبها التاريخي:

١ – **صحف إبراهيم** عليه السلام، وقد جاءت الإشارة إليها في موضعين من كتاب الله تعالى وهما قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩] وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ

مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧] وأما مضمون هذه الصحف، فلا نعرف عنها الكثير سوى ما ورد في الآيات السابقة من إشارة إلى شيء مما تضمنته، وكلها من المعاني التي اتفقت عليها سائر الرسالات السماوية، ولا شك أن الدين المشترك بين الأنبياء والرسل هو التوحيد والدعوة إليه وإن اختلفت الشرائع والعبادات.

٢- **التوراة**: وهي كتاب الله الذي أوحاه إلى موسى عليه السلام، وقد تكرر ذكرها في القرآن الكريم بعدة أسماء أو أوصاف، منها التوراة وهي أكثر الأسماء ورودا، حيث تكرر ذكرها في القرآن ثماني عشرة مرة مقرونا بالقرآن أو الإنجيل أو مستقلا بالذكر، ومن ذلك مثلا قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

٣- **الزبور**: وهو كتاب الله الذي أوحاه إلى داود عليه السلام وقد ورد ذكره في كتاب الله في ثلاثة مواضع، وهي قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣] وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

٤- **الإنجيل**: وهو كتاب الله الذي أنزله على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام، وقد ورد ذكره في القرآن في اثني عشر موضعا، جاء

مقرونا بالتوراة في معظمها، ومن ذلك قوله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

٥ – **القرآن الكريم**: وهو كتاب الله الخاتم ووحيه الأخير إلى أهل الأرض الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، وجعله ناسخا ومهيمنا على ما سبقه من الكتب، وقد سماه الله تعالى ووصفه بأعظم الأسماء وأجل الصفات، مما يضيق المقام عن ذكره تفصيلا، فقد سمي بالقرآن والكتاب والفرقان والذكر وغير ذلك، ومن اليسير على كل قارئ لكتاب الله تعالى أن يقف على أكثر من ثلاثين وصفا للقرآن[1] منها أنه هدى، وموعظة، ورحمة، ولا ريب فيه، ومصدق وذكر، وذكرى وتذكرة، وعربي، ومحكم وحكيم وحق ومبين وقيم وغير ذي عوج وتنزيل وفرقان وأحسن الحديث ونور وشفاء وبصائر ومبارك وروح ومهيمن وبرهان ومبارك.

موقف المسلم من الكتب السماوية السابقة:

وإذا تأملنا نصوص القرآن والسنة كي نقف على ركائز الموقف الصحيح الذي يجب أن يعتقده المسلم تجاه الكتب السماوية السابقة على نزول القرآن الكريم ـ ونعني بذلك في المقام الأول التوراة والإنجيل لأنهما الكتابان الموجودان حتى يومنا هذا على ما أصابهما من التحريف والتبديل

(١) د. تمام حسان: البيان في روائع القرآن ص ٤٦٩.

ـ فيمكننا أن نخلص بالأمور التالية:

١ - يجب على المؤمن أن يصدق تصديقا جازما بهذين الكتابين وبسائر ما أنزل الله على رسله من كتب ورسالات، معتقدا أنها ـ بصورتها الصحيحة قبل أن تلحقها أيدي المحرفين والمبدلين ـ وحي الله وكلامه، وأنها نزلت نورا وهدى للناس كي تخرجهم من الظلمات إلى النور، وأنها تضمنت المعتقد الصحيح عن الله ورسله واليوم الآخر وغير ذلك من أصول الاعتقاد وإخلاص العبادة لله وحده وتنزيهه عن النقائص والمعايب وكل ما يخل بكماله وجلاله.

٢- ويؤمن المسلم أيضًا بأن كتب الله ورسالاته ـ في صورتها الصحيحة قبل التحريف والتبديل ـ يصدق بعضها بعضا ولا تختلف أو تتعارض في أي أصل من أصول الاعتقاد ومكارم الأخلاق وكليات الدين وجانب الإخبار عن الحوادث السابقة أو اللاحقة.

وقد وصف الله القرآن بأنه نزل مصدقا لما بين يديه من الكتب السابقة فقال سبحانه: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣] وجعل ذلك حجة على من كفر من أهل الكتاب بالقرآن إذ كيف يكفرون بكتاب نزل مصدقا لما عندهم من الحق، فقال سبحانه: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١].

٣- وقد أمر الله سبحانه الأقوام الذين أرسلت إليهم الكتب السماوية السابقة بطاعة رسلهم، والحكم بما أنزل الله عليهم في تلك الكتب من أوامر

وتشريعات وتكرر أمر الرسل لأقوامهم بعبادة الله وتقواه وطاعة الرسل كما حكى الله عنهم قولهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٨]، وقال نوح عليه السلام: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠].

٤- لكن من المهم أن نعلم أن وجوب اتباع كل كتاب من الكتاب السابقة والعمل بما تضمنه من أحكام يظل مستمرًا حتى يأتي كتاب آخر ينسخ الكتاب السابق جملة أو ينسخ بعض ما فيه من أحكام، وبنزول كتاب الله الخاتم ورسالته الأخيرة إلى أهل الأرض - القرآن الكريم - نسخت الكتب والشرائع السابقة كلها، وجاء هذا الكتاب مهيمنا على كل ما تقدمه من الكتب كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا(١) عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ

---

(١) ومعنى (مهيمنا) كما قال ابن كثير أي أمينا وشاهدا وحاكما على كل كتاب قبله، وقد جعل الله هذا الكتاب العظيم، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها، أشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها.

عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وبذلك تعين على كل من بلغه القرآن وسمع بدعوة المصطفى ﷺأن يتبع القرآن ويعمل بما فيه وإلا فالنار عاقبته وهو من الخاسرين كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقال النبي ^: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة** ـ أي أمة الدعوة وهم البشرية كلها ـ **يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»(١) وثبت أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب فقرأه على النبي ﷺ فغضب فقال: «**أمتهوكون فيها يا بن الخطاب! والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به والذي نفسي بيده لو أن موسى ﷺ كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني**»(٢).

أما من آمن بنبيه الذي أرسل إليه ثم آمن بالنبي ﷺ حينما سمع بدعوته فله أجران كما قال ﷺ في خطابه لهرقل عظيم الروم: «**أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين**»(٣) وقال أيضا: «**ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن**

(١) رواه مسلم (١٥٣) وأحمد (٢٧٤٢٠).

(٢) رواه أحمد (١٤٧٣٦) والدارمي (٤٣٥).

(٣) رواه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣).

بنبيه وآمن بمحمد ﷺ والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران» ثم قال عامر أعطيناكها بغير شيء قد كان يركب فيما دونها إلى المدينة(١).

وهناك الكثير من الدراسات التي كتبها باحثون مسلمون وغير مسلمين – حتى من اليهود والنصارى أنفسهم – في إثبات تحريف التوراة والإنجيل بما يغنينا عن الإطالة في هذا الأمر وقد أخبر الله وأخبر رسوله ﷺ عن تحريف اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل سواء بكتمان البعض منها أو تحريفه عن مواضعه أو اختلاق كلام أو أحكام بشرية ونسبتها إلى الله تعالى.

كذلك يثبت النظر المنصف في متن التوراة والإنجيل الموجودين بين أيدينا الآن أنهما تعرضا لكثير من التحريف والتبديل حيث تضمنا نصوصا يقطع كل منصف استحالة صدورها عن الله سبحانه أو عن رسله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم نظرا لما فيها من نسبة القبائح إلى الله أو إلى رسله صلوات الله وسلامه عليهم أو اشتمالها على الخرافات والأساطير التي أثبتت حقائق العلم التجريبي وأدلة العقل والبداهة بطلانها وكذبها وتناقضها أو إيرادها لأخطاء تاريخية تتناقض مع ما ذكرته تلك الكتب نفسها في مواضع أخرى أو تتعارض مع الحقائق التاريخية الثابتة.

وأخيرًا يبقى سؤال مهم ربما تطرق إلى الأذهان بعد كل ما أسلفناه من

---

(١) رواه البخاري (٥٠٨٣) ومسلم (١٥٤).

أدلة على تطرق التحريف إلى التوراة والإنجيل، وهو: أنه إذا كان التحريف في التوراة والإنجيل ثابتا ثبوتا حقيقيا لا ريب فيه بنص القرآن من جهة، وبالأدلة الحسية من جهة أخرى، فما معنى أن القرآن جاء مصدقا لما تقدمه من الكتب الإلهية؟

والجواب هو أن معنى ذلك: أن القرآن جاء مؤيدا للحق الذي ورد فيها من عبادة الله وحده، والإيمان برسله، والتصديق بالجزاء، ورعاية الحق والعدل والتخلق بالأخلاق الصالحة، وهو في الوقت ذاته جاء مهيمنا عليها ومبينا ما وقع فيها من أخطاء وأغلاط وتحريف وتصحيف وتغيير وتبديل، وإذا انتفت هذه الأخطاء التي أدخلها رجال الدين على الكتب السماوية وزوروها على الناس باسم الله ظهر الحق واستبان والتقى القرآن مع التوراة والإنجيل: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨] وإقامتهما لا تتحقق إلا بعد تطهيرهما من الزيف.

ثمرات الإيمان بالكتب والرسالات:

ولا شك أن الإيمان بالكتب والرسالات يثمر ثمرات جليلة في قلب المؤمن وعقله وسلوكه إضافة إلى كونه أحد أركان الإيمان التي لا تصح عقيدة المكلف إلا بتحقيقها، ومن تلك الثمرات(١):

١- العلم بعناية الله تعالى بعباده، حيث أنزل لكل قوم كتابا أو نبيا

---

(١) انظر الشيخ ابن عثيمين: شرح أصول الإيمان ضمن مجموع الرسائل والمتون العلمية ٣/ ٩١.

يهديهم به كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] ولم يترك سبحانه البشر يسيرون بمقتضى أهوائهم أو عقولهم أو ما تتعارف عليه كل أمة منهم مما يؤدي حتما إلى الفرقة والاختلاف والضلال، كما قال سبحانه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

٢- العلم بحكمة الله تعالى في شرعه حيث شرع لكل قوم ما يناسب أحوالهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فكل رسالة جاءت لتناسب البشر في وقت نزولها، حتى ختمت برسالة المصطفى ﷺ.

٣ – شكر نعمة الله على إنزال الكتب وما تضمنته من الهداية والرشاد، فمن رحمة الله أن تفضل على بني آدم وكرمهم أعظم تكريم، حيث أنزل عليهم كتبا اشتملت على كلامه سبحانه ونزل بها أفضل ملائكته وهو أمين الوحي جبريل على أفضل خلقه وهم الأنبياء والرسل.

٤- الاهتمام البالغ بالعقيدة وتوحيد الله سبحانه وغرس ذلك في القلوب والعقول، وجعل هذه القضية هي نقطة الانطلاق لإصلاح الأمة وتغيير أحوال المسلمين وتقديمها على سائر القضايا الأخرى، إذ إن الكتب السماوية جميعا ورسالات الأنبياء والرسل قد جاءت ابتداء لتقرر هذا الأمر، ولتجعله مفتاح دعوتها وغرضها الأساسي وما من رسول إلا قال لقومه: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٥ – الرد على دعاة فصل الدين عن الدولة، أو فصل الدين عن الحياة بشتى جوانبها أو المكتفين بالعقل والمغترين به، ممن ظنوا أن في استطاعة العقل البشري أن يستقل بنفسه في الإدراك التفصيلي لكل ما يحقق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، إذ لو كان الأمر كذلك ما أنزل الله رسالاته على العباد تترى لتخبرهم بما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وقد تضمنت كل هذه الرسالات أحكاما تخص أمور الحياة وجوانبها المختلفة، ولا يكاد يعرف كتاب منزل لا يتضمن سوى مجموعة من الآداب والأخلاقيات، دون أن تقترن بتشريع جديد، وحتى إذا نظرنا إلى الإنجيل فسوف نجد أنه جاء مصدقا ومتبعا لما في التوراة وما فيها من تشريعات وأحكام في الأعم الأغلب، وإن نسخ بعض ما فيها من أحكام، وأحل شيئًا مما فيها من محرمات، كما قال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

* * *

الأصل الرابع: الإيمان بالرسل

والإيمان بالأنبياء والرسل هو الأصل الرابع من أصول العقيدة وأركان الإيمان التي لا يصح إيمان المكلف إلا إذا حققها على وجهها الصحيح، والمقصود بهذا الركن هو التصديق الجازم بأن لله أنبياء ورسلا، اصطفاهم من بين عباده وارتضاهم لحمل دينه، وخصهم برسالاته وقد أدوا جميعا الأمانة، ونصحوا لأممهم، وأقاموا عليهم الحجة، وبلغوا رسالات ربهم دون أن يكتموا أو يغيروا أو يبدلوا منها شيئا.

ولا يصح إيمان المكلف بالرسل إلا إذا حقق أمورا أربعة، وهي(١):

أولا: الإيمان بأن رسالة الرسل جميعا حق من الله تعالى، فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] فجعلهم الله مكذبين لجميع الرسل، مع أنه لم يأتهم رسول سوى نوح ﷺ، وعلى هذا فمن كذب رسالة محمد ﷺ فهو مكذب لرسالة سائر الرسل، حتى لو زعم أنه مصدق برسالة موسى أو عيسى عليهما السلام، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ثانيا: الإيمان التفصيلي بمن علمنا اسمه منهم، وهم خمسة وعشرون نبيا ورسولا، وأما من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالًا كما قال تعالى:

(١) انظر ابن عثيمين: شرح أصول الإيمان ص ٩٤، ٩٥.

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤].

ثالثا: تصديق ما صح من أخبارهم، ونقل إلينا من معجزاتهم، بشرط أن يرد ذلك بطريق معتبر.

رابعا: العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم، وهو خاتمهم محمد ﷺ المرسل إلى جميع الناس، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وجوب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام(١):

أوجب الله على عباده أن يؤمنوا بجميع رسله وأنبيائه، وجاء الأمر بذلك على سبيل العموم كما في قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: ١٧١] وقد حرم الله سبحانه التفرقة بين الرسل في الإيمان فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٢] وجعل سبحانه ذلك من الكفر والضلال، فقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ

(١) انظر في الكلام عن هذه المسألة تفصيلا عند حافظ حكمي: معارج القبول ٢/ ٦٠، ٦١، وأبي بكر الجزائري: عقيدة المؤمن ص ٢٧٤- ٢٧٩.

ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

ومن خلال الآيات المذكورة آنفا وغيرها يتبين لنا أن المسلم مطالب بأن يؤمن بأنبياء الله ورسله أجمعين، سواء علم أعيانهم وتفاصيل أعدادهم وأسمائهم، أم لم يعلم ذلك، وأن هذا الإيمان الإجمالي لابد أن يصحبه إيمان تفصيلي آخر بكل من سمى الله في كتابه أو سمى رسوله ﷺ في سنته الصحيحة من الأنبياء والرسل.

ولا شك أن الأنبياء والرسل جم غفير وأن عددهم كبير جدا، ويدل على ذلك نصوص الكتاب والسنة، ومنها أن الله سبحانه قضى برحمته وعدله ألا يعذب أمة أو فردا إلا إذا بعث فيهم رسولا: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ويترتب على ذلك عدم وجود أمة أو قوم لم يبعث إليهم نذير أو هاد كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] وإذا كان عدد الأمم والأقوام كبيرا جدا، فكذلك الحال فيما يخص عدد الأنبياء والرسل.

وقد ورد في السنة تصريح بعدد الأنبياء والرسل، وذلك فيما رواه أحمد في مسنده عن أبي ذر، أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: كم المرسلون؟ فقال ﷺ: «**ثلاثمائة وبضعة عشر جما غفيرا**»(١) وفي رواية أخرى سئل ﷺ

(١) رواه أحمد (٢١٠٣٦، ٢١٠٤٢) والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٨٨، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦٦٨).

عن عدد الأنبياء فذكر أنهم مائة وأربعة وعشرون ألفا[(١)] ولم يذكر الله لنا سبحانه أسماء هؤلاء الأنبياء والرسل وأخبارهم تفصيلا، بل منهم من قص علينا خبره ومنهم لم يقص علينا خبره، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤] وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

والأنبياء والرسل المذكورون في القرآن الكريم خمسة وعشرون، منهم ثمانية عشر ورد ذكرهم تباعا في سياق واحد في سورة الأنعام، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣- ٨٦] ويبقى سبعة رسل وأنبياء ذكروا في مواضع متفرقة من كتاب الله تعالى، وهم (آدم، وهود، وصالح وشعيب، وإسماعيل، وإدريس، وذو الكفل، ومحمد) عليهم جميعا الصلاة والسلام.

---

(١) رواه أحمد (٢١٧٨٥) وحكم عليه الألباني بأنه صحيح لغيره كما في السلسلة الصحيحة (٢٦٦٨).

ومع وجوب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل وحرمة التفرقة بينهم، فلا مانع من المفاضلة بينهم على الوجه الوارد في النصوص الشرعية، ودون أن يفهم من ذلك أي نوع من الانتقاص للمفضول أو التعصب لنبي دون آخر(١)، والدليل على جواز المفاضلة بين الأنبياء والرسل هو قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

أما التفضيل الذي ينبئ عن العصبية أو المفاخرة أو الإزراء ببعض الأنبياء فهو ممنوع، وعلى ذلك يتنزل ما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: بينما يهودي يعرض سلعته أعطي بها شيئًا كرهه، فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهه وقال: تقول والذي اصطفى موسى على البشر، والنبي ﷺ بين أظهرنا، فذهب إليه فقال: أبا القاسم إن لي ذمة وعهدا فما بال فلان لطم وجهي، فقال لم لطمت وجهه؟ فذكره، فغضب النبي ﷺ حتى رئي في وجهه ثم قال: لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أم

(١) انظر ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٢/ ٢٢٣ - ٢٢٤، وابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٥٨- ١٦٤.

بعث قبلي، ولا أقول إن أحدا أفضل من يونس بن متى»[(١)].

وأفضل الرسل هم الخمسة أولو العزم، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم جميعا صلوات الله وسلامه، وهم المذكورون في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] وقد سموا بذلك لصبرهم وجهادهم في الدعوة إلى الله وتبليغ دينه، ولذا أمر الله رسوله ﷺ بالاقتداء بهم والتأسي بصبرهم وجهادهم في الدعوة إلى الله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وأفضل الرسل والأنبياء على الإطلاق، وإمامهم وقائدهم وسيدهم جميعا هو رسولنا محمد ﷺ القائل: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**»[(٢)] والقائل ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر**»[(٣)] وقد ختم الله بنبيه ورسوله محمد ﷺ باب الرسالة والنبوة، فكل من ادعى النبوة بعده فهو كافر ضال مضل، مخالف لما قطعت به نصوص الكتاب والسنة وأجمعت عليه الأمة، حيث قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

---

(١) رواه البخاري (٣٤١٥) ومسلم (٢٣٧٣).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٠) ومسلم (١٩٤).

(٣) رواه مسلم (٢٢٧٨) والترمذي (٣٦١٥).

وظائف الرسل والمقصد من إرسالهم:

تعددت نصوص القرآن والسنة التي تبين المراد من بعثة الرسل، والمقصد الذي أرسلهم الله تعالى من أجله، ويمكننا إجمال ذلك فيما يلي:

١ – الدعوة إلى عبادة الله وحده، وتوحيده، ومعرفته بأسمائه وصفاته، ونبذ الأوثان والشركاء وسائر ما يعبد من دون الله تعالى، وهذا الأمر هو زبدة الرسالات الإلهية وغايتها، وقطب رحاها وعمدتها، وكلها ترتكز عليه وتستند في وجودها إليه، وتبتدئ منه وتنتهي إليه، كما أنه يمثل نقطة الصراع الأساسية وميدان المعركة الأول بين الرسل وأممهم، وحول هذا الموضوع دارت جهود الأنبياء ودعوتهم، ومن أجله حاربوا وسالموا، وأحبوا وأبغضوا، وأوذوا وعودوا[(١)].

وقد أخبر الله في كتابه أنه بعث الرسل والأنبياء جميعا لبيان هذا الأمر وتحقيقه، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] وتتفق دعوة الأنبياء جميعا أنها تبتدئ بهذه الجملة: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٨٤] وقد تكررت على لسان كل نبي ورسول كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٢- البلاغ المبين، فقد جعل الله الرسل حملة وحيه، وسفراءه إلى

(١) انظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٦٩، وعبد الرحمن بن حسن: فتح المجيد ص ٢٥، ٢٦، ود. محمد خليل هراس: دعوة التوحيد ص ٧، ٩.

عباده وأمرهم بتبليغ دين الله إلى الناس، وعد سبحانه ذلك بمثابة الوظيفة الأساسية للرسل جميعا حيث قال سبحانه: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥] وقالت الرسل لأقوامهم: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [يس: ١٧].

٣- إخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهدى، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم، وهذه الوظيفة هي مهمة كل نبي ورسول أرسله الله تعالى إلى قومه، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥] وقال تعالى مخاطبا نبيه ﷺ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١] ويلتحق بهذه المهمة تقويم الأفكار المنحرفة والعقائد الزائفة فكل رسول أو نبي بعث إلى قومه كان يدعوهم إلى الصراط المستقيم وعبادة الله وحده، ثم يُعنى على وجه الخصوص بنوع الانحراف الشائع في قومه، ولهذا وجدنا هودا عليه السلام ينكر على قومه الاستعلاء في الأرض والتجبر فيها، وصالحا عليه السلام ينكر على قومه الإفساد في الأرض واتباع المفسدين، ولوطا عليه السلام يحارب جريمة اللواط التي استشرت في قومه.

٤- تزكية النفوس وإصلاحها، فمن رحمة الله بعباده أن أرسل إليهم رسلا وأنزل معهم وحيا وكتبا لإحياء موات القلوب، ولينيروا ظلام النفوس: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ

وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

٥- إقامة الحجة وإزالة المعاذير، فلا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى ولذا أرسل الأنبياء والرسل، لئلا يكون للناس على الله حجة، ولئلا يتعللوا بذلك يوم القيامة، وقد قال سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥] وقال النبي ﷺ: «**ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش، وليس أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل**»(١).

٦- ومن مقاصد بعثة الرسل أن يكونوا قدوة حسنة وأسوة صالحة للبشرية جميعا، ولئلا يحتج الناس أن ما أمروا به من تكاليف خارج عن طاقة البشر ووسعهم، فها هم الأنبياء مثلهم بشر من لحم ودم، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ومع ذلك فقد امتثلوا لأوامر ربهم وأتوا بها على أكمل الوجوه وأحسنها وقد أمر الله سبحانه رسوله ﷺ والأمة جميعا أن تقتدي بسيرة الأنبياء وهديهم، فقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ

(١) رواه البخاري (٧٤١٦) ومسلم (١٤٩٩، ٢٧٦٠).

فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] وحث الله المؤمنين على الاقتداء بخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ومن معه في ولائهم لله وللمؤمنين، وبرائهم من الشرك والمشركين فقال سبحانه: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

والمتأمل لقصص الأنبياء وسيرتهم يجد فيها ما لا يحصى من مواضع القدوة والأسوة لسائر طبقات المكلفين ولمختلف الصفات والأخلاق، ففي قصص الأنبياء قدوة للدعاة والمصلحين، كما هو الحال في قصص سائر الأنبياء، وللملوك وللحكام، كما في قصص داود وسليمان وللآباء وللأبناء كما في قصة إبراهيم وإسماعيل، وللشباب، كما في قصة يوسف عليه السلام وللمبتلين بالمرض والبلاء، كما في قصة أيوب عليه السلام، وغير ذلك الكثير.

وأما الاقتداء بنبينا محمد ﷺ، فلا شك أن في سيرته ودعوته وعبادته وخلقه وتعاملاته وجهاده وفتوحاته، أعظم القدوة وأحسن الأسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، كما قال الله سبحانه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١].

٧- ومن وظائف الرسل - ولاسيما أفضلهم وخاتمهم نبينا محمد ﷺ- الشهادة على الأمم بأن الرسل قد بلغوهم رسالة الله، وبشروهم

وأنذروهم، ولم يتركوا خيرا إلا وأرشدوهم إليه، ولم يتركوا شرا إلا وحذروهم منه، وقد أخبر الله سبحانه أنه سوف يبعث من كل أمة شهيدا، فقال سبحانه: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] وقال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] وأخبر سبحانه أن عيسى عليه السلام سوف يكون شهيدا على قومه يوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٩].

٨- التبشير والإنذار، وهو من أهم وظائف الرسل، وأظهر مقاصد إرسالهم، ودعوة الرسل تجمع دائما بين هذين الجانبين، وتبلغ أهمية التبشير والإنذار في دعوة الرسل إلى الدرجة التي نجد فيها بعض آيات القرآن تقصر الغرض من إرسال الرسل على هذين الأمرين، كما قال سبحانه في سورة الأنعام: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٨].

٩- ومن وظائف الرسل ومهامهم قيادة أممهم، وسياسة دنياهم بدين الله وشرائعه، فالرسول في قومه هو إمامهم وقائدهم وزعيمهم، وقاضيهم ومدبر سياستهم الدينية والدنيوية، ولا شك أن من يستجيبون لدعوة أي نبي أو رسول يكونون جماعة وأمة، وهؤلاء يحتاجون إلى من يسوسهم ويدبر أمورهم،

والرسل يقومون بهذه المهمة في حال حياتهم، كما قال ﷺ: «**كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمْ الْأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»(١).

وقد أوجب الله على قوم كل رسول أن يطيعوه ويتبعوه، وجعل طاعتهم للرسول جزءا من طاعتهم لله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النساء: ٦٤] والمتأمل لسير كثير من الأنبياء، ولا سيما من كتب لهم التمكين الكامل أو الجزئي في الأرض، مثل يوسف وموسى وداود وسليمان عليهم جميعا السلام يجد أنهم كانوا يقودون الجيوش، ويقسمون الأموال، ويقضون بين الناس في الخصومات والنزاعات، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٨] ونادى اللهُ داودَ عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [صّ: ٢٦]، وأما نبينا ﷺ فكان إمام الأمة في الصلاة، وقائدهم في الغزوات، والقاضي بينهم في الخصومات، ومن يقسم بينهم الأموال، وقد أمره الله تعالى أن يحكم بين الناس بما أنزل الله، كما قال سبحانه: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩] ولعل

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٥) ومسلم (١٨٤١).

في هذه الآية وما أشبهها الرد المفحم على العلمانيين من دعاة فصل الدين عن الحياة أو الدين عن الدولة، والزاعمين بأنه ﷺ كان مجرد نبي ورسول ومعلم للناس، ولم يكن حاكما بينهم، ولم يؤسس دولة ذات شرائع وأنظمة في كافة مجالات الحياة.

صفات الرسل عليهم السلام:

الأنبياء والرسل هم عباد الله المخلصون، وسفراؤه إلى عباده، وأمناؤه على دينه وشرعه وحملة وحيه ورسالته إلى البشر، والمكلفون بدعوة البشرية التائهة وردها إلى ربها ومولاها، ولا شك أن تلك المهام العظيمة تقتضي ألا يقوم بها أي واحد من البشر، وإنما ينهض بها فقط خاصة الله من خلقه، الذين صنعهم الله على عينه واصطفاهم لرسالته.

وسوف نحاول فيما يلي أن نذكر أبرز الصفات التي اتصف بها سائر الرسل عليهم الصلاة والسلام[١].

١ – الصدق والأمانة، وهما وصفان ضروريان واجبان على كل مسلم، وهما على الرسل أوجب، وبدونهما لا يمكن أن يثق العباد في الرسل، أو في الوحي النازل عليهم، والدين الذي جاؤوا لتبليغه وقد تكرر في كتاب الله كثيرا وصف الأنبياء بالصدق والصديقية، فقال سبحانه عن إدريس عليه السلام: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: ٥٦] وقال عن إبراهيم

(١) انظر محمد بن سلوم: مختصر لوامع الأنوار البهية ص ٤٥٢، ٤٧٠، وابن عثيمين: شرح السفارينية ص٤٦١ – ٤٦٤، وأبو بكر الجزائري: عقيدة المؤمن ص ٢٧٢، ٢٧٣.

السلام: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١] كذلك تكرر وصف الأنبياء بالأمانة، وكل رسول كان يأتي إلى قومه يقول لهم: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ [الشعراء: ١٢٥] وكل من خالط الرسل وكلمهم أدرك هذه الخصلة بوضوح، وكان أهل مكة يسمون نبينا ﷺ قبل البعثة بالصادق الأمين وروى أحمد في مسنده(١) أن قريشا لما اختلفت فيمن يضع الحجر الأسود في الكعبة، قالوا: اجعلوا بينكم حكما، قالوا: أول رجل يطلع من الفج، فجاء النبي ﷺ فقالوا: أتاكم الأمين، فقالوا له، فوضعه في ثوب، ثم دعا بطونهم فأخذوا بنواحيه معه، فوضعه هو ﷺ، وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحا ومساء**»(٢).

٢- الكمال في الأخلاق، فرسل الله وأنبياؤه هم أحسن الناس خلقا، وأطهرهم قلبا، وأزكاهم نفسا، وقد مدحهم الله بجميل الصفات وكريم الشيم، وجعلهم أسوة حسنة وقدوة للبشرية، فقال سبحانه عن نوح السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء: ٣] وقال عن إبراهيم السلام ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾ [هود: ٧٥] وأثنى الله على نبيه محمد ﷺأبلغ الثناء فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤] وقال سبحانه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ

(١) رواه أحمد في المسند (١٥٠٧٨) وصحح شعيب الأرنؤوط إسناده في تحقيقه للمسند.
(٢) رواه البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤).

عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٣- الفطانة، ويقصد بها التيقظ وحدة العقل والذكاء، بحيث يتمكن المتصف بها من إلزام المخاطبين ورد دعاويهم الباطلة وإفحام المعاندين، ومن المعلوم أن الله سبحانه لم يبعث أحدا من الأنبياء إلا وكان على جانب عظيم من النباهة والذكاء، مع كمال العقل والرشد والحكمة والسداد في الأمر، وضد الفطنة هو البلادة، والأنبياء منزهون عن ذلك لمنافاته للمهمة العظيمة التي أرسلوا من أجلها، والمكانة العظيمة التي خصهم الله بها.

وقد وصف الله أنبياءه بالرشد والحكمة فقال عن إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] وقال عن لوط عليه السلام: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤] وقال عن نبينا ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

٣ – الحرية والذكورة، فالرسل لا يكونون إلا أحرارا، وهم منزهون عن الرق لمنافاة ذلك للكمال ولحيلولته دون القيام بأعباء النبوة ووظائفها، ولا يعترض على ذلك بما جرى ليوسف عليه السلام، فالرق في حقه كان نوعا من الابتلاء وهو أمر طارئ وظلم ممن فعله أو تسبب فيه، ثم إنه لم يستمر بل أبدله الله به الملك والتمكين في الأرض.

وأما الذكورة فالأنبياء والرسل جميعًا كانوا من الرجال ولم يرسل الله نبية من النساء على القول الراجح، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ

أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] ولا أظن أن أحدا يجادل في أن طبيعة النبوة شاقة، وأنها مهمة جسيمة لا تقوى المرأة على حملها، والنبي مطالب بالجهر بدعوته، ومخاطبة الرجال والنساء، ومقابلة الناس في السر والعلانية، والسفر هنا وهناك، وقتال الأعداء وقيادة الجيوش، وكل ذلك مما تعجز النساء عنها، لا سيما مع ما يعتري النساء من عوارض ـ كالحيض والنفاس والولادة ورعاية الأبناء ـ تحول بينها وبين تلك المهام العظام.

٤ – وثمة عدد من الصفات والخصائص التي ينفرد بها الأنبياء عن سائر البشر ـ إضافة إلى انفرادهم بالوحي والعصمة ـ ومنها أن الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، وأن رؤاهم وحي، ويدل على ذلك ما ثبت عن أنس في حديث المعراج عند البخاري حيث قال: «والنبي ﷺ نائمة عيناه ولا ينام قلبه وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم»(١) وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**تنام عيناي ولا ينام قلبي**»(٢). ومن خصائص الأنبياء أيضًا أنهم يخيرون عند الموت ولا يقبر نبي إلا حيث يموت لحديث عائشة أن النبي ﷺ قال: «**ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة، وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته بحة شديدة فسمعته يقول: مع الذين أنعم الله عليهم**

(١) رواه البخاري (٣٥٧٠، ٧٥١٧).

(٢) رواه البخاري (١١٤٧، ٢٠١٣، ٣٥٦٩) ومسلم (٧٣٨).

من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فعلمت أنه خير»(١). كذلك فإن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء لقوله ﷺ: «**إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»(٢).

أدلة صدق الرسل (دلائل النبوة):

ودلائل النبوة أو آيات الأنبياء هي علامات وبراهين قاطعة من الله تعالى يقيمها سبحانه دليلا على صدق رسله، وليكون لدى الناس من الحجج ما يفرقون به بين النبي الصادق والمتنبئ الكذاب المدعي ما ليس له، ومن أبرز هذه الدلائل ما يلي:

١- ما يخبر به الأنبياء والرسل من الأخبار الصادقة عن المغيبات التي لا سبيل للبشر لمعرفتها والوصول إليها البتة، وقد نبه القرآن على ذلك فقال سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

٢- أن ما جاؤوا به من الشرائع والأخبار في غاية الإحكام والإتقان، وكشف الحقائق وهدي الخلق مما يعلم بالضرورة أن مثله لا يصدر إلا عن أعلم الناس وأبرهم، ويضاف إلى ذلك ما ظهر من حسن أخلاقهم وطيب شمائلهم، ومخايل الصدق عليهم، مع حسن صورة وكمال خلق وتمام

(١) رواه البخاري (٤٤٣٥، ٤٥٨٦) ومسلم (٢٤٤٤).

(٢) رواه أحمد (١٥٧٢٩) أبو داود (١٠٤٧، ١٥٣١) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٢٧).

رجولة، وقد أدركت خديجة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا هذا الأمر حينما قالت كما في الصحيح: «كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، فوالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»(١) كما أدرك نفس الأمر عبد الله بن سلام حيث قال: لما قدم النبي ﷺ انجفل الناس عليه، فكنت فيمن انجفل، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول «**أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام**»(٢).

٣- أن طريقتهم واحدة فيما يأمرون به من عبادة الله، والعمل بطاعته، والتصديق باليوم الآخر والإيمان بجميع الكتب والرسل؛ فلا يمكن خروج واحد منهم عما اتفقوا عليه؛ فمتأخرهم يصدق متقدمهم، ويبشر متقدمهم بمتأخرهم؛ كما بشر المسيح ومن قبله بمحمد ﷺ، وكما صدق محمد ﷺ جميع النبيين قبله.

٤ – إخبارهم الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أعدائهم، وبقاء العاقبة لهم، فوقع كما أخبروا، ولم يتخلف منه شيء؛ كما حصل لنوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وموسى ونبينا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين مما قصه الله في كتابه.

٥- أن الله يؤيدهم تأييدًا مستمرا، وقد علم من علم من سنة الله أنه لا

---

(١) رواه البخاري (٤) ومسلم (١٦٠).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٨٥) وابن ماجه (٣٢٥١).

يؤيد الكذاب بمثل ما يؤيد به الصادق، بل يفضح الكذاب ولا ينصره، ولابد أن يهلكه، وإذا نصر ملكا ظالما مسلطا فهو لم يدع النبوة ولم يكذب عليه، بل هو ظالم سلطه الله على ظالم مثله؛ كما قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]؛ بخلاف من قال: إن الله أرسله وهو كاذب؛ فهذا لا يؤيده تأييدًا مستمرا، لكن قد يمهله مدة ثم يهلكه.

٦- ما أجراه الله على أيديهم من المعجزات القاهرة، والخوارق الباهرة، التي أرغمت أنوف أعدائهم، وأظهرت الحجة البالغة عليهم، كما أن تلك المعجزات تأتي نصرة للأنبياء، وتثبيتا لأتباعهم وإيناسًا لهم.

وربما يسأل سائل عن الفرق بين دلائل النبوة، وخوارق السحرة والكهان، وعجائب المخترعات التي ظهرت اليوم؟ والجواب: أن هناك فوارق كثيرة بين دلائل النبوة وخوارق السحرة والكهان والمخترعات الصناعية: منها:

أ- أن أخبار الأنبياء لا يقع فيها تخلف ولا غلط؛ بخلاف أخبار الكهنة والمنجمين؛ فالغالب عليها الكذب، وإن صدقوا أحيانًا في بعض الأشياء بسبب ما يحصل عليه الكهان من استراق شياطينهم للسمع.

ب- ومنها: أن السحر والكهانة والاختراع أمور معتادة معروفة ينالها الإنسان بكسبه وتعلمه؛ فهي لا تخرج عن كونها مقدرة للجن والإنس، ويمكن معارضتها بمثلها؛ بخلاف آيات الأنبياء؛ فإنها لا يقدر عليها جن ولا إنس؛ كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا

ﭐلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

فآيات الأنبياء لا يقدر عليها الخلق بل الله هو الذي يفعلها آية وعلامة على صدقهم؛ كانشقاق القمر وقلب العصا حية وتسبيح الحصا بصوت يسمع وحنين الجذع وتكثير الماء والطعام القليل فهذا كله لا يقدر عليه إلا الله.

ج- ومنها: أن الأنبياء مؤمنون مسلمون يعبدون الله وحده بما أمر ويصدقون جميع ما جاءت به الأنبياء، وأما السحرة والكهان والمتنبئون الكذبة؛ فلا يكونون إلا مشركين مكذبين ببعض ما أنزل الله.

د- ومنها: أن الفطر والعقول توافق ما جاء به الأنبياء عليهم السلام، وأما السحرة والكهان والدجالون الكذابون؛ فإنهم يخالفون الأدلة السمعية والعقلية والفطرية.

هـ- ومنها: أن الأنبياء جاؤوا بما يكمل الفطر والعقول، والسحرة والكهان والكذبة يجيئون بما يفسد العقول والفطر.

و- ومنها: أن معجزات الأنبياء لا تحصل بأفعالهم هم، وإنما يفعلها الله عز وجل آية وعلامة لهم؛ كانشقاق القمر وقلب العصا حية والإتيان بالقرآن والإخبار بالغيب الذي يختص الله به، فأمر الآيات إلى الله لا إلى اختيار المخلوق؛ كما قال الله لنبيه عندما طلبوا منه أن يأتي بآية؛ قال: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، وأما خوارق السحرة والكهان والمخترعات الصناعية؛ فإنها تحصل بأفعال الخلق.

خصائص النبي ﷺ، وحقوقه على أمته:

أولا: خصائص النبي ﷺ:

وقد خص الله تبارك وتعالى نبينا محمدًا ﷺ بكثير من الخصائص والمناقب التي فضله بها على غيره من المرسلين وميزه عن سائر العالمين. ومن هذه الخصائص:

١ – عموم رسالته لكافة الثقلين من الجن والإنس فلا يسع أحدًا منهم إلا اتباعه والإيمان برسالته قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وقال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢]، وعن أبي هريرة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون**»(١).

٢ – أنه خاتم الأنبياء والمرسلين كما دلت على ذلك النصوص قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وأخرج الشيخان من حديث أبي هريرة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ عن النبي ﷺ قال: «**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه**

---

(١) رواه مسلم (٥٢٣).

وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»(١) ولهذه النصوص أجمعت الأمة سلفًا وخلفًا على هذه العقيدة كما أجمعت على تكفير من ادعى النبوة بعده ﷺ ووجوب قتل مدعيها إن أصر على ذلك.

٣ – أن الله أيده بأعظم معجزة وأظهر آية وهو القرآن العظيم، كلام الله المحفوظ من التغيير والتبديل، الباقي في الأمة إلى أن يأذن الله برفعه إليه. قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١]. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة –رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ النبي ﷺ أنه قال: **«ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»**(٢).

٤ – أن أمته خير الأمم وأكثر أهل الجنة. قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وعن معاوية بن حيدة القشيري –رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه سمع

---

(١) رواه البخاري (٣٥٣٥) ومسلم (٢٢٨٦).

(٢) رواه البخاري (٤٩٨١) ومسلم (١٥٢).

النبي ﷺ يقول في قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «**إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله**»(١) وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: «كنا مع النبي ﷺ في قبة فقال: «**أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة**»؟ قلنا: نعم. قال: «**أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة**»؟ قلنا نعم. قال: «**أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة**»؟ قلنا: نعم. قال: «**والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر**»(٢).

٥ – أنه سيد ولد آدم يوم القيامة. فعن أبي هريرة –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع**»(٣).

٦ – أنه صاحب الشفاعة العظمى وذلك عندما يشفع لأهل الموقف في أن يقضي بينهم ربهم بعد أن يتدافعها أفضل الرسل وهي المقام المحمود المذكور في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. وقد فسر المقام المحمود بالشفاعة جمع من الصحابة وقد دلت السنة كذلك على شفاعته ﷺ في أهل الموقف كما جاء ذلك في حديث الشفاعة الطويل الذي أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٠١) وابن ماجه (٤٢٨٨).

(٢) رواه البخاري (٦٥٢٨) و مسلم (٢٢١).

(٣) رواه مسلم (٢٢٧٨).

ذكر اعتذار آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عن قبول الشفاعة وكلهم يقول: «لست هناك» إلى أن قال: «**فيأتونني فأنطلق، فأستأذن على ربي فيؤذن لي عليه، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع فأحمد ربي بمحامد علمنيها ثم أشفع**»..) الحديث.

٧ – أنه صاحب لواء الحمد وهو لواء حقيقي يختص بحمله يوم القيامة، ويكون الناس تبعًا له وتحت رايته واختص به لأنه حمد الله بمحامد لم يحمده بها غيره وقد دلت السنة على اختصاصه بهذه الفضيلة العظيمة. فعن أبي سعيد الخدري –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه، إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر**»[١].

٨ – أنه صاحب الوسيلة، وهي درجة عالية في الجنة، لا تكون إلا لعبد واحد، وهي أعلى درجات الجنة، ففي الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى عليه الله بها عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة**»[٢].

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٨) والترمذي (٣٦١٥).

(٢) رواه مسلم (٣٨٤).

ثانيا: حقوق النبي ﷺ على أمته:

١- الإيمان المفصل بنبوته ورسالته، واعتقاد نسخ رسالته لجميع الرسالات السابقة ومقتضى ذلك تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع. وقد دلت على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ﴾ [التغابن: ٨]. وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحشر: ٧].

٢ - وجوب الإيمان بأن الرسول ﷺ بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة فما من خير إلا ودل الأمة عليه ورغبها فيه، وما من شر إلا ونهى الأمة عنه وحذرها منه، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]. وقد شهد للنبي بالبلاغ أصحابه في أكبر مجمع لهم يوم أن خطبهم في حجة الوداع خطبته البليغة فبين لهم ما أوجب الله عليهم وما حرم عليهم وأوصاهم بكتاب الله إلى أن قال لهم: «**وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون**»، قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «**اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات**»(١).

(١) رواه البخاري (١٧٤١) ومسلم (١٦٧٩).

٣ – محبته ﷺ وتقديم محبته على النفس وسائر الخلق. والمحبة وإن كانت واجبة لعموم الأنبياء والرسل إلا أن لنبينا ﷺ مزيد اختصاص بها، ولذا وجب أن تكون محبته مقدمة على محبة الناس كلهم من الأبناء والآباء وسائر الأقارب بل مقدمة على محبة المرء لنفسه قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]. فقرن الله محبة رسوله ﷺ بمحبته عز وجل وتوعد من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله – توعدهم بقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. وفي الصحيحين من حديث أنس – رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»(١) وعن عمر – رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله أنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك**». فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**»(٢).

٤ – طاعته ﷺ، والاقتداء التام به، ومحبة ما يحبه وبغض ما يبغضه، كما قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران:

---

(١) رواه البخاري (١٤) ومسلم (٤٤).

(٢) رواه البخاري (٦٦٣٢).

١٣٢] وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ۚ﴾ [النور: ٥٤]وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

٥ – تعظيم النبي ﷺ وتوقيره وإجلاله، فإن هذا من حقوق النبي ﷺ التي أوجبها الله في كتابه. قال تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾[الفتح: ٩]. وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]. وقال عز وجل: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾ [النور: ٦٣].

٦- الصلاة والتسليم على النبي ﷺ والإكثار من ذلك كما أمرنا الله فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال: «**من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا**»(١) وعن علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**البخيل الذي من ذكرت عنده فلم يصل علي**»(٢).

(١) رواه مسلم (٤٠٨).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٤٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٧٨).

٧- الإقرار له بما ثبت في حقه من المناقب الجليلة والخصائص السامية والدرجات العالية الرفيعة مما دلت عليه النصوص والتصديق بكل ذلك والثناء عليه به ونشره في الناس، وتعليمه للصغار وتنشئتهم على محبته وتعظيمه ومعرفة قدره الجليل عند ربه عز وجل.

٨ – تجنب الغلو فيه والحذر من ذلك، فإن في ذلك أعظم الأذية له ﷺ. قال تعالى آمرًا نبيه ﷺ أن يخاطب الأمة بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. وبقوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]. فأمر الله نبيه ﷺ أن يقرر للأمة أنه مرسل من الله ليس له من مقام الربوبية شيء وليس هو بمَلَك إنما يتبع أمر ربه ووحيه. كما حذر النبي ﷺ أمته من الغلو فيه والتجاوز في إطرائه ومدحه. ففي صحيح البخاري من حديث عمر بن الخطاب -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله**»(١).

٩ – ومن حقوق النبي ﷺ محبة أهل بيته الطيبين الطاهرين رضوان الله عليهم والترضي عنهم وتوقيرهم وتبجيلهم دون تفريط أو إفراط فلا ينتقص أحد منهم ولا يغالى في حبه وقد قال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢].

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥).

١٠- ومن حقوق النبي ﷺ محبة أصحابه وأزواجه وموالاتهم جميعًا والحذر من تنقصهم أو سبهم أو الطعن فيهم بشيء، فإن الله قد أوجب على هذه الأمة موالاة أصحاب نبيه وندب من جاء بعدهم إلى الاستغفار لهم وسؤال الله ألا يجعل في قلوبهم غلا لهم. فقال بعد أن ذكر المهاجرين والأنصار: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]. وقال تعالى في حق قرابة رسوله ﷺ وأهل بيته: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

* * *

الأصل الخامس: الإيمان باليوم الآخر

واليوم الآخر: هو يوم القيامة، الذي يبعث الناس فيه للحساب والجزاء، وسمي بذلك لأنه لا يوم بعده، حيث يستقر أهل الجنة في منازلهم، وأهل النار في منازلهم، ويقصد بالإيمان باليوم الآخر: الاعتقاد الجازم والتصديق التام بيوم القيامة، والإيمان بكلِّ ما أخبر به الله- عزَّ وجل- في كتابه الكريم، وأخبر به رسوله الأمين – صلى الله عليه وعلى آله وسلم- مما يكون بعد الموت، وحتى يدخل أهل الجنَّة الجنة، وأهل النار النَّار.

وقد تواترت أدلة الكتاب والسنة في الدلالة على وجوب الإيمان باليوم الآخر ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [سورة البقرة: ٤] وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧].

كذلك ساق القرآن ضروبًا متنوعة من الأساليب البيانية العالية كي يؤكد وقوع القيامة في نفوس العباد، ففي بعض المواضع يكون الحديث عن القيامة خبرًا مجردًا كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الروم: ١١] ومرة يؤكد وقوعها (بإنَّ) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ [طه: ١٥]، ومرة يزيده توكيدا (بإنَّ واللام) كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] وفي بعض المواضع ينفي الريب

والشك عن وقوعها كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩]وفي بعض الآيات يقسم الحق على أنها آتية واقعة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾ [النساء: ٨٧]، وفي بعض المواضع يأمر رسوله في مجال الحِجَاج والخصام بالإقسام بربه مؤكدًا وقوعها ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

وبالإضافة إلى الأدلة النقلية السابقة فإن العقل السليم يقطع بضرورة وجود يوم آخر يبعث فيه الخلق ثانية، ويحاسبون على أعمالهم أمام رب قوي قدير، وسريع الحساب، وعليم بكل ما يفعله العباد ومجازيهم عليه، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في عدة آيات منها قول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

والمعنى الذي تشير إليه هذه الآيات وأمثالها: أن الخلق يصبح عبثًا وباطلًا إذا لم يكن هناك يوم آخر يبعث فيه الناس ويحاسبون على أعمالهم التي عملوها في الحياة الدنيا، أي أن الحياة تصبح عبثًا وخلق السماوات يصبح باطلًا لو كانت الحياة الدنيا هي نهاية المطاف.

ولعل باستطاعتنا أن ندرك بعقولنا هذا المعنى الذي تشير إليه الآيات فنحن نشاهد في حياتنا الدنيا ظالمين استمروا على ظلمهم حتى لحظة

الموت، ومظلومين ما انقطع عنهم الظلم إلى آخر حياتهم. أفإن كانت الحياة الدنيا هي نهاية المطاف يكون هذا عدلًا وحكمة؟ وأين هو العدل والظالم لم يقتص منه والمظلوم لم يقتص له؟! كذلك نشاهد في الأرض كفارًا ومؤمنين، تختلف معتقداتهم وسلوكهم ويختلف موقفهم من الخالق سبحانه. فريق استكبر وأبى أن يعبد الخالق ويطيعه، وفريق أسلم وجهه لله وهو محسن. وتسير الحياة بأحداثها، حتى تنتهي بموت أولئك وهؤلاء فهل يستوي المحسن والمسيء؟

ولا شك أن المؤمن بحكمة الله وعدله ورحمته يعلم أنه لابد من وجود يوم آخر يرجع فيه العباد إلى ربهم، ويقتص للمظلوم من الظالم ويثاب المؤمن ويعاقب الكافر، وتحق الحقائق وتوضع موازين القسط والعدل، ويحكم بين العباد فيما كانوا فيه يختلفون، ولا يظلم أحد مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

الحقائق التي يشملها الإيمان باليوم الآخر:

والإيمان باليوم الآخر يشتمل على مجموعة من الحقائق التي وردت في الكتاب والسنة ويجب على المكلف الإيمان بها جميعًا، وهذه الحقائق تبدأ من موت الإنسان وتنتهي بدخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ونلخصها فيما يلي(١):

(١) وانظر في تفصيل ذلك كله التذكرة للقرطبي، والبحور الزاخرة في علوم الآخرة =

الموت وعذاب القبر ونعيمه:

وقد كتب الله الموت والهلاك على سائر الخلق من الإنس والجن والملائكة وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]. وما من أحد إلا وله أجل محدود لا يتجاوزه ولا يقصر عنه، وقد علم الله تعالى جميع ذلك وجرى به القلم يوم خلقه، ثم كتبه الملك على كل أحد في بطن أمه بأمر ربه عز وجل عند تخليق النطفة، وما من إنسان مات أو قتل أو حرق أو غرق أو بأي حتف إلا وقد هلك بأجله، لم يستأخر عنه ولم يستقدم طرفة عين، وذلك السبب الذي كان فيه حتفه هو الذي قدره الله تعالى عليه وقضاه عليه وأمضاه فيه، ولم يكن له بد منه ولا محيص عنه ولا مفر له، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

والمقصود من معرفة المكلف للحقيقة السابقة ذكره الدائم للموت وجعله على باله، كما قال رسول الله ﷺ: «**أكثروا ذكر هاذم اللذات**»[(١)] يعني الموت. وللبخاري عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»[(٢)] كذلك يجب

=

للسفاريني، وعقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ص ١٨٥، والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد للفوزان ص ٢٠٥.

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٧) والنسائي (١٨٢٤).

(٢) رواه البخاري (٦٤١٦).

على كل أحد التأهب للموت قبل نزوله، والاستعداد لما بعده قبل حصوله والمبادرة بالعمل الصالح والسعي النافع قبل نزول البلاء وحلوله، إذ ليس بعده لأحد مستعتب ولا اعتذار ولا زيادة في الحسنات ولا نقص في السيئات ولا منزل إلا القبر، وهو إما منزل من منازل الجنة أو منزل من منازل النار – والعياذ بالله – ثم بعد البعث إما نعيم مقيم في جنات النعيم وإما عذاب أليم في نار الجحيم.

فتنة القبر:

والمقصود بها سؤال الميت بعد دفنه عن ربه ودينه ونبيه، وهي أول شيء يكون بعد الموت حيث يختبر الناس أجمعون في قبورهم، فما من إنسان يموت سواء دفن في الأرض، أو رمي في البر، أو أكلته السباع، أو ذرته الرياح، إلا ويفتن هذه الفتنة فيسأل عن ثلاثة أمور: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟

فأما المؤمن فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي، وحينئذ يفسح له في قبره مد البصر، ويفرش له فراش من الجنة، ويفتح له باب إلى الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها، أما إذا كان كافرًا أو منافقًا فإنه إذا سئل من ربك؟ ما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته.

عذاب القبر ونعيمه:

وقد تظاهرت نصوص الشريعة كتابًا وسنة بإثبات عذاب القبر ونعيمه، وأجمع على ذلك أئمة السنة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من أهل

السنة والجماعة، ومن أدلة القرآن على ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٧] وقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] وقد قال كثير من المفسرين إن المراد بالعذاب الأدنى عذاب القبر، وقال تعالى في قوم نوح: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]. والتعقيب بالفاء يدل على أن عذابهم في النار تبع موتهم واتصل به.

وأما نصوص السنة في إثبات عذاب القبر فقد بلغت الأحاديث في ذلك مبلغ التواتر، إذ رواها أئمة السنة وحملة الحديث ونقاده عن الجم الغفير والجمع الكثير من أصحاب رسول الله ومن ذلك ما رواه مسلم عن أنس -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**لولا ألا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع**»(١)، وروى الشيخان عن عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: مر النبي ﷺ على قبرين فقال: «**إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير**» ثم قال: «**بلى. أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله**»(٢).

(١) رواه مسلم (٢٨٦٨).
(٢) رواه البخاري (٢١٦) ومسلم (٢٩٢).

هل العذاب في القبر على الروح وحدها، أم على الروح والبدن معا؟

ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه معا، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين.

والعذاب في القبر وإن كان على الروح في الأصل وربما يتصل بالبدن فليس معنى كونه على الروح أن البدن لا يناله منه شيء، بل لا بد أن يناله من هذا العذاب أو النعيم شيء وإن كان غير مباشر، ومن المهم أن يعلم أن العذاب والنعيم في القبر على عكس العذاب أو النعيم في الدنيا، فإن العذاب أو النعيم في الدنيا على البدن، وتتأثر به الروح، وفي البرزخ يكون النعيم أو العذاب على الروح ويتأثر به البدن، وفي الجنة أو النار على البدن والروح معا.

أشراط الساعة:

والأشراط جمع شرط وهو لغة العلامة، وأما اصطلاحا فيراد بها العلامات الدالة على قرب يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [محمد: ١٨] وإذا كان الله قد أخفى وقت وقوع الساعة عن عباده واختص بعلم ذلك وحده، فإن من رحمته سبحانه أن أعلم العباد بأمارات وعلامات تدل على قرب وقوع الساعة.

فائدة البحث في الأشراط والمغيبات المستقبلة:

ولا شك أن هناك العديد من الفوائد التي نحصل عليها من وراء دراسة الأخبار التي تحدث بأشراط الساعة والمغيبات المستقبلة ومن أهمها ما يلي:

١- الإيمان بهذه الأخبار - إذا تحققنا صدقها - هو من الإيمان بالله، والإيمان برسوله، إذ كيف نؤمن بالله ورسوله ثم لا نصدق بخبرهما !! ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢-٣].

٢- وقوع تلك المغيبات على النحو الذي حدثت به الأخبار يثبت الإيمان ويقويه، فالمسلمون في كل عصر يشاهدون وقوع أحداث مطابقة لما أخبرت به النصوص الصادقة، فقد شاهد الصحابة انتصار الروم على الفرس، ثم انتصر المسلمون على الفرس والروم، وظهر الإسلام على جميع الأديان، وشاهدوا فرقة الأمة في العام الذي حدده الرسول ﷺ، وشاهدوا كثيرًا من الأحداث على النحو الذي أخبرت به النصوص، وكذلك الحال في كل عصر، يشاهد المسلمون وقائع وأحداثًا جاءت بها الأخبار، ولا شك أن هذا له أثر كبير في تثبيت المؤمن على إيمانه، وقد يكون ذلك مدخلًا لدعوة الآخرين إلى هذا الحق الذي جاءنا من ربنا.

٣- تثبيت الإيمان بيوم القيامة، فالقيامة وأهوالها من الغيب الذي أخبرنا به الله ورسوله، والإيمان به إحدى دعائم الإيمان، ووقوع الوقائع في الدنيا على النحو الذي جاءت به النصوص دليل واضح بيِّن على صدق كل الأخبار ومنها أخبار الساعة. فالكل من عند الله تبارك وتعالى.

٤- بعث الله رسوله دالًا على الخير محذرًا من الشر، وقد دل الرسول ﷺ أصحابه على المنهج الأمثل الذي ينبغي أن يسلكوه في الوقائع التي وقعت في عصره.

وفي إخباره بالمغيبات المقبلة توجيه للذين جاءوا من بعده من أمته كيف يتصرفون حيال الأحداث التي قد يخفى عليهم وجه الحق فيها، ومن هذه التوجيهات التي كان لها أثر كبير في توجيه المسلمين إلى الحق تبشيره عثمان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالجنة على بلوى تصيبه، وإخباره بأن عمارًا تقتله الفئة الباغية، وأمره أبا ذر بأن يعتزل الفتنة، وألا يقاتل ولو قتل، ويمكن أن يستفاد هذا المعنى من حديث حذيفة حيث كان يسأل الرسول ﷺ عن الشر مخافة أن يدركه، بينما أصحابه كانوا يسألون الرسول ﷺ عن الخير، ومن هذا نهى الرسول ﷺ المسلمين عن أخذ شيء من جبل الذهب الذي ينحسر عنه الفرات في آخر الزمان، وإخباره عن حقيقة الدجال، وبيان ما يأتي به من الشبهات، وغير ذلك من الكائنات التي يبصر الرسول ﷺ أمته بالتصرف الأمثل حيالها.

٥- قد تمر بالمسلمين وقائع في مقبل الأيام تحتاج إلى بيان الحكم الشرعي فيها، ولو ترك المسلمون إلى اجتهادهم - فإنهم يقد يختلفون، وقد لا يهتدون إلى الصواب، بل قد يكون بيان الحكم الشرعي في تلك الأحداث واجبا لا بدَّ منه، وعدم البيان يكون نقصًا تنزه الشريعة عنه. فمن ذلك أن الرسول ﷺ أخبر أن الدجال يمكث في الأرض أربعين يومًا، يوم من أيامه كسنة، ويوم كشهر، ويوم كأسبوع، وبقية أيامه كأيامنا، وقد سأل

الصحابة الرسول ﷺ عن تلك الأيام الطويلة أتكفي في الواحد منها صلاة يوم، قال الرسول ﷺ: لا، اقدروا له قدره، ولو وكل العباد إلى اجتهادهم لاقتصروا على الصلوات الخمس عند الأوقات المعروفة في غير هذه الأيام. وأخبر الرسول ﷺ أن عيسى بعد نزوله لا يقبل الجزية من اليهود والنصارى، ولا يقبل منهم إلا الإيمان، وهذا البيان من الرسول ﷺ ضروري، لأن عيسى يحكم بهذا الشرع، وهذا الشرع فيه قبول الجزية ممن بذلها إلى حين نزول عيسى بن مريم وحين ذاك توضع الجزية، ويقتل كل من رفض الإيمان، ولو بذل الجزية.

٦- التطلع إلى ما يحدث في المستقبل أمر فطري فالإنسان يجد في نفسه رغبة شديدة إلى معرفة الوقائع والكائنات التي قد تحدث للجنس الإنساني، أو تحدث للأمة التي هو منها، أو قد تحدث له، ولذلك فإن الزعماء والرؤساء، بل والأفراد يلجؤون في معرفة ذلك إلى السحرة والكهان والمنجمين، فجاءهم الله بالحق الذي يغني ويكفي ويشفي في هذا الجانب.

٧- ولعل فيما ذكرناه من فوائد ردا على من قال: إنه لا فائدة من إتعاب النفس في أمور فائدتها قليلة، والأولى أن نهتم بأحوال المسلمين ومشكلاتهم، بدلًا من قضاء الأوقات الطوال في البحث عما يجري في مقبل الأزمان من الوقائع والحادثات. والذي يعد نوعا من الهروب من الواقع الذي نعيش إلى عالم آخر مليء بالأحلام والأماني.

وردا على هؤلاء النفر نقول إنه ليس لنا خيار في دراسة الغيوب المستقبلة أو إهمالها، والاطلاع على هذه الغيوب والتصديق بها من صميم الدين الذي جاء به رسولنا ﷺ، وقد أخبر ببعض منها القرآن، وبعضها جاءت به السنة النبوية، وعلِم ذلك كله الصحابة، وشغلوا به أنفسهم، واهتموا به اهتمامًا كبيرًا، وصحيح أن كثيرًا من المسلمين شغلوا أنفسهم بالأخبار الغيبية التي لم يقم عليها دليل من الكتاب والسنة، وأغرق في ذلك بعض الذين نسبوا إلى العلم، ولكن الاشتغال بالنصوص الصحيحة هو جزء من هذا الدين الذي أنزله العليم الخبير ويمكننا أن نلوم الذين قعد بهم العمل من المسلمين انتظارًا لحدوث الواقعات التي أخبر بها الرسول ﷺ كالذين يتركون الجهاد انتظارًا لخروج المهدي، ولكن هذا خطأ يحتاج إلى تقويم، ولا يوجب ترك النصوص الصحيحة، فإن سلفنا الصالح مع إيمانهم بالغيب الصادق، لم يقعدوا عن الجهاد، ولم يتركوا العمل.

أقسام علامات الساعة:

وقد وردت أحاديث عديدة أخبر فيها الرسول ﷺ عن أشراط الساعة وتفاصيلها، وقد قسم أهل العلم هذه العلامات إلى قسمين: علامات صغرى، وعلامات كبرى، والعلامات الصغرى يمكن تقسيمها أيضًا إلى قسمين: قسم وقع، وقسم لم يقع بعد. والذي وقع قد يكون مضى وانقضى، وقد يكون ظهوره ليس مرة واحدة، بل يبدو شيئًا فشيئًا، وقد يتكرر وقوعه وحصوله، وقد يقع منه في المستقبل أكثر مما وقع في الماضي وتفصيل ذلك

على النحو التالي[١]:

أولا: العلامات الصغرى التي وقعت:

وهذه العلامات منها ما وقع وانقضى ولن يتكرر وقوعه، ومنها ما وقع وما يزال مستمرًا حتى يومنا هذا وإلى ما شاء الله تعالى، ومن ذلك:

١- بعثة النبي ﷺ ووفاته، ففي الصحيحين عن سهل بن سعد قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بإصبعيه هكذا، الوسطى والتي تلي الإبهام. وقال: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[٢].

٢- فتح بيت المقدس، ففي الحديث أنه ﷺ قال: «**اعدد ستا بين يدي الساعة موتي، ثم فتح بيت المقدس**..........»[٣].

٣- ظهور نار بالمدينة تضيء لها أعناق الإبل في بصرى من أرض الشام، ففي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة، حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى**»[٤] وهذه الآية العظيمة التي أخبر الصادق المصدوق بوقوعها في مقبل الزمان وقعت على الصورة التي أخبر بها الرسول ﷺ، وقد كان خروجها في سنة

(١) وانظر في الكلام تفصيلا عن تلك العلامات كتاب أشراط الساعة ليوسف الوابل، وعقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ص ١٩٢ والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد للفوزان ص ٢٠٦.

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٤) ومسلم (٢٩٥١).

(٣) رواه البخاري (٣١٧٦).

(٤) رواه البخاري (٧١١٨) ومسلم (٢٩٠٢) وبصرى : بلدة من بلاد الشام.

(٦٥٤) للهجرة النبوية[١].

٤- قلة العلم وكثرة الجهل والمعاصي، وانتهاك الحرمات، حيث قال ﷺ: «**إن بين يدي الساعة أيامًا ينزل فيها الجهل، ويرفع العلم، ويكثر الهرج، والهرج: القتل**»[٢].

٥- ظهور دجالين كذابين كثيرين، كلهم يزعم أنه رسول الله، ففي الصحيحين أنه ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يقتتل فئتان فيكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة ولا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله**»[٣].

٦ – كثرة الزلازل، فعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان**»[٤].

ثانيا: العلامات الصغرى التي لم تقع بعد، ومنها:

١- عودة جزيرة العرب مروجا وأنهارا، كما قال ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه: «**لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا**»[٥].

٢- قلة الرجال وكثرة النساء حتى إن الرجل الواحد ليعول أربعين أو خمسين امرأة، فعن أنس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن من أشراط**

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ٢٨٤.

(٢) رواه البخاري (٧٠٦٥) ومسلم (٢٦٧٢).

(٣) رواه البخاري (٣٦٠٩) ومسلم (١٥٧).

(٤) رواه البخاري (١٠٣٦).

(٥) رواه مسلم (١٥٧).

الساعة أن يرفع العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر، ويقل الرجال، ويكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد»(١).

٣- انحسار نهر الفرات عن جبل من ذهب، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب فمن حضره فلا يأخذ منه شيئا»(٢).

٤ – تقارب الزمان وقصره، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كالضرمة بالنار»(٣).

ثالثًا: العلامات الكبرى:

وهي أمور عظيمة رهيبة، وأمارات باهرة خطيرة، تخالف مألوف الناس وعاداتهم، وتمثل تحولا كبيرا في نظام الكون، وتكون بمثابة توطئة وتهيئة لقيام الساعة، والعلامات الكبرى عشر علامات لم يظهر منها شيء حتى يومنا هذا. وقد وردت مجموعة في حديث واحد ففي صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد قال: «اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى

(١) رواه البخاري (٨١) ومسلم (٢٦٧١).

(٢) رواه البخاري (٧١١٩) ومسلم (٢٨٤٩).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٣٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٢٢).

بن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»(١) ولم يرد في السنة ترتيب لتلك العلامات، وإن كان من الواضح أنه ليس بينها فاصل زمني كبير بل هي أشبه بحبات العقد يتبع بعضها بعضا.

وقد حفلت أحاديث السنة بتفصيلات كثيرة عن تلك العلامات – ولا يتسع المجال هنا لذكرها ويمكن الرجوع إلى بعض المراجع التي عنيت ببيان ذلك – وسوف نكتفي بإشارة موجزة إليها فيما يلي:

العلامة الأولى: خروج المهدي: وهو رجل من أهل البيت من ولد الحسن بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، يخرج وقد ملئت الأرض جورا وظلما فيملؤها قسطا وعدلا، ويوافق اسمه اسم النبي ﷺ واسم أبيه اسم أب النبي ﷺ، وقد روى أبو داود والترمذي أن النبي ﷺ قال: «**لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما**»(٢).

العلامة الثانية: ظهور المسيح الدجال: وهو رجل من بني آدم يخرج في آخر الزمان، فيفتن به كثير من الخلق، يجري الله على يديه بعض الأعمال الخارقة، ويدعي الربوبية ولا يروج باطله على المؤمن ويدخل الأمصار كلها إلا مكة والمدينة، ومعه نار وجنة فناره جنة وجنته نار. وقد دلت

---

(١) رواه مسلم (٢٩٠١).

(٢) رواه أبو داود (٤٢٨٢) والترمذي (٢٢٣٠).

الأحاديث الصحيحة على خروجه، وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال: قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال: «**إني أنذركموه، وما من نبي إلا قد أنذره قومه لقد أنذره نوح قومه، ولكن سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور**»(١).

العلامة الثالثة: نزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء إلى الأرض حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويقضي على الدجال، كما دلت على ذلك النصوص من الكتاب والسنة. أما الكتاب فيقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]. وأما السنة ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة –رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها**»(٢).

العلامة الرابعة: خروج يأجوج ومأجوج: وهم خلق كثير، لا قدرة لأحد بقتالهم، وقد دل على خروجهم الكتاب والسنة كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنبياء: ٩٦،

(١) رواه البخاري (٣٠٥٧) ومسلم (٢٩٣٣).
(٢) رواه البخاري (٣٤٤٨) ومسلم (١٥٥).

٩٧]. وأخرج الشيخان عن زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوما فزعا يقول: «**لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها**»(١).

العلامة الخامسة: هدم الكعبة على يد ذي السويقتين من الحبشة كما صحت بذلك السنة وقد أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة**»(٢).

العلامة السادسة: الدخان: وهو دخان عظيم من السماء يغشى الناس ويعمهم، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الدخان: ١٠، ١١]، ومن السنة قوله ﷺ: «**إنها لن تقوم** ـ أي الساعة ـ **حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان**»(٣).

العلامة السابعة: رفع القرآن من الأرض إلى السماء فلا يبقى منه آية في سطر ولا صدر إلا رفعت. وقد دلت على ذلك السنة فقد أخرج ابن ماجه من حديث حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «**يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك، وليُسرَى على كتاب الله**

(١) رواه البخاري (٣٣٤٦) ومسلم (٢٨٨٠).
(٢) رواه البخاري (١٥٩١) ومسلم (٢٩٠٩).
(٣) رواه مسلم (٢٩٠١).

عز وجل في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية»[١].

العلامة الثامنة: طلوع الشمس من مغربها. وقد دلت على هذه الآية النصوص من الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]. وروى الشيخان من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون فذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا**»[٢].

العلامة التاسعة: خروج الدابة: وهي مخلوق عظيم وقد دل الكتاب والسنة على خروجها قبل قيام الساعة. قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]. وروى مسلم عن أبي هريرة –رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا، طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض)[٣].

العلامة العاشرة: خروج نار عظيمة تخرج من عدن تحشر الناس إلى محشرهم وهي آخر العلامات العظام. وقد دلت على هذه العلامة السنة

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٤٩) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٧).

(٢) رواه البخاري (٤٦٣٦) ومسلم (١٥٧).

(٣) رواه مسلم (١٥٨).

كما جاء في حديث حذيفة بن أسيد المتقدم الذي أخرجه مسلم وفيه: «**وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم**».

ضوابط منهجية للتعامل مع أشراط الساعة وفتن آخر الزمان:

وبعد أن سقنا فيما مضى أهم علامات الساعة الصغرى والكبرى، فمن الضروري أن ننبه إلى عدد من الأصول والضوابط المنهجية للتعامل مع هذا الباب، لا سيما وأن هناك تضاربا واختلافا في مواقف الكثيرين من أبناء هذا الزمان في تعاملهم مع هذه القضية بين من شكك فيها بالكلية ونفض يديه من كل ما ورد فيها من أخبار ثبتت صحتها بالقطع واليقين، وبين من بالغ في الوقوف عندها وجعلها ديدنه وشغله الشاغل وجمع ما صح وما لم يصح منها بل عول على الإسرائيليات وأساطير الأمم السابقة، ثم تعسف في فهم النصوص ودلالتها، وحاول تنزيل بعض الفتن والأشراط على وقائع وأشخاص بعينهم دون دليل واضح، أو برهان سديد.

وبين هذين الموقفين المغالي والمفرط يبرز الموقف الوسطي السديد الذي يلتزم بعدد من الضوابط المنهجية المستقاة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأقوال سلف الأمة الصالحين وأهمها ما يلي:

١ – أشراط الساعة كلها من قبيل الأمور الغيبية، والمتوقفة على ورود النص القرآني، أو الخبر عن المعصوم ﷺ، وإذا ثبت النص وجب التصديق به، ولزم حسن التفهم لمعناه، والرجوع إلى أهل العلم الثقات في تفسير مدلولاته، كما لابد من التنبيه إلى أن السنة كلها وحي واجب التصديق ولا يصح ما ادعاه البعض من التفرقة بين المتواتر والآحاد في ثبوت العقائد، بل

كل حديث صححه العلماء وفقا لقواعد علم الحديث وأحكام علمائه وجهابذته المتخصصين وتلقوه بالقبول فالواجب قبوله وتصديق ما تضمنه من حقائق.

٢- المقصد الأساسي من معرفة أشراط الساعة وفتن آخر الزمان ـ إضافة إلى جانب الإيمان بالغيب وتصديق الخبر ـ هو التهيؤ وحسن الاستعداد والحذر من الفتن والبعد عن مظانها، وما سوى ذلك فضول وخوض فيما لا طائل من ورائه.

ومن المقرر شرعا أن العلم لا يراد به المعرفة النظرية المجردة، أو الترف المعرفي الذي لا يترتب عليه عمل، وإنما المقصود من العلم هو العمل، وكل علم لم يثمر عملا فلا خير فيه، وهو حجة على صاحبه في الآخرة وكان النبي ﷺ يستعيذ بالله من علم لا ينفع فيقول: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها**»(١).

٣- الواجب على كل مسلم هو الاقتصار على ما ورد في النصوص دون زيادة أو نقصان وعدم السؤال عما لا فائدة من ورائه، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على ذم السؤال إذا لم تدع إليه حاجة، أو تترتب عليها فائدة، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١]. وقال ﷺ: «**دعوني ما تركتكم، إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»(١)، وقال ﷺ: «**إن الله كره لكم ثلاثا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**»(٢) كذلك أخبر النبي ﷺ أن: «**أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته**»(٣).

وكان من هديه ﷺ إذا سأل بعض السائلين عن شيء مما لا فائدة من ورائه، تأتي الإجابة لتوجه مسار السؤال إلى جانب آخر، نافع ومفيد في المعاش والمعاد. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]. وحينما جاء رجل إلى النبي ﷺ وسأله متى الساعة قال له: «**ماذا أعددت لها**»(٤).

٤- من الخطأ البين ما وقع فيه البعض من تفسير أشراط الساعة وفتن آخر الزمان بعقولهم أو تنزيل بعض أحداثها على واقع معين أو أشخاص بعينهم، أو تحديد تاريخ معين لظهور بعض الأشراط الكبرى كالمهدي أو الدجال أو قيام الساعة، وقد أدى هذا الأمر إلى خلل كبير وفساد عظيم كما كثرت دعاوى المهدية من الجهال والمضلين، وأحدثت في الأمة من الضرر

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧).

(٢) رواه البخاري (١٤٧٧) ومسلم (١٧١٥).

(٣) رواه البخاري (٧٢٨٩) ومسلم (٢٣٥٨).

(٤) رواه البخاري (٣٦٨٨) ومسلم (٢٦٣٩).

ما لا يعلمه إلا الله.

٥- لابد أن ينتبه المسلم إلى الفرق بين الحكم القدري والحكم الشرعي، وألا يحدث لديه تعارض أو إشكال في الجمع بينهما، فتفرق الأمة مثلا حقيقة قدرية واقعة، لكن السعي لتوحيد الكلمة واجتماع الصف واجب شرعي لا يسقط مطلقا، وكذلك الحال حينما يقرأ المسلم أحاديث الفتن في آخر الزمان وما فيها من إخبار عن انتشار المعاصي والفساد وكثرة الهرج والزنا وقبض العلم وشيوع الجهل فذلك كله من قبيل الأحكام القدرية والتي لا تتنافى مع الالتزام بالأحكام الشرعية الآمرة بتحصيل العلم وتزكية النفس والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٦- ويتصل بالأمر السابق ضرورة البعد عن الوقوع في حالة اليأس أو التشاؤم أو الإحباط أو أن يركن المسلم إلى السلبية وانتظار ما يأتي دون سعي منه أو عمل صالح يغير من حال الأمة ولعل أعظم رد على المتشائمين أو القاعدين أو اللامبالين انتظارًا لظهور المهدي أو نزول عيسى عليه السلام أو قيام الخلافة في آخر الزمان هو قوله ﷺ: «**إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل**»(١).

القيامة الكبرى وأسماؤها:

وقد سمى الله ذلك اليوم الذي يحل فيه الدمار بهذا العالم، ثم يعقبه فيه البعث والنشور للجزاء والحساب بأسماء كثيرة منها يوم القيامة، واليوم

(١) رواه أحمد (١٢٥١٢) وصححه الألباني في الصحيحة حديث رقم (٩).

الآخر، والغاشية، والقارعة، والحاقة والصاخة، والطامة الكبرى، ويوم الحسرة، ويوم الدين، ويوم الآزفة، ويوم الفصل، ويوم الوعيد، ويوم التغابن، وغير ذلك من الأسماء والتي لكل اسم منها دلالته على حدث من أحداث يوم القيامة وأهواله وأوصافه، والسر في كثرة أسماء يوم القيامة أن: «كل ما عظم شأنه تعددت صفاته، وكثرت أسماؤه، وهذا مهيع كلام العرب، ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه وتأكد نفعه لديهم وموقعه، جمعوا له خمسمائة اسم، وله نظائر فالقيامة لما عظم أمرها وكثرت أهوالها، سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة، ووصفها بأوصاف كثيرة»(١).

ويشتمل يوم القيامة على عدد من الأمور العظيمة نوجزها فيما يلي:

النفخ في الصور:

والصور في لغة العرب هو القَرْن، والنَافخ في الصُّور هو إسرافيل عليه السلام، وهو مستعد دائمًا للنفخ فيه منذ أن خلقه الله تعالى بل إنه قد التقم القرن بالفعل وأصغى سمعه منتظرا الأمر من الله كما قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم، وقد التقم صاحب القرنِ القرنَ، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ، فينفخ**». قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: «**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله ربنا**»(٢).

واليَوم الذي تكون فيه النفخة وتقوم الساعة هو يوم الجمعة،، فعن

(١) القرطبي: التذكرة ١/ ٢٤٠.

(٢) رواه الترمذي (٢٤٣١).

أوس بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصَّعْقَة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليَّ**»(١).

وأما عدد النفخات في الصور فقيل: إنهما اثنتان وقيل ثلاث وعلى القول بأنهما اثنتان فالنفخة الأولى يحصل بها الصعق، والثانية يحصل بها البعث، قال تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].وقد سمى القرآن النفخة الأولى بالراجفة، والنفخة الثانية بالرادفة، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦-٧].وفي موضع آخر سمى الأولى بالصيحة، وصرح بالنفخ بالصور في الثانية، قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ٤٩ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ٥٠ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٤٩-٥١].

البعـث:

والبعث هو إحياء الله الموتى وإخراجهم من قبورهم، حيث يجمع الله سبحانه أجساد المقبورين التي تحللت، ويعيدها بقدرته كما كانت، ثم يعيد الأرواح إليها ويسوقهم إلى محشرهم لفصل القضاء. قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وعن حذيفة –رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

(١) رواه النسائي (١٣٧٤) وأبو داود (١٠٤٧).

أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن رجلًا حضره الموت لما أيس من الحياة أوصى أهله: إذا مت فاجمعوا لي حطبًا كثيرًا ثم أوروا نارًا حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فخذوها فاطحنوها فذروني في اليم في يوم حار ـ أو راح ـ فجمعه الله فقال: لم فعلت؟ قال: خشيتك، فغفر له**»(١) فدلت الآية والأحاديث على أن الله تعالى يعيد الأجساد نفسها ويجمع رفاتها المتحلل حتى تعود كما كانت فيعيد إليها أرواحها فسبحان من لا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير.

وقد جاء في السنة بيان كيفية البعث وأن الله ينزل إلى الأرض ماءً فينبت به أهل القبور كما ينبت العشب وقد دل على ذلك حديث أبي هريرة الذي أخرجه الشيخان: أن رسول الله ﷺ قال: «**ما بين النفختين أربعون**» قال: أربعون يومًا. قال: أبَيْت، قال: أربعون شهرًا؟ قال: أبيت، قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قال: «**ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا، وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»(٢).

أدلة البعث من الكتاب والسنة والنظر:

وقد دَلّ الكتابُ والسنة على بعث الله تعالى للأموات وجاء تقريره في مواطن كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿ثُمَّ

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٩).

(٢) رواه البخاري (٤٩٣٥) ومسلم (٢٩٥٥).

بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

ومن السنة حديث أبي هريرة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تفضلوا بين أنبياء الله فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله قال: ثم ينفخ فيه مرة أخرى فأكون أول من بعث أو في أول من بعث فإذا موسى آخذ بالعرش**»(١) وفي حديث أبي سعيد الخدري -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين: «**فأكون أول من تنشق عنه الأرض**». فدل الحديثان على بعث الله تعالى للأموات يوم القيامة من قبورهم إلى أرض المحشر، وفيهما فضيلة للنبي ﷺ لكونه أول من يبعث.

كذلك يدل النظر الصحيح على تقرير البعث وذلك أن البعث هو إعادة للخلق ومعلوم لكل عاقل أن الإعادة للشيء أهون من إنشائه وابتدائه، ولهذا بين الله تعالى في كتابه مقررًا للبعث ووقوعه ببداء خلق الإنسان ونشأته الأولى وبأن القادر على الابتداء قادر على الإعادة من باب أولى، فقال المعترض على البعث كما حكى الله عنه: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ [الروم: ٢٧]. فهذا دليل شرعي عقلي من كتاب الله للرد على كل

---

(١) رواه البخاري (٣٤١٥) ومسلم (٢٣٧٣).

معاند مكذب بالبعث، وهو دليل لا يستطاع رده.

الحشر:

وقد دلت النصوص على حشر العباد بعد بعثهم إلى أرض المحشر حفاة عراة غرلا كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلا**» قلت: يا رسول الله! النساء والرجال جميعًا، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال ﷺ: «**يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض**»(١).

والأرض التي يحشر العباد عليها في يوم القيامة أرض أخرى غير هذه الأرض، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. وقد حدثنا الرسول ﷺ عن صفة هذه الأرض الجديدة التي يكون عليها الحشر، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقُرْصة النَّقِيِّ**» قال سهل أو غيره: «ليس فيها معلم لأحد»(٢).

الحساب:

---

(١) رواه البخاري (٦٥٢٧) ومسلم (٢٨٥٩).

(٢) رواه البخاري (٦٥٢١) ومسلم (٢٧٩٠).

والحساب هو تعريف الله سبحانه الخلائق مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم بما قد نسوه حيث يُوقف الحق تبارك وتعالى عباده بين يديه، ويعرفهم بأعمالهم التي عملوها، وما كانوا عليه في حياتهم الدنيا من إيمان وكفر، واستقامة وانحراف، وطاعة وعصيان، وما يستحقونه على ما قدموه من إثابة وعقوبة، وإيتاء العباد كتبهم بأيمانهم إن كانوا صالحين، وبشمائلهم إن كانوا طالحين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ﴾ [المجادلة: ٦]. وقال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] وقال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ويشمل الحساب ما يقوله الله لعباده، وما يقولونه له، وما يقيمه عليهم من حجج وبراهين وشهادة الشهود ووزن للأعمال، والحساب منه العسير، ومنه اليسير، ومنه التكريم، ومنه التوبيخ، والتبكيت، ومنه الفضل والصفح، ومتولي ذلك أكرم الأكرمين سبحانه وتعالى.

وموقف الحساب موقف جليل تحضره ملائكة الرحمن بكتب الأعمال التي أحصت على الخلق أعمالهم وتصرفاتهم وأقوالهم، ليكون حجة على العباد، وهو كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا

ﭐلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٤٩].

ويجاء في موقف القضاء والحساب بالرسل، ويسألون عن الأمانة التي حمَّلهم الله إياها، وهي إبلاغ وحي الله إلى من أرسلوا إليهم، ويشهدون على أقوامهم ما علموه منهم، ويقوم الأشهاد في ذلك اليوم العظيم فيشهدون على الخلائق بما كان منهم، والأشهاد هم الملائكة الذين كانوا يسجلون على المرء أعماله، ويشهد أيضًا الأنبياء والعلماء كما تشهد على العباد الأرض والسماء والليالي والأيام والأعضاء.

ويؤتى بالعباد لمحاسبتهم، ويقامون صفوفًا للعرض على رب العباد ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا ﴾ [الكهف: ٤٨]، ويؤتى بالمجرمين منهم وهم الذين كذبوا الرسل، وتمردوا على ربهم، واستعلوا في الأرض مقرنين في الأصفاد، مسربلين بالقطران، ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٖ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [إبراهيم: ٤٩-٥١]، ولشدة الهول تجثو الأمم على الركب عندما يدعى الناس للحساب لعظم ما يشاهدون، وما هم فيه واقعون ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٨].

ويتفاوت العباد في حسابهم تفاوتا عظيما، فبعض العباد يكون حسابهم عسيرًا، وهؤلاء هم الكفرة المجرمون الذين أشركوا بالله ما لمن ينزل به

سلطانًا، وتمردوا على شرع الله، وكذبوا بالرسل، وبعض عصاة الموحدين قد يطول حسابهم ويعسر بسبب كثرة الذنوب وعظمها.

وبعض العباد يدخلون الجنة بغير حساب، وهم فئة قليلة لا يجاوزون السبعين ألفًا، وهم الصفوة من هذه الأمة، والقمم الشامخة في الإيمان والتقى والصلاح والجهاد، وبعض العباد يحاسبون حسابًا يسيرًا، وهؤلاء لا يناقشون الحساب، أي لا يدقق، ولا يحقق معهم، وإنما تعرض عليهم ذنوبهم ثم يتجاوز لهم عنها، وهذا معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-٨]، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك**»، فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-٨]، فقال رسول الله ﷺ: «**إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا هلك**»(١).

تطاير الصحف:

وفي ختام مشهد الحساب يعطى كل عبد كتابه المشتمل على سجل كامل لأعماله التي عملها في الحياة الدنيا، وتختلف الطريقة التي يؤتى بها العباد كتبهم، فأما المؤمن فإنه يؤتى كتابه بيمينه من أمامه فيحاسب حسابًا يسيرًا، وينقلب إلى أهله في الجنة مسرورًا ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾

---

(١) رواه البخاري (٦٥٣٧) ومسلم (٢٨٧٦).

﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ [الانشقاق: ٧-٩]، وإذا اطلع المؤمن على ما تحويه صحيفته من التوحيد وصالح الأعمال سر واستبشر، وأعلن هذا السرور، ورفع به صوته، ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ٢٣ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٤].

وأما الكافر والمنافق وأهل الضلال فإنهم يؤتون كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم، وعند ذلك يدعو الكافر بالويل والثبور، وعظائم الأمور ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٠-١٢] ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ٢٧ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٢٥-٣١] وعندما يعطى العباد كتبهم يقال لهم: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

الميـــزان:

وهو ميزان حقيقي له لسان وكفتان، توزن فيه أعمال العباد فيرجح بمثقال ذرة من خير أو شر وقد دلت الأدلة من الكتاب والسنة على ثبوت الميزان، وقد دلت النصوص على وجود الميزان وأنه من الدقة بحيث لا يزيد ولا ينقص شيئًا ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ

وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القَارعة: ٦-٩].

والذي يوزن في الميزان أمور ثلاثة، دلت عليها النصوص وهي:

١ - الأعمال، فقد ثبت أنها تجسم وتوزن في الميزان ودل عليه قوله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**»(١).

٢- صحف الأعمال، وقد دل على ذلك حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تَسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم عليك اليوم فتخرج له بطاقة فيها: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فيقول: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل شيء بسم الله**

(١) رواه البخاري (٦٤٠٦) ومسلم (٢٦٩٤).

الرحمن الرحيم»(١).

٣ - العامل نفسه، وقد دل على وزنه قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، وكذلك قوله ﷺ عن ساقي عبد الله بن مسعود: إنهما في الميزان أثقل من أحد(٢).

الحـــوض:

وهو مورد عظيم أعطاه الله لنبينا محمد ﷺ في المحشر يرده هو وأمته، وقد دل على ثبوت الحوض وأنه حق كثير من الأحاديث الصحيحة ذكر بعض المحققين أنها تبلغ حد التواتر ورواها عن النبي ﷺ بضعة وثلاثون صحابيًّا. منها حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**إن قدر حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء**»(٣) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**حوضي مسيرة شهر وزواياه سواء ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء من يشرب منها فلا يظمأ أبدًا**»(٤).

والحوض يكون في أرض المحشر ويمد ماؤه من الكوثر وهو نهر آخر أعطاه الله لنبينا ﷺ في الجنة قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٣٩) وابن ماجه (٤٣٠٠).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣٩٨١).

(٣) رواه البخاري (٦٥٨٠) ومسلم (٢٣٠٣).

(٤) رواه البخاري (٦٥٧٩) ومسلم (٢٢٩٢).

١]، وقد اختلف أهل العلم في الميزان والحوض أيهما يكون قبل الآخر فقيل الميزان قبل، وقيل: الحوض. والصحيح أن الحوض قبل، قال القرطبي: والمعنى يقتضيه فإن الناس يخرجون عطاشا من قبورهم.

الصراط:

وهو جسر ممدود على متن جهنم يرده الأولون والآخرون، وهو طريق أهل المحشر لدخول الجنة. وقد دلت الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات الصراط، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢] وقد ذهب أكثر المفسرين أن المقصود بورود النار هنا: المرور على الصراط، وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو حديث طويل في الرؤية والشفاعة وفيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: (...: «**ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم**» قلنا يا رسول الله وما الجسر؟ قال: «**مدحضة مزلة، عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها السعدان، يمر المؤمن عليها كالطرف وكالبرق، وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم وناج مخدوش ومكدوس في نار جهنم يمر آخرهم يسحب سحبا**»(١).

وقد جاء وصف الصراط في نصوص كثيرة، وملخص ما جاء فيها أنه أدق من الشعر وأحد من السيف دحض مزلة لا تثبت عليه قدم إلا من ثبته

---

(١) رواه البخاري (٧٤٤٠) ومسلم (١٨٢).

الله، وأنه ينصب في ظلمة فيعطى الناس أنوارًا على قدر إيمانهم ويمرون فوقه على قدر إيمانهم.

الشفاعة:

والشفاعة في اللغة هي الوسيلة والطلب، وفي الاصطلاح: سؤال الخير للغير، والشفاعة عند الله: سؤال الله التجاوز عن الذنوب والآثام للغير. وحقيقتها أن الله تعالى بلطفه وكرمه يأذن يوم القيامة لبعض الصالحين من خلقه من الملائكة والمرسلين والمؤمنين أن يشفعوا عنده في بعض أصحاب الذنوب من أهل التوحيد إظهارًا لكرامة الشافعين عنده ورحمة بالمشفوع فيهم.

ولا تصح الشفاعة عند الله تعالى إلا بشرطين:

أحدهما: إذن الله تعالى للشافع أن يشفع، وقد دل على هذا الشرط قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [سبأ: ٢٣].

الثاني: رضا الله عن المشفوع له أن يشفع فيه، وقد دل على هذا الشرط قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وقد دلت النصوص أن الله لا يرضى أن يشفع إلا في أهل التوحيد لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا**»(١) وقال

(١) رواه البخاري (٦٣٠٤) ومسلم (١٩٩).

تعالى في الكفار: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

والأحاديث في إثبات الشفاعة كثيرة جدًا وقد صرح الأئمة المحققون بتواترها واشتهارها في كتب الصحاح والمسانيد. ففي الصحيحين: «**يُخرج من النار من كان في قلبه حبة من خردل من إيمان**»(١).

أقسام الشفاعة:

والشفاعة تنقسم من حيث القبول والرد إلى قسمين: مقبولة وهي ما تحققت فيها شروط الشفاعة ومردودة وهي ما فقدت أحد شروط الشفاعة السابقة، وقد ثبت لنبينا محمد ﷺ الكثير من أنواعها ومن ذلك:

١ - الشفاعة العظمى، وهي شفاعته ﷺ في أهل الموقف أن يقضي الله بينهم وهي المقام المحمود وهذه الشفاعة مما اختص بها نبينا ﷺ على غيره من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين.

٢ - شفاعته ﷺ في قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع فيهم أن يدخلوا الجنة.

٣ - شفاعته في أقوام استحقوا النار ألا يدخلوها.

٤ - شفاعته ﷺ في رفع درجات أهل الجنة في الجنة.

٥ - شفاعته ﷺ في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب.

٦ - شفاعته ﷺ في تخفيف العذاب عمن كان يستحقه كشفاعته في عمه أبي طالب.

(١) رواه البخاري (٢٢) ومسلم (١٨٤).

٧ – شفاعته ﷺ في أهل الجنة أن يؤذن لهم بدخول الجنة.

٨ – شفاعته ﷺ في أهل الكبائر من أمته ممن دخل النار أن يخرج منها.

وقد دلت النصوص الصحيحة على هذه الأنواع كلها وهي مبسوطة في مواضعها من كتب السنة والاعتقاد. وهذه الأنواع منها ما هو خاص بالنبي ﷺ كالشفاعة العظمى وشفاعته في عمه أبي طالب وشفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها ومنها ما يشاركه فيها غيره من الأنبياء والصالحين كالشفاعة في أهل الكبائر وغيرها من الأنواع الأخرى.

المعاني العملية والتربوية المترتبة على إيمان المسلم بالأمور الأخروية السابقة:

ولعل من الضروري أن نشير إلى أن الواجب على المؤمن ألا يتعامل مع الحقائق السابقة على أنها مجرد أمور غيبية وردت بها النصوص الشرعية ويجب التصديق الجازم بها فحسب، بل يتعين عليه أن يقرن بذلك جانبا عمليا مهما وهو السعي لمعرفة الأمور والأفعال التي تنجيه من تلك الأهوال وتيسر نجاته من عذاب القبر ومروره على الصراط وترزقه ثقل ميزانه ونوال الشفاعة والشرب من حوض النبي ﷺ.

ومن فضل الله على عباده أن الكتاب والسنة حافلان بالدلالة على تفاصيل تلك الأعمال، ومن ذلك ما يلي:

١ – الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور على قسمين: فهناك سبب مجمل وأسباب مفصّلة، أمّا السبب المجمل الذي يعذب من أجله العصاة في القبور فهو جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم معاصيه، وأما الأسباب المفصلة فإن النصوص ذكرت منها الكثير، ومن ذلك عدم الاستتار من البول والسعي بين الناس بالنميمة والكذب، وغلول الغنائم

وهجر القرآن، والزنا، والربا.

وأما الذي ينجي المرء من عذاب القبر فأن يكون مستعدًا للموت، مشمرًا له، حتى إذا فاجأه الموت لم يعض أصْبعَ الندم، ومن الاستعداد للموت الإسراع في التوبة، وقضاء الحقوق، والإكثار من الأعمال الصالحة، فإن الإيمان والصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد وبر الوالدين وصلة الأرحام وذكر الله عز وجل وغيرها من صالح الأعمال التي تنجي المؤمن في الدنيا والآخرة.

٢- والميزان إنما يثقل أو يخف بأعمال العبد وحسناته وسيئاته، وقد أخبرنا ﷺ ببعض الأعمال الثقيلة في الميزان، ومن ذلك حسن الخلق حيث قال ﷺ قال: «**إن أثقل شيء يوضع في ميزان العبد يوم القيامة خلق حسن**»(١) كذلك يعد الذكر ولا سيما التسبيح والتحميد من أعظم ما تثقل به الموازين وقد قال ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»(٢) وفي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأان** (أو تملأ) **ما بين السماء والأرض**»(٣).

٣- وثمة أعمال كثيرة من عملها نال شفاعة النبي ﷺ أو شفاعة المؤمنين وفي مقدمتها الإخلاص في التوحيد حيث سئل ﷺ عن أسعد

---

(١) رواه أحمد (٢٦٢٧٥)و الترمذي (١٩٢٥).

(٢) رواه البخاري (٥٩٢٧) ومسلم (٤٨٦٠).

(٣) رواه مسلم (٣٢٨).

الناس بشفاعته يوم القيامة فقال: «**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو نفسه**»(١).

ومن أسباب نوال الشفاعة أيضًا قراءة القرآن ولاسيما البقرة وآل عمران حيث قال ﷺ: «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه اقرؤوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما**»(٢).

ومن الأسباب أيضًا سكنى المدينة والصبر على ذلك والموت بها حيث قال ﷺ: «**لا يصبر أحد على لأوائها فيموت إلا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة إذا كان مسلما**»(٣) ومنها أيضًا سؤال الوسيلة للنبي ﷺ بعد سماع الأذان حيث قال رسول الله ﷺ: «**من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة**»(٤) ومنها أيضًا صلاة جمع من المسلمين يبلغون أربعين على الميت كما قال ﷺ: «**ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئًا إلا شفعهم الله فيه**»(٥).

---

(١) رواه البخاري (٩٧).

(٢) رواه مسلم (١٣٣٧).

(٣) رواه مسلم (٢٤٤١).

(٤) رواه البخاري (٥٧٩) ومسلم (٥٧٧).

(٥) رواه مسلم (٩٤٨).

٤ – أما الحريص على الشرب من حوضه ﷺ فلعل أهم ما يجب عليه اتباع سنته والاقتداء بهديه والحذر من الابتداع والإحداث في الدنيا، وقد أخبر ﷺ أن أقواما يذادون عن الحوض لأنهم أحدثوا وبدلوا فقال: «**ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال أناديهم ألا هلم فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك فأقول: سحقا سحقا**»[(١)].

الجنة والنار[(٢)]:

والجنة هي دار الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذي أعده الله لأوليائه وأهل طاعته، وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص، ولا يعكر صفوه كدر، وما حدثنا الله به عنها، وما أخبرنا به الرسول ﷺ يحير العقل ويذهله، لأن تصور عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه كما في الحديث القدسي الذي رواه الشيخان: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[(٣)] ثم قال الرسول ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]».

وتظهر عظمة النعيم بمقارنته بمتاع الدنيا، فإن متاع الدنيا بجانب نعيم الآخرة تافه حقير، لا يساوي شيئًا. ففي صحيح البخاري عن سهل بن سعد

---

(١) رواه مسلم (٣٦٧).

(٢) وانظر في الكلام عن الجنة تفصيلا كتاب ابن القيم حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح وفي الكلام عن النار انظر كتاب ابن رجب الحنبلي التخويف من النار.

(٣) رواه البخاري (٣٢٤٤) ومسلم (٢٨٢٤).

الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «**موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**». ولذا كان دخول الجنة والنجاة من النار في حكم الله وتقديره هو الفلاح العظيم، والفوز الكبير، والنجاة العظمى قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]

ومع تنوع نعيم أهل الجنة وكثرته فإن أعظم ما يُعطاه أهل الجنة رضوان الله والنظر إلى وجهه الكريم فعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير كله في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»(١).

ورؤية الله هي الغاية القصوى في نعيم الآخرة، والدرجة العلا من عطايا الله الفاخرة وقد صرح الحق تبارك وتعالى برؤية العباد لربهم في جنات النعيم ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، والكفار والمشركون يحرمون من هذا النعيم العظيم، والتكرمة الباهرة: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، والنظر إلى وجه الله تعالى هو من المزيد الذي وعد الله به المحسنين ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] وقال سبحانه:

---

(١) رواه البخاري (٦٥٤٩) ومسلم (٢٨٢٩).

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦]، وقد فسرت الحسنى بالجنة، والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم، يشير إلى هذا الحديث الذي رواه مسلم وذكرناه قبل قليل.

ورؤية الله في الجنة رؤية حقيقية، لا كما تزعم بعض الفرق التي نفت رؤية الله تعالى بمقاييس عقلية باطلة، وتحريفات لفظية جائرة، قال الطحاوي رحمه الله: «والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما جاء في ذلك الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سَلِم في دينه إلا من سلّم لله عز وجل ولرسوله ﷺ. وردّ علم ما اشتبه عليه إلى عالمه».

وأما النار فهي الدار التي أعدها الله للكافرين به، المتمردين على شرعه، المكذبين لرسله، وهي عذابه الذي يعذب فيه أعداءه، وسجنه الذي يسجن فيه المجرمين وهي الخزي الأكبر، والخسران العظيم، الذي لا خزي فوقه، ولا خسران أعظم منه كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

والنار هي دار العقاب الأبدي للكافرين والمشركين والمنافقين النفاق الاعتقادي، ولمن شاء الله من عصاة الموحدين بقدر ذنوبهم ثم مآلهم إلى

الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] وللنار دركات بعضها أسفل من بعض، وأسفل الدركات هي دار المنافقين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، وللنار سبعة أبواب، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]، ونار الدنيا جزء من سبعين جزءا من نار جهنم على ما جاء في حديث أبي هريرة الذيَ أخرجه الشيخان عن النبي ﷺ قال: «**ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم**»[١].

والإيمان بالجنة والنار يتحقق بثلاثة أمور:

الأول: الاعتقاد الجازم بأنهما حق وأن الجنة دار المتقين والنار دار الكافرين والمنافقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ [النساء: ٥٦، ٥٧].

الثاني: اعتقاد وجودهما الآن، قال تعالى في الجنة ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى في النار: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، وجاء في الصحيحين من حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال: «**اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر**

(١) رواه البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣).

أهلها النساء».

الثالث: اعتقاد دوامهما وبقائهما وأنهما لا تفنيان ولا يفنى من فيهما، قال تعالى في الجنة ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]، وقال تعالى عن النار: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]. والمقصود من المعصية هنا الكفر، لتأكيد الخلود في النار بالتأبيد، وروى الشيخان من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**يدخل الله أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت كل خالد فيما هو فيه**»(١).

❊ ❊ ❊

(١) رواه البخاري (٦٥٤٤) ومسلم (٢٨٥٠).

الأصل السادس: الإيمان بالقضاء والقدر

والإيمان بالقضاء والقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان وأصول الاعتقاد، التي لا يصح إيمان المكلف ولا يقبل إلا إذا أتى به على الوجه الصحيح الموافق للكتاب والسنة، بعيدا عن الإفراط أو التفريط اللذين وقعت فيهما الفرق والمذاهب الكلامية المختلفة، التي عولت على بعض النصوص الموافقة لرأيها، وتعسفت في رد أو تأويل النصوص الأخرى.

مفهوم القضاء والقدر:

يراد بالقضاء والقدر اصطلاحا: تقدير الله تعالى الأشياء في القدم، وعلمه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، وكتابته سبحانه لذلك، ومشيئته له، ووقوعها على حسب ما قدرها، وخلقه لها.

أدلة وجوب الإيمان بالقضاء والقدر:

وقد تضافرت الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، واعتباره أصلا مهما من أصول الإيمان، ومن أدلة القرآن في ذكر القدر والتقدير قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا

مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] وقوله تعالى ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان: ٢] ومن الآيات في ذكر القضاء قول الله سبحانه: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].

وأما أدلة السنة فهي كثيرة جدا، وقلما يخلو كتاب من الكتب المصنفة في الحديث النبوي من عقد فصول أو أبواب لذكر أحاديث القدر، سواء كان ذلك تحت باب مستقل للكلام عن القدر، كما هو الحال في صحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي، أو كان ضمن الأبواب والفصول المختلفة كما هو الحال في سائر كتب السنن ومن أشهر الأحاديث في هذا الباب، حديث جبريل الذي تقدم معنا مرارا وفيه قال ﷺ: «**وتؤمن بالقدر خيره وشره**» وقال ﷺ: «**كل شيء بقدر، حتى العجز والكَيْس**»[(١)] وقال ﷺ: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت**

(١) رواه مسلم (٢٦٥٥) وأحمد (٥٨٥٩ والعجز كما قال النووي رحمه الله: هو عدم القدرة، وقيل: هو ترك ما يجب فعله والتسويف به وتأخيره عن وقته، والكيس ضد العجز وهو النشاط والحذق بالأمور.

(٢) رواه الترمذي (٢١٤٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٣٩) وفي صحيح الجامع (٧٥٨٥).

كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[١] كما حذر ﷺ من التكذيب بالقدر، ونفى الإيمان عمن فعل ذلك فقال: «**لا يدخل الجنة عاق، ولا مؤمن بسحر، ولا مدمن خمر، ولا مكذب بقدر**»[٢].

وأما الإجماع فقد اتفقت كلمة أهل العلم جميعا – سلفا وخلفا – على إثبات قضاء الله وقدره، ووجوب الإيمان به، والإنكار الشديد على من خالف أو شكك في شيء من ذلك، وكما يقول الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم: « فقد تظاهرت الأدلة القطعيات من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى»[٣].

مراتب الإيمان بالقضاء والقدر:

والإيمان بالقضاء والقدر يتضمن أربعة مراتب أو أركان، لا يتحقق إيمان المكلف إلا إذا أتى بها، ومن أقر بها جميعا فقد اكتمل إيمانه، ومن انتقص أو جحد واحدا منها أو أكثر فقد اختل إيمانه، وهذه المراتب هي:

أولا: مرتبة العلم:

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) وأحمد (٨٥٧٣، ٨٦١١) وابن ماجه (٧٩، ٤١٦٨).

(٢) رواه أحمد (٢٦٩٣٨) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٧٥) وانظر صحيح الجامع (٣٠٦٥).

(٣) النووي: شرح صحيح مسلم ١/ ١٥٥.

وهى أن يؤمن المكلف إيمانا جازما بأن الله تعالى بكل شي عليم، وأنه يعلم ما في السماوات والأرض جملة وتفصيلًا، سواء كان ذلك من فعله أو من فعل مخلوقاته، وأنه لا يخفى على الله شي في الأرض ولا في السماء، بل علمه محيط بكل شيء، وقد علم ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وعلم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم، وعلم أرزاقهم وآجالهم وحركاتهم وسكناتهم، ومن منهم من أهل الجنة، ومن منهم من أهل النار.

وقد تضافر على إثبات هذا الأصل العظيم ما لا يحصى من أدلة القرآن والسنة وبراهين العقول، ومن أدلة القرآن قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] كذلك أخبر الله سبحانه أنه يعلم الغيب والشهادة: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣] وأن علمه وسع كل شيء: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨] وأحاط بكل شيء علما: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢] ولا يغيب عنه مثقال ذرة: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

ثانيا: مرتبة الكتابة:

ويقصد بها أن الله تبارك وتعالى كتب عنده في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء، فكل ما جرى وما يجري فهو مكتوب عند الله في هذا الكتاب العظيم المسمى باللوح المحفوظ، والذي ما فرط من شيء وما ترك صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها وأحصاها.

وقد وردت الإشارة إلى مرتبة الكتابة في الكثير من الآيات والأحاديث ومنها قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] على القول بأن المراد بالكتاب هنا هو اللوح المحفوظ، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥] وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] كما جمع سبحانه بين ذكر مرتبتي العلم والكتابة في عدة مواضع من كتابه منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

والإيمان بكتابة الله سبحانه للمقادير يدخل فيه خمسة أنواع من التقادير:

أ- التقدير الأول: قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، عندما خلق الله تعالى القلم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١] وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال وعرشه على الماء**»(١).

ب- التقدير الثاني: حين أخذ الله الميثاق على بني آدم، وهم ما يزالون في ظهر أبيهم آدم عليه السلام، حيث استخرج سبحانه ذرية آدم جميعا، وأشهدهم على أنفسهم، وهذا الميثاق هو المشار إليه في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ج- التقدير الثالث: التقدير العمري وهو الذي يتم عند تخليق النطفة في الرحم فيكتب إذ ذاك ذكوريتها وأنوثتها، والأجل والعمل، والشقاوة والسعادة، والرزق وجميع ما يلقى الإنسان، فلا يزاد فيه ولا ينقص منه والدليل على هذا النوع من التقدير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] وقد ورد في السنة بيان مفصل لهذا النوع من التقدير فيما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله ابن مسعود -رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو

(١) رواه مسلم (٢٦٤٧).

الصادق المصدوق، قال: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا، فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح»(١).

د- التقدير الرابع: التقدير الحولي، وهو الذي يتم في ليلة القدر من كل عام حيث يقدر فيها كل ما يكون في السنة إلى مثله من العام المقبل، والدليل على هذا النوع من التقدير قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ [الدخان ١ – ٥].

هـ- التقدير الخامس: التقدير اليومي، وهو تقدير الله سبحانه لكل ما يحدث للعباد في كل يوم وليلة، وسوق المقادير إلى المواقيت التي قدرت لها فيما سبق ويدل على هذا التقدير قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩] وفي معنى هذا الآية روى ابن ماجه عن أبي الدرداء -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ قال: «**من شأنه أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويخفض آخرين**»(٢).

ثالثا: مرتبة المشيئة:

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٠٢) وابن حبان (٦٨٩) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه.

ويقصد بها الإيمان التام بمشيئة الله النافذة، وقدرنه التامة، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما وجد موجود وما عدم معدوم إلا بمشيئة الله تعالى ولا يمكن أن يقع شيء في السماوات ولا في الأرض إلا بمشيئة الله تعالى.

وقد تضافرت الآيات القرآنية في إثبات مشيئة الله تعالى في فعله، ومشيئته في فعل العباد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير ٢٨، ٢٩] وقوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]

رابعا: مرتبة الخلق:

ومعناها الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء في هذا الكون بأسره فهو خالق كل عامل وعمله، وكل متحرك وحركته، وكل ساكن وسكونه، وما من ذرة في السموات ولا في الأرض إلا والله سبحانه وتعالى خالقها، وخالق حركتها وسكونها، سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه، وحتى الموت ـ وهو عدم الحياة ـ فإن الله هو الذي يخلقه، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

وهذا الأمر متفق عليه بين الرسل صلى الله تعالى عليهم وسلم، وعليه أطبقت الكتب الإلهية والفطر والعقول والاعتبار، وآيات القرآن في هذا الباب يصعب حصرها، ومن ذلك إخباره سبحانه أنه خالق كل شيء، قال

تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾[الزمر: ٦٢] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الأنعام: ١٠٢] وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

والعباد وأفعالهم لا يخرجون عن العموم السابق، فالله سبحانه قد علم ما يفعله عباده، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، وهو سبحانه خالقهم وخالق أفعالهم، كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وهذه المرتبة وما قبلها – أي مرتبة المشيئة – هما محل النزاع بين أهل السنة وبين مخالفيهم من القدرية والجبرية، كما سنرى آنفا إن شاء الله تعالى.

خلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في باب القضاء والقدر:

ومذهب أهل السنة في باب القدر ــ وكذلك الحال في سائر أبواب العقيدة ــ يتميز بالوضوح والوسطية، والبعد عن غلو الجبرية وتفريط القدرية، والجمع بين سائر النصوص الواردة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله، التي تدل على علم الرب ومشيئته من جهة، واختيار العباد وقدرتهم على أفعالهم من جهة أخرى.

وأهل السنة ليسوا كالقدرية أو الجبرية ممن رأوا جزءا من الحقيقة وعموا عن الجزء الآخر منها وتمسكوا ببعض نصوص الكتاب وردوا أو

تأولوا البعض الآخر منها، وإنما هم بحمد الله يؤمنون بالكتاب كله، ويقبلون الحق الذي في كل مذهب، ويرفضون ويردون الباطل أيا كان قائله.

ومن ثم فهم يؤمنون بقدر الله سبحانه، وأنه قد علم كل ما كان وما سيكون وعلم أفعال العباد وتفاصيلها، وكتب ذلك كله في اللوح المحفوظ، ولا يحدث في الكون صغيرة ولا كبيرة إلا بمشيئته وإرادته، وكل ذلك مخلوق ومربوب له سبحانه.

وهم يؤمنون أيضًا أن للعباد قدرة وإرادة واختيارا، وأنهم فاعلون حقيقة لأفعالهم، وقادرون عليها، ومسؤولون مسؤولية كاملة عنها، وأن إنكار الاختيار نقص في العقل وخلل في الإدراك، وأن الأخذ بالأسباب فريضة شرعية وبديهة عقلية، وأن الله سبحانه وإن كان يريد المعاصي قدرا، فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها، بل يبغضها وينهى عنها.

الانحرافات والشبهات في باب القدر:

هناك انحرافات عديدة يقع فيها كثير من الناس في باب القدر، كما يخطر في ذهن بعضهم الكثير من الشبهات ومن نماذج تلك الانحرافات والشبهات ما يلي:

١- الاحتجاج بالقدر على الذنوب والمعائب، فهناك من يحتج بالقدر على المعائب، واستمراره على فعل المعاصي أو ترك الطاعات، فإذا قيل له مثلًا لِمَ لا تصلي؟ قال: ما أراد الله لي ذلك! وإذا قيل له: متى ستتوب؟ قال: إذا أراد الله لي ذلك!

ولا شك أن هذا خطأ وانحراف في الفهم، لأنه إن كان يقصد بالإرادة

هنا الإرادة الشرعية التي هي بمعنى المحبة فقد أعظم الفرية على الله؛ لأن الله عز وجل أحبَّ الطاعة ورضيها وأمر بها، وشرعها، وإن كان يقصد بها الإرادة الكونية التي هي بمعنى المشيئة، وأن الله لم يُقَدِّر له كذا وكذا من الطاعات، أو قدَّر له كذا وكذا من المعاصي، فهذا خطأ أيضًا ذلك أن قدر الله سر مكتوم، لا يعلمه أحد من الخلق إلا بعد وقوعه، وإرادة العبد سابقة لفعله؛ فتكون إرادته غير مبنية على علم بقدر الله؛ فادعاؤه مردود، واحتجاجه باطل؛ لأنه ادعاء لعلم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله؛ فحجَّته إذن داحضة؛ لأنه لا حجة للمرء فيما لا يعلم.

والغريب حقا أن المحتج بالقدر على الذنوب والمعاصي والتقصير في أمر الله لا يفعل الشيء نفسه في أمور دنياه ومصالح معيشته، وكان عليه لو كان متسقا مع مذهبه هذا ألا يأكل إذا جاع، وألا يشرب إذا عطش، وألا يتداوى إذا مرض، وألا يلوم من يؤذيه أو يأخذ حقه من البشر، لكن الواقع يشهد أن مثل هذا النوع من الناس لا يقصرون مثقال ذرة في حقوقهم الدنيوية، أما حقوق الله وواجباته دينه فهم أكثر الناس تقصيرا فيها احتجاجا بالقدر.

٢- يخطئ بعض الناس في فهم قضية الشر الموجود في العالم وهل ينسب إلى الله أم لا؟ وخلاصة موقف أهل السنة في هذه المسألة أن الشر لا ينسب إلى الله مباشرة، بل هو منفي عنه سبحانه كما في دعائه ﷺ: «**والشر ليس إليك**» وليس في أفعال الله شر محض، وإن كان الشر موجودا في بعض المفعولات، ومعنى ذلك أن الله لا يخلق شرا محضا لا خير متعلق به بأي

وجه من الوجوه، بل إنه تعالى عندما يقدر ويخلق شرا فإنه يخلقه ويقدره لما يترتب على ذلك من خير منفصل عنه يكون ذلك الشر سببا له.

ويتضح ذلك جليا إذا علمنا أن المرادات نوعان مراد لذاته، أي أراده الله لذاته لما به من الخير والهدى من الذوات كالأنبياء والملائكة والمؤمنين، ومن الأعمال كالإيمان والعمل الصالح، ومراد لغيره أراده الله لما يترتب على وجوده من مصالح غير مباشرة، وهذا النوع لا يضاف إلى الله مباشرة، وإنما يضاف بصيغة العموم كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر: ٦٢] وقوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢] وحديث: «**وتؤمن بالقدر خيره وشره**»، وإما أن يضاف إلى ما لم يسم فاعله كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠] ومن الأمثلة على المراد لغيره عند الإنسان شرب الدواء المر مع كراهيته له رغبة في الشفاء، وقطع العضو المتآكل من جسم الإنسان لما في ذلك من حفاظ على حياته وبقاء سائر الأعضاء الأخرى.

٣- ومن أخطر الانحرافات في باب القدر ترك بعض الناس الأخذ بالأسباب بحجة التوكل على الله والتسليم لقضائه وقدره، وأنه لا يقع في ملكه شيء إلا بمشيئته، وذلك كحال بعض الصوفية الذين يرون أن ترك الأخذ بالأسباب أعلى مقامات التوكل. فهذا الأمر مما عمت به البلوى، واشتدت به المحنة، سواء على مستوى الأفراد، أو على مستوى الأمة، حيث اختلط الأمر على كثير من المسلمين فجعلوا من الإيمان بالقضاء والقدر تكأةً للإخلاد إلى الأرض ومسوغًا لترك الحزم والجد والتفكير في

معالي الأمور، وسبل العزة والفلاح.

والحقيقة أن هذا خلل خطير، أوقع الأمة في هوة سحيقة من التخلف والانحطاط، وسبب لها تسلط الأعداء، وإلا فالأخذ بالأسباب لا ينافي الإيمان بالقدر، بل إنه من تمامه؛ فالله عز وجل أراد بنا أشياء، وأراد منا أشياء، فما أراده بنا طواه عنا، وما أراده منا أمرنا بالقيام به، فقد أراد منا حمل الدعوة إلى الكفار وإن كان يعلم أنهم لن يؤمنوا،، وأراد منا أن نكون أمة واحدة وإن كان يعلم أننا ستتفرق ونختلف، وأراد منا أن نكون أشداء على الكفار رحماء بيننا، وإن كان يعلم أن بأسنا سيكون بيننا شديدًا وهكذا فالخلط بين ما أريد بنا، وما أريد منا هو الذي يُلبس الأمر، ويوقع في المحذور ثم لا ريب أن الله عز وجل هو الفعال لما يريد، الخالق لكل شيء، الذي بيده ملكوت كل شيء، الذي له مقاليد السماوات والأرض، ولكنه تبارك وتعالى جعل لهذا الكون نواميس يسير عليها؛ وقوانين ينتظم بها، وإن كان سبحانه قادرًا على خرق هذه النواميس وتلك القوانين.

فالإيمان بأن الله قادر على نصر المؤمنين على الكافرين، لا يعني أنه سينصر المؤمنين وهم قاعدون عن الأخذ بالأسباب؛ لأن النصر بدون الأخذ بالأسباب مستحيل، وهو مناف لحكمةِ الله، وقدرته عز وجل، وليس معنى أن الله قادر على الشيء، أن الفرد أو الجماعة أو الأمة قادرة عليه؛ فقدرة الله صفة خاصة به، وقدرة العبد صفة خاصة به، فالخلط بين قدرة الله والإيمان بها، وقدرة العبد وقيامه بما أمره الله به هو الذي يحمل على القعود، وهو الذي يخدر الأمم والشعوب.

ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر على وجهه الصحيح:

ومن ثمرات الإيمان بالقدر ما يلي:

١ – أن يعرف الإنسان قدر نفسه وحقيقته، وأن يتيقن من محدودية قواه وقدراته وإمكاناته، ومن ثم فلا يبطر أو يفخر، ولا يتعالى أو يتكبر، فهو عبد مربوب لربه وخالقه، وناصيته ومقاليد أمره بيد الله، ولا يعلم المستقبل والغيب إلا العليم الخبير سبحانه، وإذا كان الإنسان اليوم قويا أو غنيا أو صحيحا، فلا يعلم ما يحمله الغد في طياته، ولا ما تأتي به المقادير إلا الله، وكم من قوي صار ضعيفا، وغني صار فقيرا، وصحيح صار سقيما.

وإذا ترسخت تلك الحقيقة في نفس الإنسان، فسوف يبرأ قلبه من العجب والغرور والاختيال ويتواضع لربه وللخلق، ويرى أن ما تحت يديه من نعم وآلاء فإنما هو من فضل الله ورحمته: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] وإذا فرح بشيء من ذلك فلكونه من فضل الله: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] كما يعلم أنه مستخلف في تلك النعم كي يؤدي حق الله فيها: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

٢- ومن ثمرات الإيمان بالقدر أنه ينجي المؤمن من الوقوع في الفتن وأسباب الضلال وسوء الخاتمة، إذ يجعله دائما على حذر من الانتكاس والرد على عقبيه بعد إذ هداه الله إلى الاستقامة والرشاد، لأنه يعلم أن قلوب العباد دائمة التقلب والتغير، وأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ولا شك أن حذره هذا سوف يثمر المجاهدة الدائمة على الاستقامة، والإكثار من الصالحات، ومجانبة المعاصي والموبقات، كما يبقى القلب معلقا بخالقه يدعوه ويرجوه ويستعينه، ويسأله الثبات على الحق والتسديد والرشاد.

٣- والإيمان بالقضاء والقدر يغرس في نفس المؤمن حقائق الإيمان المتعددة فهو دائم الاستعانة بالله والتوكل عليه، مع فعل الأسباب، وهو دائم الافتقار إلى ربه يستمد منه العون والثبات، وهو دائم الانكسار والذل لربه، لعلمه أن الخير كله في يديه والشر ليس إليه، وأنه إن وكل العبد لنفسه فقد خسر خسرانا مبينا.

كذلك فإن الإيمان بالقدر يثمر الكثير من أنواع العبادات الصالحة والصفات الحميدة، لاسيما ما تعلق منها بأعمال القلوب وتزكيتها، كالإخلاص لله، والخوف منه، والرجاء وإحسان الظن به، والصبر وقوة الاحتمال ومحاربة اليأس، والرضا بالله، وإفراد الله بالشكر والفرح بفضله ورحمته والتواضع لله عز وجل، وترك الكبر والخيلاء، ويثمر الإنفاق في أوجه الخير ثقة بالله، والشجاعة والإقدام، والقناعة وعزة النفس، وعلو الهمة، والحزم والجد في الأمور.

٤- والإيمان بالقدر يثمر الشجاعة والإقدام، والقدرة على مواجهة الصعاب والمخاطر بقلب ثابت ونفس أبية، لا تتهيب ولا تضعف، لأن العبد إذا آمن بأن كل ما يصيبه مكتوب، وآمن أن الأرزاق والآجال بيد الله، فإنه يقتحم الصعاب والأهوال بقلب شجاع وهامة مرفوعة، وكيف لا وهو يوقن أنه لن يصيب الإنسان إلا ما كتب له، سواء كان قاعدا في بيته، أو كان يتقلب في ساحات القتال من معركة إلى معركة، وكما قال سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقال سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

٥- والإيمان بالقدر يكسب صاحبه قوة الشكيمة ومضاء العزيمة، إذ من اطمأنت نفسه إلى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، خلت جميع أعماله من الحيرة والتردد وانتفى من حياته القلق والاضطراب، لأنه بمجرد أن يترجح لديه الإقدام على أمر ما فسوف يقدم عليه دون خوف ولا وجل ولا تهيب، ولن يحزن على ماض ولن يغتم لحاضر، ولعل من أحسن ما يعبر عن هذا المعنى ويوضحه قول النبي ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل**

الشيطان»(١).

٦- والمؤمنون بالقدر هم أزكى الناس خلقا، وأسلمهم قلبا، وأصفاهم نفسا في تعاملهم مع كافة الناس من حولهم، كما أن الإيمان بالقدر يقضي على كثير من الأمراض التي تعصف بالمجتمعات وتزرع الأحقاد بين المؤمنين، ومن ذلك مثلا رذيلة الحسد والحقد، وتمني زوال النعمة عن الآخرين، فالمؤمن لا ينظر بعين الحسد والحقد إلى من حباه الله بمنة أو نعمة، لأنه يعلم أن الله هو الذي رزقه وقدر له ذلك، وهو حينما يحسد غيره فإنما يعترض في الحقيقة على المقدور، كما قال الله سبحانه: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف: ٣٢] وقال سبحانه: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤].

٧- والإيمان بالقدر أعظم عصمة تقي المؤمن من الوهن والجزع، أو الحزن والاكتئاب عند حلول النوائب ونزول المصائب، لأن الإنسان عرضة دائمًا لأن تصيبه النوائب والأحداث، وهذه سنة الله في الأرض، ومن شأن المصائب أن تهز النفوس وتزلزل الأفئدة، وطبع الإنسان كما وصفه الله أنه يحب الخير لنفسه ويهلع ويجزع إن نزل به الشر، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ – ٢٢] ولكن التأثر بالأحداث شيء والوهن والجزع عند حلولها شيء آخر، وقد تأثر رسول الله ﷺ لفقد ولده إبراهيم،

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) وأحمد (٨٥٧٣، ٨٦١١) وابن ماجه (٧٩، ٤١٦٨).

ولكنه قال: «**إنَّ العَيْنَ لتَدْمَعُ، وإنَّ القَلْبَ ليَحْزَنُ، ولا نَقُوْلُ إلا ما يُرْضِي ربنا، وإنا عليك يا إبراهيمُ لمحزونون**»[١].

❊ ❊ ❊

(١) رواه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥).

القسم الثاني
العبادة في الإسلام

تعريف العبادة:

العبادة في اللغة:

أصل العبودية: الخضوع والتذلل، يُقال: طريق مُعبد، أي مذلل، ومنه سُمي العبد عبدًا لذله لمولاه[١] والعبادة: الطاعة[٢]، فالعبادة لغة: تتضمن معنى الخضوع، والذل، والإذعان والطاعة.

العبادة في الاصطلاح:

والعبادة في الاصطلاح تطلق ويراد بها أمران:

الأول: باعتبار حقيقة التعبد نفسه، ويقصد بها كمال الحب مع كمال الخضوع والذل لله سبحانه.

والثاني باعتبار المتعبد به، ومن أجمع تعريفاتها بهذا الإطلاق تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية بأنها: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[٣].

وبهذا المعنى تكون جميع أعمال المسلم إذا تحققت فيها شروط قبول

(١) ينظر: لسان العرب، ٣/ ٢٧١.

(٢) ينظر: القاموس المحيط، ١/ ٣٢٢.

(٣) العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص٣٨.

العمل، تكون عبادة لله تعالى، الباطنة منها: وهي أعمال القلوب: كالخشية، والخوف، والإنابة، وحب الله ورسوله، والأعمال الظاهرة: كالصلاة، والزكاة، والحج، وبر الوالدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين، بل ويتعدى ذلك إلى الإحسان إلى البهائم، وغيرها من العبادات الظاهرة والباطنة.

فالعبادة في الإسلام شاملة لجميع الأعمال والأقوال الباطنة والظاهرة التي يرضاها الله سبحانه وتعالى سواء كانت هذه الأعمال والأفعال من أعمال القلوب، أو من أعمال الجوارح وسواء كانت من الفرائض أو السنن والمستحبات أو من قبيل الآداب والأخلاق والمعاملات مع الناس.

مكانة العبادة في الإسلام:

عبادة الله تعالى وتوحيده بها هي الغاية التي خلق الله لأجلها الجن والإنس قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وعبادة الله تعالى وتوحيده هي المقصود الأعظم من إرسال الرسل وإنزال الكتب وكل رسول بعث بهذا الأصل العظيم ينادي بعبادة الله تعالى وتوحيده قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وكل رسول كان يقول لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ٥٩].

والعبادة هي العهد الذي أخذه الله على بني آدم قال تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

وإذا كانت عبادة الله تعالى وحده هي المقصود الأعظم من إرسال الرسل فهي عامة لجميع الخلق لا يستثنى أحد من عبادة الله تعالى حتى الرسل عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، وقد أمر الله نبيه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وقال تعالى مخبراً عن عيسى عليه السلام والملائكة: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا﴾ [النساء١٧٢].

ومع اصطفاء الله لهم وتبشيرهم بالجنة إلا أن ذلك لم يمنعهم من الاجتهاد في عبادة الله تعالى فقد كان عليه الصلاة والسلام يقوم الليل حتى تفطرت قدماه، وهذا بخلاف من زعم أن العبادة تنتهي عند بلوغ درجة اليقين ممن انحرف من مدعي الصلاح من غلاة الصوفية ممن زعموا بأن التكاليف الشرعية قد رفعت عنهم فلا يؤدونها كما يؤديها سائر المسلمين.

شروط العبادة في الإسلام:

ذكر العلماء شرطين لقبول العبادة في الإسلام سواء كانت من العبادات الباطنة أو الظاهرة، متى تحققا كان العمل مقبولًا، وإذا انتفى الشرطان أو أحدهما لم يكن العمل مقبولًا وهما: الإخلاص لله تعالى، والموافقة والمتابعة لما شرعه الله عز وجل ومتابعة هدي النبي ﷺ(١).

وقد جاءت النصوص الكثيرة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ تؤكد على هذين الأصلين، فإخلاص العبادة لله تعالى، وصدق التوجه إليه، وخلوص النية والعمل من الرياء أو قصد غير الله تعالى هو أصل الدين. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣].

وقد بيَّن النبي ﷺ أن إخلاص العمل لله تعالى والصدق في النية عليه مدار قبول الأعمال وصلاحها، ففي الحديث يقول ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امريء ما نوى...**»(٢) الحديث.

وأمر الله جل وعلا بإخلاص العبادة لله تعالى، ونهى عن الشرك، قال

---

(١) العبودية، ص٧٤.

(٢) رواه البخاري، حديث رقم (١).

تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وأما شرط المتابعة والموافقة لشرع الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ، فيقصد به أن تكون العبادة مأذونًا بها في شرع الله تعالى وعلى الكيفية التي أمر الله بها وارتضاها، وهذا مقتضى القول بأن العبادات توقيفية كما ذكر العلماء بمعنى أن تكون على ما شرع الله وعلى هدي سنة نبينا محمد ﷺ، ولا عبرة بالعبادة إذا انتفى عنها هذا الشرط، بل هي مردودة على صاحبها غير مقبولة، وهو مأزور غير مأجور، وعمله إحداث في الدين وابتداع فيه، قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(١).

وقال ﷺ: «**إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة ضلالة وكل ضلالة في النار**»(٢).

وكان عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»(٣).

فهذان الشرطان: الإخلاص والموافقة لشرع الله تعالى على مدارهما قبول العبادة.

وثمة ملاحظة مهمة وهي أن المباحات يمكن أن تتحول إلى عبادة وقربة يثاب المكلف عليها إذا توافرت النية الصالحة والإخلاص لله وابتعد

---

(١) البخاري، حديث رقم (٢٦٩٧).

(٢) أخرجه أحمد: ٤/ ١٢٦، ١٢٧، رقم ١٧١٨٤.

(٣) ينظر: العبودية، ص٧٦.

المكلف عن الحرام ومخالفة للشرع وبهذا المفهوم الشامل تصبح حياتنا كلها عبادة لله تعالى، فطالب العلم النافع في الطب أو الهندسة أو التربية أو غيرها الذي يقضي وقته في تحصيله ودراسته بقصد نفع نفسه وأمته هو في عبادة يثاب عليها، والموظف في وظيفته يقضي حوائج المسلمين هو في عبادة، والعامل يصدق في عمله هو عبادة يثاب عليها، والتاجر المسلم الحافظ لحدود الله في تجارته في عبادة، والمزارع في زرعه، والطبيب، والمعلم، والراعي في رعيته، كل أولئك أعمالهم عبادة، يتقربون بها إلى الله تعالى.

خصائص العبادة في الإسلام:

تتميز العبادة في الإسلام عن سائر الأديان بخصائص عدة، يمكن إيجازها في النقاط التالية:

١- ربانية المصدر:

من أخص خصائص العبادة في الإسلام أنها ربانية المصدر محفوظة لم تتغير ولم تتبدل مع مر الدهور والأزمان نتيجة لتعهد الله بحفظ كتابه وما يترتب على ذلك الحفظ من حفظ السنة والشريعة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وهذا بخلاف ما حدث في عبادات وعقائد الأديان الأخرى من تحريف وتبديل وابتداع أخبر الله تعالى عنه وذكر تحريفهم لكتبهم وما ترتب على ذلك التحريف من ضياع لأصول عقائدهم وعباداتهم فقال تعالى:

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

ومن لوازم وثمرات تلك الربانية ألا يعبد الله إلا بما شرع الله وأنه ليس لأحد من الخلق الزيادة أو النقصان في تشريع العبادات في الإسلام، ومن ابتدع أمرًا في الدين فهو رد عليه كما أخبر النبي ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(١).

وقد أمرنا رسول الله ﷺ بمتابعته في عبادته،والاقتداء به ﷺ ففي الصلاة قال ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»(٢) وفي الحج قال ﷺ: «**لتأخذوا عني مناسككم لعلي لا أراكم بعد عامي هذا**»(٣) وفي سائر أمور الدين قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فمصدر العبادات كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. وليس لبشر مهما

---

(١) رواه البخاري، حديث رقم (٢٦٩٧).

(٢) رواه البخاري، حديث رقم (٦٣١).

(٣) رواه مسلم، حديث رقم (١٢٩٧).

علت منزلته أن يشرع من عند نفسه، ولا لمجمع من المجامع أن يزيد أو يعطل تشريعًا أمرنا به الله أو نهانا عنه، قال تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران٣١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وهذا ما فهمه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، ولذلك قال علي رضي الله تعالى عنه: «لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفه»(١).

٢- العبادات لا تكون إلا لله:

ومن أخص ما تتميز به العبادة في الإسلام أنها لا تصرف إلا لله وهذا الشرط الذي يميز العبادة في الإسلام عن غيرها في الأديان الأخرى والمسلم لا يتوجه بعبادته لا لنبي مرسل ولا إلى ملك مقرب ولا إلى أحد من البشر وإنما يتوجه بها إلى الله وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة، ٣١]. وقد نهى الله تعالى عن الشرك في العبادة وجعله ظلمًا عظيمًا وضلالًا بعيدًا قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان، ٣١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

---

(١) سنن البيهقي الصغرى، ١/ ١٠٨.

ومن أخلص عبادته لله فقد قصرها عمن سواه وحرر نفسه من عبودية الطواغيت طواغيت الجن والإنس وحرر نفسه من عبودية الأوثان والأحجار ومن عبودية المال والجاه والسلطان وشرف نفسه وحررها بعبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد.

٣- العموم والشمول في العبادات الإسلامية:

ومن خصائص العبادة في الإسلام أنها شاملة لجميع أعمال العبد وأقواله فالعبادة في الإسلام لا تقتصر على الشعائر التعبدية كالصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد – كما يظن البعض – بل تشمل جميع مناحي الحياة كلها، فتشمل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

فمن العبادات القلبية: خشية الله، والإنابة إليه، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، كل ذلك من أنواع العبادة التي يثاب عليها المسلم إذا تحقق شرطاها: الإخلاص والمتابعة.

وطلب العلم عبادة، والعمل عبادة، والإحسان إلى الناس عبادة، والخلق الحسن عبادة. وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلها عبادة.

وقد تواردت الأحاديث الصحاح التي تؤكد هذه الحقيقة وما رتبه الله من الأمور المضاعفة لمن أدى هذه الأعمال مبتغيًا بها مرضاة الله تعالى

على نهج وسنة نبينا محمد ﷺ فالإحسان إلى الناس، وإعانة المحتاج، وسد رمق الجائع والعطشان، وإرشاد الحيران، وهداية الأعمى، وإماطة الأذى عن طريق الناس وإصلاح ذات البين، والكلمة النافعة، والصدقة الجارية، وحتى قضاء الشهوة فيما أحله الله، عبادة يثاب عليها.

النية وأثرها في العمل:

النية هي: عزم القلب على فعل الشيء، وهي أساس العمل وقاعدته ورأس الأمر وعموده وأصله الذي عليه بني، والعمل تابع لها يصح بصحتها ويفسد بفسادها، لذا جعل الإسلام جزاء الفعل ثوابًا وعقابًا مرتبطًا بالنية وشرطًا لقبول العمل قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(١).

وبنية التعبد لله تعالى تصبح حياة الإنسان وكل ما يعمل عبادة يؤجر ويُثاب عليها فالأفعال والأقوال المباحة في حياة المسلم تشغل حيزًا كبيرًا من حياته فإذا استشعر العبادة في هذه الأعمال كانت عبادة يؤجر عليها بفضل الله ومنته وسعة رحمته فالمأكل والمشرب والنوم وحسن التعامل مع الناس بل ومع الحيوانات تصبح قُربات يثاب عليها فالأكل والشرب مثلًا إذا قصد به التقوي على طاعة الله تعالى أصبح قربة يثاب عليها، وحسن المعاملة مع الناس: من رد السلام والإحسان إلى الآخرين والبشاشة والبسمة وحسن الكلمة والإنفاق على الأهل والأولاد ومعاشرة الرجل

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (١).

لزوجته كل ذلك يصبح بالنية عبادة وقربة يثاب عليها المسلم وتبقى عادة من العادات المباحة إن لم يحتسب الأجر وينوي ذلك عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى.

٤ – الثبات وعدم التبديل والتغيير:

من خصائص ومحاسن العبادات في الإسلام ثباتها وبقاؤها على الصورة التي شرعت عليها منذ نزول الوحي بما فيه من تشريع على نبينا ﷺ لم تتبدل تلك العبادات ولم تتغير فالصلاة التي يؤديها المسلم اليوم هي الصلاة في هيئتها التي أداها نبينا محمد ﷺ لم تتبدل ولم تتغير، والزكاة والصوم والحج وسائر العبادات الإسلامية بل إن أي تغيير أو تعديل أو تبديل فيها يعد بدعة مردودة على صاحبها وقد قال ﷺ: «**إن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة**»(١).

ولقد كان التبديل والتغيير شاملًا للعقائد والشرائع النصرانية على مرِّ العصور، وقد لعبت المجامع النصرانية دورًا بارزًا في تغيير العقائد والشرائع النصرانية مع مرور الزمن، وقد شمل ذلك الصلاة التي لم تكن لها هيئة ثابتة معينة، وإنما تخضع للأهواء والعادات.

٥ – نفي الوسطاء بين العبد وربه:

ومن خصائص العبادة في الإسلام أن لا واسطة بين العبد وربه عند

(١) رواه مسلم (٨٦٧).

تأديتها، فلا حاجة إلى توسيط رهبان ولا دجالين ولا شفعاء، كما هو حادث في عبادات الأديان الأخرى والفرق المنحرفة التي تتخذ وسطاء بينها وبين الله تعالى، فالمسلم يتوجه مباشرة بصلاته ودعائه وسائر عباداته إلى الله جل وعلا، القريب من عبده إذا دعاه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ويأمرنا تعالى بدعائه مباشرة دون اتخاذ وسطاء، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وفي الحديث عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا فقال: «**يا غلام ألا أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله...**»(١).

وقد ورد في السنة ما يدل على استجابة الله تعالى لدعاء وعبادة عبده إذا سأله دون وسيط، قال ﷺ: «**إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه يتنزل تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل يعطى؟ هل من داع يستجاب له؟ هل من مستغفر يغفر له؟ حتى ينفجر الصبح**»(٢).

والعبادة في الإسلام لا يشترط فيها ما ابتدعه اليهود والنصارى من

(١) مسند أحمد: ١/ ٢٩٣، ورواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم، حديث رقم (٧٥٨).

توسيط الهيكل وتقريب الكهانة، وتقديم إتاوات، وهذا لا نجده في الإسلام؛ فالإسلام لا يعترف بطبقة كهنوتية تحتكر لنفسها تعليم الدين وإقامة شعائره من دون الناس ولا بطبقة أو أفراد يكونون وسطاء بين العبد وخالقه، وما ورد عن بعض الفرق والطوائف اتخاذ وسطاء وشفعاء بينهم وبين الله، فإنما هو مما تأثروا به من الديانات الوثنية واليهودية والنصرانية المحرفة وليست أفعالهم من الإسلام في شيء.

فقه التفضيل بين العبادات:

إذا كانت العبادة في الإسلام بهذه المكانة وهذه المزايا التي ذكرنا لمحة عنها وإذا كانت العبادة في الإسلام بهذا الشمول الذي يغطي حياة الإنسان وجميع أعماله الظاهرة والباطنة، فأي الأعمال أعظم منزلة عند الله تعالى يلزمها العبد ويتزود بها حتى تقربه من الله تعالى؟

لا شك أن الإجابة عن هذا السؤال نجده في الحديث القدسي الذي قال فيه ﷺ فيما ينقله عن ربه: «**وما تقرب إلى عبدي بأحب مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه**»(١) الحديث.

فمن الفقه في الدين ألا نحرص على السنن والنوافل ونفرط في الفرائض، فأفضل العبادات، وأعظم ما يتقرب به العبد إلى الله هو ما افترضه الله عليه وأوجبه ثم تأتي بعد ذلك النوافل كما أخبرنا النبي ﷺ.

وقد أورد ابن القيم رحمه الله أقوال العلماء ومذاهب الناس في

---

(١) جامع العلوم والحكم، حديث رقم ٣٨، ١/ ٣٥٧.

التفضيل بين العبادات ومما ذكر مختصرًا:

أن من الناس من زعم بأن أفضل الأعمال إلى الله أشقها على النفس.

ومنهم من زعم أن أفضل الأعمال التجرد والزهد في الدنيا، ولا شك أن هذين الصنفين قد جانبوا الصواب.

ومن الناس من رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيها نفع متعدٍ ومن ذلك: الاشتغال بمصالح الناس، وتعليمهم، والدعوة إلى الله، والإحسان إلى الفقراء والمساكين، واستشهدوا لذلك بالأحاديث الصحيحة التي تُبين فضل الدعوة إلى الله، وتعليم الناس وهدايتهم.

ثم يختم بذكر القول الرابع والذي يرجحه على ما سبق من أقوال بأن لكل وقت عبادته الأفضل، وذلك بالعمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلًا: القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب. وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في وقت السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل: الإقبال على تعلميه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: الاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع وإن بعد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال: الاشتغال بمساعدة وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على الأوراد والخلوة.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه حتى كأن الله يخاطبك به فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة، الإكثار من التعبد، ولاسيما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخاطبة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك، أداء واجب الصبر في مخالطتك بهم دون الهرب منه، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال والاشتغالُ بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهذا المتعبد على هذه الحال غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبده عليها، فهو لا يزال متنقلًا في منازل العبودية كلما رفعت إليه منزلة عمل على سيره إليها. واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى. فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره. فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العبّاد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم(١).

وقد ضرب الصديق أبو بكر أروع الأمثلة في الجمع بين أبواب الخير جميعها فذات يوم قال رسول الله ﷺ: «**من أصبح منكم اليوم صائما؟**» قال أبو بكر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنا، قال: «**فمن تبع منكم اليوم جنازة؟**» قال أبو بكر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنا، قال: «**فمن أطعم منكم اليوم مسكينا؟**» قال أبو بكر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنا، قال: «**فمن عاد منكم اليوم مريضا؟**» قال أبو بكر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنا، فقال رسول الله ﷺ: «**ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة**»(٢).

الآثار الإيمانية والتربوية للعبادات في حياة المسلم:

وسوف نستعرض فيما يلي جانبًا من العبادات في الإسلام لبيان الآثار التربوية والإيمانية في عدد منها ومن تلك العبادات: الصلاة والزكاة والصوم والحج.

---

(١) ينظر مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ٨٥ – ٩٠.

(٢) رواه مسلم (١٠٢٨).

الآثار الإيمانية والتربوية للصلاة في حياة المسلم:

١- صيانة المسلم من الشياطين التي لا قِبَل له بها.

٢- راحة البال وهدوء الفكر وواحة الأمان من الهم والغم والقلق، ويترتب على هذا طمأنينة النفس واستقرار القلب، وقد قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. وكانت قرة عين النبي ﷺ في الصلاة وكان إذا حزبه أمر فزع إليها وأكثر منها.

٣- لذة مناجاة الله تعالى، والسعادة بالوقوف بين يديه، والالتذاذ بذكره والشعور بالقيام بالواجب العظيم ويصف أحد الغربيين رؤيته لخشوع المسلمين ومناجاتهم لله في صلاتهم بإعجاب فيقول: «ولقد تأثرت عميق التأثر بالخشوع الذي يبدو على هؤلاء المصلين».

٤- تربية النفوس على الصبر وتحمل المشاق والصبر على طاعة الله تعالى، ففي القيام بالوضوء والغسل في أوقات البرد الشديد، والخروج إلى الصلاة عند انخفاض درجات الحرارة أو ارتفاعها فيه ما يعود النفس على الصبر قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

٥- لما خُلق الإنسان ضعيفًا كان في أمس الحاجة إلى تقوية صلته بالعزيز الجبار، ليقويه ويجبر ضعفه ويسدد خطاه، والصلاة تقوي صلة الإنسان بربه وتقربه إليه، ففي الحديث الصحيح: «**أقرب ما يكون العبد من**

ربه وهو ساجد، فأكثروا من الدعاء فقمن أن يستجاب لكم»[(١)].

٦- ديمومة صلة الإنسان بربه، فتوزيع الصلاة بين أوقات الليل والنهار يجعل المرء دائم الصلة بربه.

٧- زيادة الإيمان، فالصلاة أشبه ما تكون بمحطة يتزود فيها المصلي من الطاقة الإيمانية بما يعينه على شق طريقه في الحياة على نور من الله.

٨- والصلاة نور في القلب، ومن الآثار التبعية لاستنارة القلب انشراح الصدر واستنارة الوجه وظهور البهاء والبهجة عليه، لحديث أبي مالك الأشعري -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**والصلاة نور**»[(٢)].

قال النووي: «وقيل: معناه: أنها تكون نورًا ظاهرًا على وجهه يوم القيامة، ويكون في الدنيا أيضًا على وجهه البهاء، بخلاف من لم يصل»[(٣)] وقال الشيخ ابن عثيمين: «أي نور في القلب، وإذا استنار القلب استنار الوجه وانشرح الصدر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]»[(٤)].

وبسببها يصبح المسلم طيب النفس، ففي الحديث عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد، يَضربُ كلَ عقدة مكانها: عليك ليل طويل فارقد، فإن**

---

(١) رواه مسلم، حديث رقم (٤٧٨).

(٢) رواه مسلم في كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء ١/ ٢٠٣ رقم ٢٢٣.

(٣) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي ١/ ١٠١.

(٤) من أحكام الصلاة، ص ٥.

استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلَّى انحلَّت عُقَدُهُ كلها، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»[١].

٩- ومن محاسن الصلاة المساعَدة في حل المشكلات النفسية للمرء، فهي (من أكبر العون على الثبات في الأمر)[٢] وإذا حزب الإنسانَ أمرٌ وضاق عليه فإنه يفزع إلى الصلاة، وذلك لأن القلب يستنير بالصلاة، فيستنير الوجه وينشرح الصدر، ويجد الإنسان الدنيا أمامه سعة لا نهاية لها[٣]، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

١٠-ومن الآثار التربوية للصلاة، أنها تربي النفس على طاعة الخالق، وتعلم العبد آداب العبودية وواجبات الربوبية، بما تغرسه في قلب صاحبها من قدرة الله وعظمته وبطشه وشدته ورحمته ومغفرته.

١١-ومن محاسن الصلاة ما فيها من الأخوة والتآلف، ففي اجتماع المصلين خمس مرات في اليوم والليلة ما يشير إلى التآخي والاتحاد واتفاق الكلمة واجتماع الأمر.

١٢-ومن محاسنها ما فيها من معنى المساواة، ومحاربة التمييز لاسيما العنصري أو الطبقي، لأن الفقير يقف بجانب أخيه الغني بلا تمييز بينهما،

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٠٩٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٥٢.

(٣) من أحكام الصلاة للشيخ محمد بن عثيمين ص ٥.

وكذا الخادم وسيده، ليوقن الجميع أنهم عند الله سواء، فلا تفاضل إلا بالتقوى.

وقد كانت هذه المساواة في الصلاة عند وقوفهم في صف واحد من الأمور التي شدت انتباه وإعجاب الكثير من الغربيين بل كان ذلك المنظر سببًا في إسلام عدد منهم، يصف الدكتور (ليتر) هذا الحال بإعجاب فيقول: «وفي المساجد ترى المساواة التامة بين المسلمين، فلا يوجد فيها مقاعد خاصة لأحد، ولا يوجد منظر أبهج ولا أرهج من منظر جماعة من المسلمين وهم خاشعون صامتون[1].

فلا وجود للتفرقة داخل المسجد، لا كما تفعل الكنيسة النصرانية والكنيس اليهودي من وجود كراسي محددة للرهبان، ثم من يليهم من طبقات المجتمع، ثم عامة الناس، وبعض الطبقات لا يسمح لهم بالجلوس في مقدمة الكنيسة أو وسطها، بل يخصص لهم مكانٌ في القسم الأخير من الكنيسة، وهو ما يُسمى (بالنارتكس) أو الرواق[2].

الآثار الإيمانية والتربوية للزكاة في حياة المسلم:

١ ـ زيادة الإيمان في قلب المزكي، فإن إخراج الزكاة فيه طاعة الله وامتثال لأمره، والإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

٢ ـ تزكية المزكي ظاهرًا وباطنًا، أما تزكية باطنه فذلك أن إخراجَ الزكاة

---

(١) نقلًا عن: دليل العابد إلى نظام المعابد، شاكر البري، ص ٩٢.

(٢) ينظر: (الأرشمندت إلياس)، العبادة المسيحية، ص٢٩.

إخراجٌ للمزكي نفسه من الطمع والجشع والإمساك، وكلها أمراض قلبية وصفات مذمومة شرعًا، فانتشاله منها تطهير لباطنه، وفي حديث أنس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتى رجل من تميم رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إني ذو مال كثير وذو أهل ومال، وحاضرة، فأخبرني كيف أصنع وكيف أنفق؟ فقال رسول الله ﷺ: «**تخرج الزكاة من مالك فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق المسكين والجار والسائل**»(١).

وأما تزكية الزكاة للمزكي ظاهرًا ولماله فذلك أن أداءها من أسباب دوام المال ونموه وازدياده، وفي استمراره في الغنى عناية لظاهره. قال تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وفي الحديث قال ﷺ: «**ما نقص مال من صدقة**»(٢).

٣ ـ تطهر النفس من داء الشح ورذيلة البخل، فالشح آفة نفسية، وقد ذمه القرآن الكريم: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]،: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] ومن محاسن الزكاة الحميدة التصدي لهذه الآفات وتطهير النفس منها.

٤ ـ تربية المسلم على البذل والسخاء والإنفاق في مجالات أخرى، كي لا يقتصر إنفاقه على الزكاة، قال تعالى،: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ

(١) رواه أحمد، ١/ ٣٠٧.
(٢) مسند أحمد، ٤/ ٢٣١.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وامتدح الله المنفقين وجعلها من صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

خلق الله الإنسان على حب الدنيا، والركون إليها: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] وبما أن هذه الدنيا فانية، فقد جاءت الزكاة لعلاج القلوب من حب الدنيا، والسمو بها إلى التعلق بالآخرة التي لا تفنى.

٥ ـ تطهير المزكي من الآثام والمعاصي، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

٦ ـ النجاة من النار ودخول الجنة، وإرث نعيمها، فالزكاة من الأعمال الصالحة، وصالح العمل سبب من أسباب دخول الجنة بإذن الله تعالى، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١ – ٤]، إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠ –١١].

٧ ـ مضاعفة الأجور، وتكثير الثواب، وزيادة الحسنات، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ

أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، وقال: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢]، والآيات في هذا كثيرة جدًا.

٨ ـ الفوز برحمة الله، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

٩ ـ الفلاح والسعادة، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١ – ٤].

١٠ ـ الأمن من أهوال يوم القيامة كالخوف والفزع والهلع، فمن المعلوم أن يوم القيامة أهوال وشدائد وكروب ومواقف عصيبة، والإنسان في أمس الحاجة وقتئذ إلى كل ما ينقذه من الموقف، فإما جنة أو نار، فتأتي الزكاة لإنقاذه مما هو فيه بكشف ما نزل به وصرف المخاطر المحدقة به، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، ولا شك أن الزكاة من الإيمان ولا يتحقق الإيمان الواجب إلا بها وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

١١ ـ ما فيها من التعاطف والألفة وسد حاجات المحتاجين وفي ذلك يقول (بريشابنكمرت) أحد المهتدين الجدد للإسلام واصفًا بعض محاسن الزكاة في الإسلام فيقول: «لم أجد دينًا وضع للزكاة تشريعًا شاملًا كالإسلام، والمجتمع الإسلامي الذي يحرص على إخراج الزكاة يخلو من الفقر والحرمان والتشرد، إنني أتصور لو أن العالم كله اهتدى إلى الإسلام لما بقي على ظهر الأرض جائع أو محروم»(١).

الآثار الإيمانية والتربوية للصيام في حياة المسلم:

١- الصيام مدرسة خلقية كبرى يتدرب فيها المؤمن على خصال كثيرة، فهو جهاد للنفس، ومقاومة للأهواء ونزغات الشيطان التي قد تلوح له.

٢- تربية الإنسان على خلق الصبر بكل أنواعه فهناك صبر على الطاعة وصبر عن المعاصي والمحرمات، وكذا الصبر على ما يصيب الصائم من جوع أو عطش أو مشقة(٢).

٣- تربية النفوس على الأمانة ومراقبة الله تعالى في السر والعلن، إذ لا رقيب على الصائم وامتناعه من الطيبات إلا الله تعالى.

٤- ومن آثار الصوم تقوية الإرادة وشحن العزيمة وتعويد النفس على النظام والانضباط، لأن الصائم يتناول الطعام والشراب في وقت محدد.

---

(١) عماد الدين خليل، قالوا عن الإسلام، ص ١٦٠.

(٢) رفعت فوزي، الصوم: أحكامه وأثره في بناء المجتمع المسلم، ص١١.

٥- تنمية الإرادة، وتقوية الاحتمال وإيثار عبادة الله على الراحة، وكلها عناصر مطلوبة في التربية الإسلامية.

٦- تربية النفوس على الأخلاق الفاضلة كالصبر والحلم والجود والكرم، وتنمية عاطفة الرحمة والأخوة، والشعور برابطة التضامن والتعاون بين المسلمين، فيدفعه إحساسه بالجوع والحاجة إلى صلة الآخرين والمساهمة في قضاء حاجاتهم، فتقوى أواصر الروابط الاجتماعية بين الناس، ويتعاون الكل في معالجة الحالات الطارئة(١).

٧- تعريف العبد بحقيقته، وأنه عبد ضعيف لا يستغني عن خالقه طرفة عين(٢).

٨- شعور المسلم بوحدة الأمة الإسلامية، ومظاهر وحدة المسلمين في عبادة الصيام كثيرة منها: كيفية الصيام، ومنها وقت البدء به ووقت الانتهاء منه، ومنها: الانتصار على الأهواء والشهوات، ومنها: الإقبال على العبادات، وغير ذلك(٣).

٩- الصيام وسيلة للتقوى، فهو شعبة عظيمة من شعب التقوى كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

(١) ينظر: مجموع فتاوى ومقالات متنوعة للشيخ ابن باز ١٥/ ٤٠.
(٢) ينظر: مجموع فتاوى ومقالات متنوعة للشيخ ابن باز ١٥/ ٣٩.
(٣) ينظر: الصيام ورمضان في السنة والكتاب، ص٣٦٧.

١٠- مجاهدة النفس وتخليصها ممّا علق بها من شوائب الدنيا وآثامها.

١١- كسر حدة الشهوة والأهواء وتهذيبها وضبطها، وتضييق مجاري الشيطان فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم والصوم يضيق هذا المجرى كما أنه وجاء وحصن حصين من الشهوات.

١٢- تطهير البدن من الأخلاط الرديئة، ويكسبه صحة وقوة، وقد اعترف بذلك الكثير من الأطباء، بل وعالجوا بذلك أمراضًا كثيرة[١].

١٣- تطهير النفوس وتزكيتها من الأخلاق السيئة، كالأشر والبطر والبخل ويشير (برشا بنكمرت) أحد المهتدين الجدد للإسلام إلى بعض محاسن الصيام فيقول: «فالصوم في الإسلام تعويد للنفس على الصبر والجهاد ضد الشهوات الآثمة والمحرمة، ومراقبة الله في السر والعلن واستشعار لطعم الحرمان والجوع كي يعطف الصائم على المحرومين»[٢].

١٤- تتألم النفس لحبسها عن الطعام والشراب، فيشعر بذل العبودية، فتسكن إلى ربها خاشعة، وتقف على مقدار ضعفها وعجزها، لأن العبد يشعر أثناء صومه بحاجته إلى يسير الطعام وقليل الشراب، والمحتاج إلى الشيء ذليل له.

الآثار الإيمانية للحج في حياة المسلم:

١- تكفير الذنوب، وتطهير النفس من شوائب المعاصي، ففي الحديث

---

(١) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة للشيخ ابن باز ١٥/ ٤٠.

(٢) عماد الدين خليل، قالوا عن الإسلام، ص ١٦٠.

عن أبي هريرة –رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من حج لله فلم يَرفُثْ ولم يفسُق رجع كيوم ولدته أمُهُ**»(١). وعنه أيضًا –رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ: «**الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**»(٢).

٢- تقوية الإيمان: فالحج يقوي الإيمان ويعين على تجديد العهد مع الله، ويساعد على التوبة الخالصة والصدق، ويهذب النفس، ويرفع المشاعر ويهيج العواطف.

٣- تذكير المسلم بماضي الإسلام التليد وجهاد النبي ﷺ والسلف الصالح الذين أناروا الدنيا بالعلم والعمل الصالح.

٤- تعويد الإنسان على الصبر وتحمل المتاعب وتربية النفس على الانضباط والتزام الأوامر واجتناب النواهي.

٥- غرس روح العبودية الكاملة في النفس، وإظهار التذلل والخضوع لله تعالى ففي الحج التزام كامل بجوانب تعبدية محضة من حيث الزمان والمكان والطريقة والعدد، وقد لا يدرك المكلف الحكمة الكاملة منها، لكنه يأتي بها جميعا تعبدا لله، والتزاما بأمره، وخضوعا لشرعه(٣).

٦- يؤدي الحج إلى تعارف أبناء الأمة الإسلامية على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأوطانهم، كما يؤدي إلى مذاكرة شؤون المسلمين العامة ووقوفهم صفًا واحدًا أمام أعدائهم.

---

(١) رواه البخاري، حديث رقم (١٤٢٤).

(٢) مسند أحمد، حديث رقم (٩٩٤٢).

(٣) ينظر: بدائع الصنائع ٢/ ١١٨.

٧- تذكير المسلم بيوم الحشر الأكبر والهول الأعظم، لأنهم يفارقون المال والأهل، ويتركون أماكن الاستيطان، ويقفون في صعيد واحد منقطعين عن علائق الدنيا، يتساوى في ذلك غنيهم وفقيرهم، عزيزهم وذليلهم، لا هم لهم غير الغفران، ولا غاية سوى رضا الرحمن.

ويصف (ول ديورانت) بعض محاسن الحج بإعجاب فيقول: «لفريضة الحج العظيمة أغراض وفوائد كثيرة، فهي تقوى إيمان المسلمين واستمساكهم بدينهم، وتمكن الصلة بهذا العمل العاطفي الجماعي بين المسلم ودينه وبينه وبين إخوانه المؤمنين»(١) وأظن أنه من الصعب علينا أن نحصر تلك المنافع جميعها ويغنينا عن ذلك كله أن نختم بقوله تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج: ٢٨].

* * *

(١) قصة الحضارة، ١٣ / ١٢٧ .

القسم الثالث
الأخـــــلاق في الإسلام

للأخـلاق في الإسـلام منزلـة عظيمـة ومكانـة جليلـة، وقـد جعـل الله الأخـلاق الفاضـلة مـن خصـال التقـوى، ولا تـتم التقـوى إلا بهـا، وجـاءت النصـوص العديـدة في الكتـاب والسـنة الآمـرة بـالأخلاق الفاضـلة والمبينـة لمكانتها ومنزلتها.

تعريف الأخلاق:

الأخلاق لغة:

الأخلاق في اللغة جمع خُلُق، والخُلُق اسم لسجية الإنسان وطبيعته التي خُلِق عليها.

والخلـق: لفـظ يطلـق علـى الـدين والطبـع والسـجية[(١)] فيطلـق علـى الصفات الراسخة في أعماق النفس الإنسانية يقـول ابـن فـارس: «الخُلـق هـو السجيةُ لأن صاحبه قد قُدِر عليه، يُقال: فلان خليق بكـذا، وأخلـق بكـذا أي ما أخلقه»[(٢)].

ويطلق لفظ الخلق على حسب تقييده حسنًا أو قبيحًا وفي ذلك يقـول

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة: خلق.

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس، ٢/ ٢١٤.

الطاهر بن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء، ١٣٧] يقول: الخُلق السجية المتمكنة في النفس باعثة على عمل يناسبها من خير أو شر وتشمل طبائع الخير وطبائع الشر ولذلك لا يعرف أحد النوعين من اللفظ إلا بقيد يضم إليه فيقال: خُلُق حسن، وفي ضده خلق قبيح، فإذا أطلق عن التقييد انصرف إلى الخلق الحسن»(١).

واصطلاحًا:

يعرف الجرجاني الخلق بقوله: «الخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلًا وشرعًا بسهولة سميت الهيئة خُلقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سُميت الهيئة التي هي المصدر خُلقًا سيئًا»(٢) وقريبٌ من هذا التعريف تعريف أبي حامد الغزالي الذي يقول بأنه: «هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية»(٣).

فالخلق: صفة مستقرة في النفس ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة.

ويستفاد من هذه التعريفات للخلق أن هذه الصفة إن لم تكن مستقرة

(١) تفسير التحرير والتنوير، ١٩/ ١٧١ – ١٧٢.

(٢) الجرجاني، التعريفات، ص١٠١.

(٣) الغزالي، إحياء علوم الدين، ٣/ ٦٨.

فليست جديرة بأن تُسمى خلقًا؛ فمن كتم غضبه مرة لأمر ما لا يُسمى حليمًا إن لم يكن هذا خلقه دائمًا.

ومن مقتضيات تلك التعريفات كذلك: أن يتكرر الفعل بصورة دورية عند وجود ما يقتضيه فيكون هذا التكرار مؤشرًا على وجود قوة راسخة ونزعة ثابتة في النفس، وأن يقوم الدليل على أن هذا الفعل صادر بصورة تلقائية عن النفس وليس تصنعًا أو استجابة لأثر خارجي كالخوف أو الحياء، وأن يصدر هذا الفعل بسهولة ويُسر[١]، ولكن هذا لا ينفي أن للتكلف دورًا في اكتساب الخلق؛ لأن هنالك فرقًا بين الخلق والتخلق وبين الطبع والتطبع، فيكون التكلف في هذه الحالة سبيلًا لاكتساب الخلق.

مكانة الأخلاق في الإسلام:

الأخلاق الكريمة تدعو إليها الشرائع الإلهية والفطر السليمة، فالبشر كانوا ولا يزالون يعدون الصبر والعفة والشجاعة والعدل والصدق أخلاقًا فاضلة يُحمد صاحبها وينبذون نقيضها من الصفات القبيحة، وجاءت الشرائع الإلهية للدعوة إلى مكارم الأخلاق مع التحذير من التخلق بالأخلاق الذميمة.

وللأخلاق في الإسلام مكانة عظيمة جليلة، ويظهر ذلك من خلال تلك النصوص الكثيرة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ الداعية إلى مكارم

(١) كايد قرعوش، الأخلاق في الإسلام، ص٢٠.

الأخلاق والمحذرة من مساوئها(١).

وكيف لا تكون للأخلاق الحميدة تلك المنزلة إذ كانت مقصدًا من مقاصد بعثته عندما قال ﷺ: «**بعثت لأتمم حسن الأخلاق**»(٢)، وفي رواية: «**مكارم الأخلاق**»، وكأن جوهر الإسلام جمع في هذا المقصد العظيم ولا شك أن خلق المسلم لا يستقيم ولا يثاب عليه إن لم يكن قائمًا على أصل توحيد الله تعالى وقد بلغ بها الإسلام من المكانة أن قال ﷺ: «**إن من خياركم أحاسنكم أخلاقًا**»(٣).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن من أحبكم إليّ أحسنكم أخلاقًا**»(٤).

وقال ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**» فجاء الارتقاء في مراتب الإيمان مقرونًا بالارتقاء في درجات حسن الخلق. وبين النبي ﷺ مكان حسن الخلق في ميزان العبد، قال ﷺ: «**ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق وإن الله يبغض الفاحش البذيء**»(٥).

وبالأخلاق الفاضلة يتنزل المسلم منزلة لا يتنزلها غيره قال ﷺ: «**إن**

(١) جمعت موسوعة نضرة النعيم في أخلاق سيد المرسلين مادة كبيرة من تلك النصوص، فمن أراد الاستزادة فليطلع على هذه الموسوعة المهمة في موضوعها.

(٢) رواه مالك في الموطأ، في حسن الخلق.

(٣) رواه البخاري، حديث رقم (٣٣٦٦).

(٤) أخرجه البخاري، حديث رقم (٣٥٤٩).

(٥) سنن أبي داود، حديث رقم (٤٧٩٩).

المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»[١].

على أن حسن الخلق لا يغني عن توحيد الله تعالى وفروض العبادات، لأنه لا يتحقق الإيمان المذكور في الحديث إذا لم يكن صاحبه مؤديًا للفرائض التي أمر الله بها.

وقد وصف النبي ﷺ حسن الخلق بجماع أفعال الخير قال ﷺ: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس**»[٢].

وهذا يدل على أن حسن الخلق يشتمل على جماع أفعال الخير وقد جاءت نصوص الكتاب والسنة داعية إلى التخلق بالأخلاق الفاضلة وحذرت من مساوئ الأخلاق، قال رسول الله ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن**»[٣].

وقال تعالى محذرًا من الأخلاق الذميمة وأهلها: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم ١٠-١٣].

ومما وصى به لقمان ابنه قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

ولا غرو أن تكون للأخلاق الحميدة تلك المنزلة في الإسلام، وقد

---

(١) سنن أبي داود، حديث رقم (٤٧٩٨).

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٥٥٣).

(٣) سنن الترمذي، حديث رقم (١٩٨٧).

جاءت الشريعة الإسلامية لتحقيق المصالح ودرء المفاسد، فجاءت للدعوة إلى كل خلق فاضل، واجتناب نقائص الأخلاق، وبالأخلاق الفاضلة تتحقق مرضاة الله تعالى، والأخلاق مطلب غالٍ في حياة الإنسان بصفة عامة، وفي حياة المسلم بصفة خاصة، يقول محمد عبدالله دراز: «قد يكون في وسع الإنسان أن يستغني طول حياته عن بعض مسائل العلم والمعرفة فلا تخطر له ببال، ولكن أحدًا لن يستطيع أن يخلي همه من المسألة الأخلاقية طرف عين»(١).

ومن مكانة الأخلاق في الإسلام أن العبادات لا تنفع صاحبها إن كان في سلوكه وأخلاقه ومعاملاته مع الناس سيئًا ظالمًا كما ورد في الحديث، قال ﷺ: «**أتدرون من المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: «**إن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار**»(٢).

وفي الحديث دلالة على قبولها، وإنما ذهبت عنه يوم القيامة جزاء إساءته مع الناس والله أعلم.

ومكارم الأخلاق في الإسلام ضرورة اجتماعية تعين على تماسك المجتمعات وتعاونها، وقد وردت نصوص كثيرة تدعو إلى تعميق أواصر

---

(١) دراسات إسلامية، ص١٠٠.

(٢) رواه مسلم، حديث رقم (٢٨٥١).

المحبة والتعاون في المجتمعات الإسلامية، ومتى فقدت تلك الأواصر تفكك أفراد المجتمع وتصارعوا على أساس المنفعة والمصلحة مهما بلغت تلك المجتمعات من التقدم العلمي والتقني، فكيف تكون الثقة بالعلوم والمعارف وضمان الحقوق إذا فقدت فضيلة الصدق؟! كيف يكون التعايش بين الناس في أمن واستقرار والتعاون بينهم لولا فضيلة الأمانة؟! كيف تكون أمة قادرة على إنشاء حضارة مُثلى لولا فضائل التآخي والتعاون والمحبة والإيثار؟! إن الأخلاق الفاضلة في الأفراد والجماعات تمثل المعالم الثابتة التي تقوم عليها الروابط الاجتماعية ويرتكز عليها صلاح المجتمعات وفي الحديث قال ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه ألا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[(١)].

أسس الأخلاق ومصادرها في الإسلام:

تستند الأخلاق في الإسلام إلى عدة أسس فطرية، وعقلية، ووجدانية إيمانية، وترتبط ارتباطا وثيقا بالشرع وأدلته؛ وهذا بخلاف التصور الإلحادي الغربي الذي يقطع صلة الأخلاق بمصدرها الديني، وسوف نشير إلى تلك الأسس والمصادر بإيجاز في النقاط التالية:

المصدر الفطري للأخلاق:

لقد خلق الله الناس على الفطر السليمة التي تميل إلى مكارم الأخلاق وتنفر من رذائلها، ولقد خلق الله الإنسان في أحسن خلق وخُلق قال تعالى:

(١) رواه الترمذي وابن ماجه وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٠).

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، ويجد الإنسان في أعماق نفسه قوة تحذره من فعل الشر إذا أغري به وهو ما يسمى دافع الضمير(١)، ولكن هذه المسؤولية الوجدانية قد تخبو إذا لم تكن تنطلق من دافع أعظم وهو الدافع الإيماني ومراقبة الله تعالى، وهذا ما يميز المسلم عن غيره، مع اختلاف المسلمين فيما بينهم في هذه المراقبة.

ويبقى الضمير الفطري الأخلاقي قاسمًا مشتركًا بين الناس، وقد أرشدت نصوص الكتاب والسنة إلى وجود هذا الحس الأخلاقي وإلى هذه الفطرة السليمة الهادية إلى الخُلق الحسن، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ – ١٠].

وقد أخبر النبي ﷺ الأشج بن قيس –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما فطر عليه من خصال حميدة قال ﷺ: «**إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة**»، قال: يا رسول الله قديمًا كان في أو حديثًا؟ قال: «**قديمًا**»، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما(٢).

وإذا كانت الأخلاق في أصلها فطرية، فالناس يتفاوتون في الصفات الخلقية بقدر تفاوت الفطرة التي فطروا عليها من الأخلاق الفاضلة، وقد أخبر النبي ﷺ ما يثبت هذا التفاوت الفطري في الطباع الخلقية قال ﷺ:

---

(١) أحمد أمين، كتاب الأخلاق، ص٦٨.

(٢) صحيح ابن حبان، حديث رقم (٧٢٠٣).

«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[١] وقال ﷺ مرشدًا إلى هذا المصدر الفطري المميز بين الخير والشر: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس**»[٢].

وقد يلتبس على هذا الحس والضمير الفطري معرفة الخير والشر وتطغى عليها الأهواء والشهوات والشبهات، وهنا يأتي التوجيه النبوي باتقاء الشبهات لمن التبس عليه الأمر، وهو سبيل النجاة، كما أخبر النبي ﷺ بقوله: «**إن الحلال بين وإن الحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام**»[٣].

المصدر العقلي للأخلاق:

فمكارم الأخلاق يستحسنها العقل السليم ويؤيدها ويحث عليها، بخلاف رذائل الأخلاق التي تعارضها الفطر والعقول السلمية، إلا إذا شابها شيء من الانحراف فأصبحت ترى المنكر معروفًا والمعروف منكرًا.

المصدر التعليمي المكتسب:

وهو مصدر من مصادر الأخلاق الحميدة، فالأخلاق بجانب كونها

---

(١) البخاري، حديث رقم (٣٢٠٣).
(٢) رواه مسلم، حديث (٢٣٣٥).
(٣) رواه مسلم، حديث (١٥٩٩).

فطرية، وعقلية فهي مكتسبة أيضًا تكتسب بالعلم والتعلم، وجاءت رسالة الأنبياء عليهم السلام لهداية الخلق إلى الصراط المستقيم وتعليمهم الخير وكل خلق حسن، وتزكيتهم كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] وكان من دعائه ﷺ: «**اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علمًا**»(١).

ولو لم يكن بقدرة الإنسان تعلم الأخلاق الفاضلة واكتسابها، والقدرة على التخلص من بعض الصفات الذميمة، وتجنبها لكان في ذلك منافاة لأصل الابتلاء والتكليف، إذ من عدل الله ورحمته ألا يكلف نفسًا إلا وسعها قال تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فلو لم يكن الإنسان قادرًا على اكتساب قدر من الأخلاق الفاضلة لما كلفه الله بذلك، وبناء على ذلك فإن قدرًا كبيرًا من الأخلاق الفاضلة مكتسبة عن طريق التعلم ومجاهدة النفس على اكتسابها،فكما أن لدى الإنسان استعدادا للتعلم فلديه كذلك استعداد وقدرة على اكتساب الأخلاق، فالأخلاق فطرية وجدانية مكتسبة.

المصدر الإيماني الجزائي:

وهذا المصدر وإن تم تأخيره فهو المصدر الأصل في الأخلاق، فالإيمان ومراقبة الله تعالى والتطلع إلى ذلك الجزاء والثواب الذي أعده الله

(١) سنن النسائي، حديث رقم (٧٨٦٨).

لمن آمن به وحَسن خلقه مصدر من أعظم مصادر الأخلاق للمسلم، وما أكثر نصوص الكتاب والسنة المحفزة على عمل الخير والمهذبة لسلوك المسلم، ففي معرض مدح المتقين من أصحاب الصفات الخلقية العالية يقول تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ – ١٣٤].ويقول تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: ٨٣] ويحث جل وعلا عباده المؤمنين على خلق التواضع والإعراض عن الجاهلين، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣].

والسنة المطهرة مصدر عظيم للتوجيهات النبوية الدالة على الأخلاق الحسنة، قال ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»(١) وقال ﷺ محذرًا من الغش ومبينًا القاعدة الجزائية في ذلك: «**من غشنا فليس منا**»(٢) فالمصدر والأساس الإيماني الجزائي في الإسلام من أعظم أسس مكارم الأخلاق في الإسلام.

خصائص الأخلاق في الإسلام:

بعد أن بينا منطلقات وأصول الأخلاق المادية الغربية يحسُن بنا أن

(١) رواه البخاري، حديث رقم (٥٧٦٣).

(٢) رواه مسلم، حديث رقم (١٠١).

نبين عددًا من خصائص ومزايا الأخلاق في الإسلام في النقاط التالية:

١ - ربانية المصدر:

وهذه من أحسن محاسن الأخلاق في الإسلام أن تستمد مشروعيتها ومصدريتها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فليست إنسانية المصدر كما هو حادث في أصول الأخلاق الغربية المادية كما بينا ذلك، مع أن أصلها فطري جاء الإسلام ليؤكدها ويحث عليها وينميها، كما أخبر النبي ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(١).

٢- الارتباط الوثيق بين العقيدة والعبادة والأخلاق:

ولا شك أن كل من يقف على الآيات والأحاديث المتقدمة يدرك يقينا أن الجانب الأخلاقي له مكانته الكبرى في ميزان الله؛ وأنه أصيل وجوهري في بنيان هذا الدين، وأنه لا يمكن تصور انفصام الصلة بين الأخلاق وبين سائر جوانب الدين الأخرى سواء أكانت عقيدة أو شريعة أو دعوة إلى دين الله تعالى.

أ- ففي جانب العقائد نجد التلازم التام بينها وبين الأخلاق حتى صار غيابها أو ضعفها مؤذنا بضعف الإيمان أو نقصانه كما قال ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**»(٢) وقال: «**من غشنا فليس منا**»(٣) وبين ﷺ الاقتران

(١) رواه البيهقي، ١٠/ ١٩٢.

(٢) رواه أحمد (١١٩٧٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٣١٣٥).

(٣) رواه مسلم (١٠١).

الشديد بين الإيمان والحياء فقال: «**الحياء والإيمان قرنا جميعا، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر**»(١) وأخبر ﷺ أن سيئ الخلق مع جيرانه لا يدخل الجنة فقال: «**لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**»(٢).

ويظهر لنا مدى هذه العلاقة الوثيقة بين العقيدة والأخلاق إذا علمنا أن الإيمان بالله ربًا وخالقا وإلها، ومعرفته بأسمائه الحسنى كالعليم والخبير والرقيب والحسيب والحفيظ والمحيط، يوجب على العبد مراقبة الله وخشيته والحياء منه، والتحلي بمحاسن الأخلاق واجتناب رذائلها.

ب- وفي جانب العبادات والمعاملات نجد أنه ما من عبادة يتقرب بها إلى الله إلا وزينت واقترنت بأخلاق فاضلة، ونهي فيها عن أخلاق مرذولة، وكذلك الحال في المعاملات والعادات.

ففي الصلاة أخبر الله تعالى أنها: ﴿تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقال ﷺ: «**إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسكينة**»(٣) وفي الزكاة قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وقال تعالى: ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وفي الصوم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٥٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٨٣).
(٢) رواه مسلم (٤٦).
(٣) رواه البخاري (٦٣٥) ومسلم (٦٠٣).

كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] وقال النبي ﷺ: «**الصيام جنة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم**»(١) وقال ﷺ: «**من لم يدع قول الزور، والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»(٢) وفي الحج قال تعالى ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وفي العلاقات الزوجية قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ ﴾ [النساء: ١٩] وقال سبحانه: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] وقال سبحانه: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وفي البيوع والمعاملات المالية قال ﷺ: «**من غشنا فليس منا**»(٣) وقال أيضا: «**رحم الله عبدا، سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا إذا اقتضى**»(٤).

وفي كلمة جامعة تعم كل معاملة، أمر ﷺ بالإحسان في كل شيء، حتى فيما يتصور البعض أنه لا موضع له، وهو ذبح الحيوان ليأكل، فقال ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم**

(١) رواه البخاري (١٩٠٤) ومسلم (١١٥١).

(٢) رواه البخاري (١٩٠٣).

(٣) رواه مسلم (١٠١).

(٤) رواه البخاري (٢٠٧٦).

فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»[١].

ج- وفي جانب الدعوة إلى الله تعالى يلحظ المطالع لسيرة النبي ﷺ أن حسن خلقه وكريم خصاله كان له تأثير كبير في نفوس المدعوين كما كان سببا في إسلام عدد كبير من الصحابة الأوائل الذين عرفوا النبي ﷺ عن قرب قبل البعثة وخبروا أخلاقه وأيقنوا استحالة أن يدع الكذب على الخلق ثم يكذب على الخالق سبحانه وتعالى.

ولعل في موقف خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حينما نزل جبريل على النبي ﷺ في غار حراء أول مرة نموذجا واضحا في هذا الصدد فقد رجع ﷺ إليها: «يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[٢].

ولا شك أنه قد رسخ في يقين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا استحالة أن يخزي الله رجلا كالنبي ﷺ، له مثل هذه الخصال والشمائل واستدلت على: «ما أقسمت عليه من نفي ذلك أبدا بأمر استقرائي، وصفته بأصول مكارم الأخلاق ، لأن الإحسان إما إلى الأقارب أو إلى الأجانب وإما بالبدن أو بالمال ، وإما على من يستقل بأمره أو من لا يستقل ، وذلك كله مجموع

(١) رواه مسلم (١٩٥٥).

(٢) الحديث رواه البخاري (٤) ومسلم (١٦٠).

فيما وصفته به»[١].

وكلما كان للداعية رصيد طيب من حسن الخلق عند الناس كان ذلك أدعى لقبول دعوته وتصديق الناس له، ومما يشهد لذلك ما حدث في أول الإسلام حينما انتقل ﷺ من مرحلة الدعوة السرية إلى الدعوة الجهرية ونزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢٦] صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي لبطون قريش، حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[٢].

وخلاصة ما سبق كله هو أن من نظر نظرة متأملة ومستقصية في القرآن والسنة فسوف يجد أن الأخلاق تسري في كل جوانب هذا الدين عقيدة وشريعة ودعوة ونظام حياة، وأنه لا يتصور وجود مؤمن صحيح العقيدة ومؤد للعبادات على وجهها التام والكامل ثم هو مع ذلك سيء الأخلاق، وخال من الاتصاف بجميل الشيم وكريم الخصال.

٣ - الشمول:

فالأخلاق تدخل في كل مجالات النفس الإنسانية الظاهرة منها

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ١ / ٢٤.

(٢) رواه البخاري (٤٧٧٠) ومسلم (٢٠٨).

والباطنة فتشمل جانب الاعتقاد، والقلب، والنفس، والسلوك وتشمل شؤون الحياة كلها، فهي ذات صلة بالعقيدة والعبادة والمعاملات ومختلف العلاقات.

والأخلاق في الإسلام تشمل علاقة الإنسان بخالقه، وبنفسه وبني جنسه، بل وتمتد لتشمل علاقة الإنسان ببقية المخلوقات الأخرى.

ففي مجال علاقة الإنسان بخالقه يرد خلق الإخلاص والصدق بعيدًا عن الرياء والنفاق، وفي العبادة أشرنا إلى أمثلة من ذلك يأتي في مقدمتها إخلاص العبادة لله تعالى، ومن فضائل أخلاق القلب حب الحق وحب الخير، ومن فضائل أخلاق النفس الصبر والعفة والبعد عن الحسد، وفي مجال المعاملات والسلوك يأتي خلق الحياء والصدق والإحسان إلى الآخرين وتشمل السلوك الفردي والاجتماعي، وفي كل مجال من مجالات الحياة: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وهذا بخلاف الأخلاق الوضعية التي تسوغ للأقوياء من الحكام والحكومات والمسؤولين وغيرهم ظلم الأفراد والشعوب واستغلال ثروات الشعوب ونهبها، والأخلاق الوضعية تفصل بين الأخلاق والاقتصاد فنشأت الأنظمة الإقطاعية والرأسمالية والأنظمة الربوية وغيرها من مفاسد ومهالك لا تلتزم بأصول أخلاقية سوية، وإنما تقوم على الأنانية ويحكمها منطق المنفعة المحضة وفيها يأكل القوي الضعيف، وتُسن القوانين لتخدم الأقوياء على حساب الضعفاء، وتفتقر إلى الشمول الذي تتميز به الأخلاق في الإسلام.

ومن مظاهر شمول الأخلاق الإسلامية شمولها لكافة مناشط الإنسان

وتوجهاته تستوعب حياته كلها من جميع جوانبها، ثم هي في هذا لا تقف عند حد الحياة الدنيا[١].

٤ – تحقيق العبودية لله تعالى:

ومن خصائص الأخلاق في الإسلام ابتغاء وجه الله تعالى والفوز برضوانه، وهي سبب موصل إلى أعالي الجنان يوم القيامة، وليست أخلاقًا نفعية كما هو الحال في الحضارات الأخرى، لا يقصد بها إلا تحقيق مصالح دنيوية،فغاية الأخلاق في الإسلام تحقيق العبودية لله تعالى واكتساب مرضاة الله تعالى، وتحقيق السعادة في الدارين والنجاة من الشقاء والتعاسة والهلاك في الدنيا والآخرة.

٥ – الوسطية والاعتدال:

فالأخلاق الإسلامية أساسها التوازن والاعتدال بين حظوظ الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧]. وقال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ [الأعراف: ٣١].

فجاء الإسلام وسطًا بين اليهود الذين أسرفوا في عبادة المال والسعي لتحصيله بأي وسيلة مشروعة وغير مشروعة، وبين رهبان النصارى الذين سلكوا رهبانية ابتدعوها وعزفوا عزوفًا تامًا عن الحياة الدنيا ـ كما زعموا ـ مع أن أصل حالهم خلاف ذلك.

---

(١) نضرة النعيم، ١/ ٨١.

إن وسطية الأخلاق الإسلامية لم تلغ الطبيعة البشرية بل عملت وتعمل على توجيهها باعتبارها مفاهيم ضابطة، تعمل على توجيه هذه الطبيعة، فهي لا تضاد الفطرة ولا تلغيها ولا تكبتها ولا تقف في سبيلها (١).

٦- الثبات:

فالأخلاق والمعايير الأخلاقية في الإسلام لا تتغير ولا تتبدل مع الزمان أو المكان، كالنسبية لأنها تعتمد على منهج ثابت لا يتغير بتغير الزمان والمكان، فالفضيلة ثابتة لها معالمها وخصائصها، والرذيلة كذلك معلومة في الإسلام لها معالمها وحدودها ولا يمكن أن تكون الفضيلة رذيلة أو العكس مع تغير الزمان أو المكان كالحال في الأخلاق المادية التي يكون فيها الحسن اليوم قبيحًا غدًا، وما يكون خلقًا حسنًا في مجتمع لا يلزم أن يكون ذلك خلقًا حسنًا في مجتمع آخر، فتتغير وتتبدل مع تبدل الزمان والمكان، وهذا ما لا نجده في صفات الأخلاق في الإسلام، فالصدق صفة مدح منذ أن امتدح الله الصادقين في كتابه إلى يوم القيامة، وغيرها من الصفات والأخلاق الفاضلة، وكذلك مساوئ الأخلاق والرذائل التي حذر منها الإسلام لا تصبح يومًا من الأيام خلقًا حسنًا.

الارتباط بين الأخلاق والثواب والعقاب في الإسلام:

رتبت الشريعة الإسلامية المثوبة العظيمة في الدنيا والآخرة لمن امتثل لأمر الله تعالى وتخلق بالخلق الحسن في معاملاته وسلوكه وفي المقابل

---

(١) المرجع السابق، ١/ ٨٢.

رتبت العقوبة والحساب لمن أخل بأمر الله تعالى، وشرعت العقوبات في الدنيا جزاءً فحين لا تثمر ولا تؤثر المواعظ والقوارع لصاحب الخلق السيئ تكون العقوبة ضرورة شرعية لسلامة المجتمع الإنساني درءًا عن المخاطر التي قد تحدق بالمجتمع بأكمله، فشرعت عقوبة السرقة عندما يهدد أمن المجتمع وسلامته وحين لا يرتدع السارق عن فعله بقوارع النصوص الشرعية، ولحماية خلق الحياء والعفة شرعت عقوبة الزنا، وصيانة للعدل وحفاظًا على الأنفس من القتل شرعت عقوبة القصاص، وحماية للعقل من الضياع وما يترتب على فساد العقول عند شرب الخمر من ضياع ووقوع في مفاسد الأخلاق شرعت عقوبة شرب الخمر، إلى غير ذلك من العقوبات الشرعية التي شرعت حفاظًا على الأخلاق الحميدة من الضياع وحماية من الوقوع في مفاسد ومساوئ الأخلاق.

* * *

وبعد بيان لمحة عن مكانة الأخلاق في الإسلام نشير في النقطة التالية إلى حقيقة الأخلاق في المفهوم الغربي المادي.

الأصول الأخلاقية للفكر المادي:

بعد أن بينا أسس ومنطلقات الأخلاق في الإسلام، يحسن بنا أن نلقي الضوء على الوجه الآخر وهو الفكر الغربي المادي، فما الأسس والمنطلقات للأخلاق في هذا الفكر؟ وما أسباب الانحلال الأخلاقي المتفشي في الغرب؟

يدعي عدد من المفكرين الغربيين ألا صلة بين الأخلاق والدين،

وينفون بذلك المصدر الديني للأخلاق.

ويزعمون أن الأخلاق منبعها مصالح الإنسان وحاجاته، وهو ما يسمى في الفكر الغربي بالأخلاق النفعية وهي ما يسمونه بـ (البراجماتية)[١].

وقد ادعى رواد المذهب النفعي أن الطبيعة الإنسانية طبيعة أنانية تعمل لتحقيق المصالح الذاتية،ويدعون أن الإنسان إن أحسن إلى الآخرين وحسن خلقه فإنما هو اضطرار ولتحقيق مكاسب خاصة، فالسلوك الإنساني لديهم مفطور على مبدأ المنفعةً كما يزعمون، وإن الإنسان خلق عبدًا لسيدين هما: اللذة والألم وهما اللذان يتحكمان في كل فعل أو قول أو سلوك يصدر عن الإنسان[٢].

فالخير - على حد زعمهم- ما يجلب اللذة وما يحقق المنفعة الشخصية، والشر ما يجلب الألم ويفوت منفعة شخصية وهذه الأصول المادية منافية للحكمة من خلق الخلق، ومناقضة لما فطر الناس عليه من حب الخير للآخرين وما ندبت إليه نصوص الكتاب والسنة من مكارم الأخلاق والإيثار وحب الخير للآخرين قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[٣].

وقال ﷺ: «**أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال**

---

(١) بودون، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ص٥٨٠.

(٢) قباري محمد إسماعيل، قضايا علم الأخلاق، ص ١١ .

(٣) البخاري، حديث رقم (١٣).

إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم»[(١)].

وقد ادعى رائد المذهب النفعي في الغرب (توماس هوبز) أن الأخلاق مسألة نسبية اعتبارية تختلف من مكان إلى آخر ومن زمن إلى آخر، ومن مجتمع إلى مجتمع آخر فما يكون خلقًا حسنًا في مجتمع لا يلزم أن يكون حسنًا في مجتمع آخر، وما يكون قبيحًا في زمن قد يكون خلقًا حسنًا في زمن آخر.

فالأخلاق عندهم مفاهيم اعتبارية نسبية تتواضع عليها الأمم والشعوب وليس لها ثبات في حقيقتها.

بل تتغير وتتبدل من مجتمع إلى آخر، وأن المجتمع هو مصدر تلك القيم وأن العقل الجمعي هو الحاكم على مسألة التحسين أو القدح في تلك القيم والأخلاق.

إن الزعم بأن الأخلاق نسبية مزلق خطير وخطة مسمومة لأصحاب هذا الفكر المادي ومن تابعهم لهدم أصول الأخلاق الحميدة، وحربًا على أصول الشرائع الإلهية الداعية إلى كل خلق حسن في كل زمان ومكان، وهذه المقولة – نسبية الأخلاق- تتردد على ألسنة من يسعون في الأرض فسادًا في كل زمان ومكان وذلك لتكون هذه المقولة وهذا الأصل عندهم ذريعة لمن أراد أن يتمرد على أصول الأخلاق الحميدة زاعمًا بان ما كان يصلح في زمان مضى لا يصلح تطبيقه في هذا الزمن، أو أن هذا الخلق يصلح لقوم دون غيرهم إلى غير ذلك من الأساليب الشيطانية للتنصل من

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٢/ ٦٠٨، حديث رقم (٩٠٦).

أصول الأخلاق الحميدة.

ومن المغالطات المصطنعة لأرباب الهوى في هذا الباب اعتمادهم على مفاهيم بعض الناس السقيمة للأخلاق، مع أن مفاهيم الناس قد تصدق وقد تكذب فهي لا تمثل جزءًا من حقيقة الشيء، وإنما تمثل مقدار إدراك أصحابها لحقيقة هذا الشيء فقد يكون هذا الإدراك مطابقًا وقد يكون مخالفًا، وقد يكون كاملًا وقد يكون ناقصًا.

وهكذا قد يُدخل بعض الناس في الأخلاق ما ليس منها كتقاليد وعادات وأحكام وضعية منحرفة ففساد مفاهيم الناس حول أصل من أصول الأخلاق لا يغير من واقع هذه الحقيقة شيئًا.

وقد روج لهذا الفكر عدد من النظريات الغربية في مختلف العلوم الإنسانية ساقت تلك المجتمعات إلى انحلال خلقي كبير، ومن أبرز تلك النظريات:

نظرية مكيافيلي، وسارتر، ودوركايم، وفرويد، ودافيد هيوم، ونيتشه، وغيرها من النظريات التي كان لها دور جلي فيما حدث من انهيار أخلاقي في المجتمعات الغربية، ونعطي نبذة مختصرة لأصول تلك النظريات ومفاسدها في الآتي:

مكيافيلي وفكرة الغاية تسوغ الوسيلة:

نيقولا مكيافيلي (١٤٦٩-١٥٢٧م) إيطالي، كان من أبرز كتبه كتاب: «الأمير» وهو عبارة عن توصيات للقادة والحكام أنكر فيه بصراحة تامة الأخلاق المعترف بصحتها فيما يختص بسلوك الحكام، فالحاكم يهلك إذا

كان سلوكه متقيدًا بالأخلاق الفاضلة لذلك يجب أن يكون ماكرًا مكر الذئب ضاريًا ضراوة الأسد.

واستنتج ألا يلزم الأمير أن يكون متحليًا بفضائل الأخلاق المتعارف عليها ولكن يجب عليه أن يتظاهر بأنه يتصف بها.

وتعتمد فلسفته على دراسة النجاحات البشرية في وصول الناس إلى غاياتهم ولو كانت هذه النجاحات هي من قبيل نجاحات الأشرار، فالغاية تسوغ الوسائل المنافية لفضائل الأخلاق من أجل تحقيق النجاح المطلوب ومن أجل الوصول إلى الغاية المقصودة وهي الظفر بالحكم والاستئثار به.

وتدعي النظريات المادية ومنها نظرية (ميكافيلي) أن الناس لن تستقيم حياتهم ولن يحققوا التقدم العلمي والنجاح بالنسبة للولاة والحكام إلا إذا نزعوا هذه العواطف الإنسانية من أنفسهم، وأن هذه القيم مجرد دجل وخرافات تهدف إلى رعاية الغوغاء. هؤلاء الفقراء والضعفاء الذين يعوقون التطور الإنساني – كما يزعمون – وأن على الأقوياء تحقيق أهدافهم بأي طريقة كانت ولو كان ثمن ذلك القضاء على هؤلاء الضعفاء الذين يشكلون وصمة ضعف وعار في المجتمع القوي بأكمله ـ كما يزعمون ـ.

وخليفة مكيافلي في انجلترا فيلسوف يدعى هوبس (١٥٨٨-١٦٧٩) وهو صاحب نظرية تنازع البقاء. يرى أن القوة إن لم تكن روحًا للحق فهي على الأقل مقياس للحق. ونظرية كهذه لا تقيم وزنًا لما هو عادل أو غير عادل بل تجعل القوة والحيلة أس الفضائل كما تجعل الحق تابعًا للقوة. ومن الذين لهم يد طولى في تثبيت فلسفة القوة الفيلسوف الألماني هيجل

(١٧٧٠-١٨٣١) فهو يرى أن القوة صورة الحق وأن انتصار القوة معناه انتصار الحق ويرى أن الدولة تمثل القوة وأن على الدولة استعمال القوة للدفاع عن نفسها أو للتسلط على الغير من دون عدل ولا رأفة.

نقد النظرية:

١- وقد جاء الإسلام بتشريع حقوق الراعي والرعية ووردت النصوص المتكاثرة من الكتاب والسنة التي تحذر من التفريط في حقوق الرعية وإضاعة حقوقهم ووجوب إقامة العدل، والسعي إلى تحقيق مصالحهم. قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة ص: ٢٦] وقال ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «...**ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة**»(٢).

وأخبر النبي ﷺ أن من الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: «**ملك كذاب**».أما الإمام العادل فهو من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

---

(١) رواه البخاري (٢٤١٩).

(٢) رواه البخاري (٧١٥٠).

٢- من القواعد المقررة في أصول الفقه أن الوسائل تأخذ حكم المقاصد وهذا بخلاف قاعدة (مكيافيلي). أن الغاية تسوغ الوسيلة.

وفي باب الرد على قاعدة أو نظرية: «الغاية تسوغ الوسيلة» عند مكيافيلي فإن الإسلام قد وضع ضوابط للغايات والوسائل فمن ذلك:

أ- أنه يجب أولًا أن تكون غايات الإنسان في حياته مقيدة بما أذن الله به في شريعته لعباده.

ب) يجب أن يكون سعي الإنسان إلى غايته المأذون بها شرعًا ضمن الوسائل التي ليس فيها إهدار لحق أو عدل أو فضيلة أو واجب وليس فيها ارتكاب لمحرم من المحرمات الشرعية وليس فيها إسراف ولا تبذير.

وغيرها من الضوابط التي تدخل تحت مقاصد الشريعة الإسلامية في درء المفاسد وجلب المصالح.

٣- يتضح الخطأ في الفكرة الباطلة التي انتهى إليها مكيا فيلي في السياسة، إلى اعتبار النسبة الغالبة من السلوك الإنساني هي المقياس الذي يبرر به السلوك، وإلى إهمال جانب الحق والعدل والخير، وإغضاء النظر عن الشر الذي يشتمل عليه السلوك، وإلى اعتبار السلوك مع الناس ذوي المشاعر والآلام.. والحقوق المساوية لحقوق صاحب السلوك..، كالسلوك مع الأشياء غير ذات الحياة.

مع أنّ الواجب يقضي بأن تراعى حقوق الناس ومشاعرهم الإنسانية، ومنها آلامهم.

٤- إن اعتبار تفوق المستهينين بفضائل الأخلاق، والمرتكبين

لرذائلها، في الوصول إلى الحكم وفي تثبيته، على الملتزمين بفضائل الأخلاق المجتنبين لرذائلها، هو المسوغ العلمي لاتخاذ وسائل غير أخلاقية من أجل الوصول إلى الحكم وتثبيته، مطابق تمامًا لاعتبار وسائل الغش، والخديعة، وأكل أموال الناس بالباطل، هي الوسائل المفضلة للوصول إلى الثراء الفاحش، والاستمتاع بلذات الحياة، وتدعيم الرأسمالية المفرطة.

٥- يتساءل كل من له عقل، بل كل من لديه مقدار يسير منه، عن التفسير المنطقي لهذا الرأي المنحرف الذي يعبر عنه بأن الغاية تسوغ الوسيلة، والذي لا يستطيع إنسان في الدنيا أن يقبله على إطلاقه، مهما بلغت به الجريمة، ومهما بلغ به الشذوذ الفكري والنفسي.

فرويد ومدرسته في علم النفس:

ومن النظريات التي روجت للفساد الخلقي في الغرب ولم تسلم البلاد الإسلامية من آثارها نظرية فرويد في علم النفس ما تسمى: بمدرسة التحليل النفسي رائدها سيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩م) يهودي نمساوي مؤسس مدرسة التحليل النفسي.

أسس نظريته:

١) الإلحاد بالله وإنكار الغيبيات، وإنكار الخالق والدين والأخلاق.
٢) الإباحة الجنسية، وأن سلوك الإنسان أساسه الدافع الجنسي كما يزعم.
٣) الكبت في مرحلة الطفولة وأثر كبت الغرائز الجنسية في الإصابة بالأمراض والاضطرابات العصبية التي قد تؤدي إلى نشأة العقد

النفسية – كما يدعي –.

من الآثار السلبية لهذه النظرية:

١) كثرة الإيماءات الداعية إلى الانحلال التي أوردها في كتبه، ومن تلك الكتب: (تفسير الأحلام)، (مدخل إلى التحليل النفسي)، (ثلاث رسائل في نظرية الجنس)، (الذات والغرائز)، (القلق).

٢) تبرير عشق المحارم والزنا بهن.

٣) محاربة الدين.

٤) إيهام أصحاب الأفعال الشاذة المحرمة أن ما يقومون به عمل طبيعي مشروع لا غبار عليه[١].

٥) خدمته للصهيونية في محاربة الدين والأخلاق ونشر الإلحاد وإشاعة الفساد في الأرض.

نقد النظرية:

جاءت دعوة فرويد إلى الانحلال الأخلاقي والإباحية الجنسية منافية للفطرة السليمة وللشرائع الربانية والأوامر الإلهية الداعية إلى العفة وحفظ النسل، والمحذرة من الوقوع في الفواحش والفساد، وشرعت محاربة الأسباب المفضية للوقوع في هذه الجريمة قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

ولقد أثبت بطلان هذه النظرية وما تدعو إليه من فساد وانحلال

(١) علاء بكر، مذاهب فكرية في الميزان، ص٣٠٠.

أخلاقي ما وصلت إليه المجتمعات الغربية من فساد وانتشار للجريمة وللأمراض الفتاكة الناتجة عن تلك الدعوات الإباحية.

وكان من نتاج دعوة فرويد إلى الرذيلة ما أحدثته من مضار اجتماعية خطيرة في المجتمعات الغربية كاختلاط الأنساب وفقدان الرابطة الأسرية الحقيقية وما جلبته تلك الفوضى الجنسية من اضطرابات نفسية وجرائم أخلاقية.

ولقد سبقت الأديان الإلهية في الاهتمام بالنفس البشرية ودراستها وتزكيتها، وقد جاءت الآيات القرآنية والسنة النبوية بالدعوة إلى تزكية النفس وإصلاحها قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨].

ودعا الله تعالى إلى توجيه النظر إلى خلق الله تعالى للنفس الإنسانية ودراستها قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

ولقد تعرضت نظرية فرويد إلى النقد العلمي من علماء مسلمين وغير مسلمين وتولى علماء الدين والنفس تفنيد دعاواه في زعمه انحصار دوافع الإنسان بالدافع الجنسي.

لقد جاء الإسلام في الاعتراف بالدوافع الفطرية، وتنظيف مكانها في الفكر والشعور. يقول تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ﴾ [آل عمران: ١٤]، فيجمع في هذه الآية شهوات الأرض ويقرر أنها أمر واقع مزين للناس، لا اعتراض عليه في ذاته، ولا

إنكار على من يحس بهذه الشهوات.

وطريقة الإسلام في معاملة النفس الإنسانية هي الاعتراف بالدوافع الفطرية كلها من حيث المبدأ وعدم كبتها في اللاشعور، ثم إباحة التنفيذ العملي لها في الحدود الشرعية.

وفي هذه الحدود - التي تمنع الضرر - يبيح الإسلام الاستمتاع بطيبات الحياة، بل يدعو إليه دعوة صريحة فيقول تعالى مستنكرًا: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧]، ويقول: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۖ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ﴾ [الأعراف: ٣١].

وفي الحديث يقول ﷺ: «**حُبِّبَ إليَّ من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة**».

ويتحقق ذلك بالطرق الشرعية بالزواج الشرعي.

إميل دوركايم ونظرية العقل الجمعي:

ومن النظريات ذات الأثر الكبير في انحراف الفكر الغربي في تأصيل مفهوم الأخلاق.

نظرية العقل عند دور كايم، ومؤسسها يهودي فرنسي تخصص في علم الاجتماع (١٨٥٨-١٩١٧م) بل ويعتبر المؤسس الثاني لهذا العلم بعد أستاذه الفرنسي (أوجيست كونت).

من مؤلفاته: (تقسيم العمل في المجتمع)، و(قواعد المنهج الاجتماعي)، (الانتحار)، و(الأشكال الأولية للحياة الدينية)[١].

أراد هدم الدين والأخلاق، إذ زعم في فلسفته العقل الجمعي أن العقل المشترك للجماعة الواحدة هو مصدر الدين والأخلاق والموجه لكل فرد والمكون لأفكار الأفراد ومذاهبهم[٢]، وبناء على ذلك يتم تفسير الظواهر الاجتماعية تفسيرًا ماديًا لا يعترف بالله مع إنكار الغيب، وأن الإنسان يكون أسيرًا لأحكام العقل الجمعي مسلوب الإرادة والحرية الفردية.

وأن العقل الجمعي دائم التغيير يُحل اليوم ما كان حرمه بالأمس والعكس كذلك دون ضابط ولا منطق ولا معقول؛ فلا يمكن بمقتضى سلطان العقل الجمعي المتغير تصور ثبات شيء من القيم إطلاقًا، فلا الدين ولا الأخلاق ولا سائر القيم لها ثبات بل هي متغيرات بسلطان العقل الجمعي – كم يزعم – .

وتدعي هذه النظريات المادية وغيرها أن الدعوة إلى الفضائل أمراض اجتماعية وأنها من مزاعم رجال الدين.

ولهذا تنكر المادية على الديانات جميعها هذه المشاعر الإنسانية التي يعمل الدين على غرسها وتنميتها في نفوس المتدينين من الرحمة والمودة والإيثار والعطف والإحسان والتكافل وكل ما يشيع في كيان الإنسان من

---

(١) بودون بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ص٢٩٧.

(٢) محمد أحمد بيومي، علم الاجتماع الديني، ص١٠٥.

عواطف إنسانية نحو أهله وقرابته ومجتمعه والإنسانية كلها بل عالم الحيوان أيضًا.

من الآثار الهدامة لهذه النظرية:

١- الترويج للإلحاد ومحاربة الدين وقداسته.

٢- سلب الإرادة الفردية والمسؤولية الفردية مما يؤدي إلى تبرير التصرفات والسلوكيات الفردية الخاطئة وتحرير الأفراد من تبعية أفعالهم.

٣- بدعواه أن المجتمع هو الذي يخلق الأديان والعقائد والقيم فيه حط من قيمتها ومن مكانتها وأهميتها فبذلك يدعو إلى الزعم بأن الإلحاد والانحلال الخلقي أمر حتمي في كل مجتمع وقابل للتغيير من مجتمع إلى آخر.

٤- انتقال الآثار الهدامة لهذه النظرية إلى طائفة من علماء الاجتماع المسلمين في تفسيرهم للظواهر الاجتماعية واعتبار الدين أحد هذه الظواهر الاجتماعية كما يزعمون، لذا تصبح النصوص الإلهية والثوابت الدينية قابلة للنقد والاعتراض.

نقد النظرية:

والقول بسلب الإرادة الفردية والمسؤولية الفردية، زعم يبطله ما جاءت به الشرائع الإلهية من إقرار حرية الإرادة الإنسانية ومسؤولية الفرد عن أعماله، ففي باب حرية الإرادة الإنسانية تقرر الآيات تلك الحقيقة قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وقال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وفي نفس المسار يؤكد الله تعالى على تحمل الشخص نتاج عمله، وأنه مسؤول عن أفعاله قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ومنهج أهل السنة منهج الوسط والحق في باب أفعال العباد بين المرجئة الذين سلبوا الإنسان حرية الإرادة وبين المعتزلة الذي زعموا أن الإنسان خالق لأفعاله.

موقف نيتشه من الأخلاق:

يدعي الفيلسوف الألماني (نيتشه) أن الرحمة والتعاون والحب وكافة الفضائل التي تنادي بها الأديان هي مجموعة من الدجل والخرافات تستهدف رعاية الغوغاء والدهماء والقطعان ـ وهؤلاء جميعًا هم فقراء ومرضى وضعفاء يعوقون التطور الإنساني ـ في حين أنه يجب أن نخلص لنوعنا البشري بأن نبقي على الأقوياء في الذهن والجسم والروح ونعمل على إفناء الآخرين.

والملاحظ أن هذه النظريات الغربية في مجال الأخلاق وتباينها الظاهري إلا أنها تنطلق جميعها من منطلقات مادية نفعية، فسواء كانت النفعية المكيافيلية التي تحمل شعار الغاية تسوغ الوسيلة كما أشرنا إليها، أو نفعية (جون ديوي)، أو النظرية الفردية عند (هوبز) ومن سلك مسلكه

الذي ادعى أن الطبيعة الإنسانية طبيعة أنانية تعمل لمصلحة الذات وأن الإنسان كما يزعم اخترع المبادئ الأخلاقية ليتخذها وسيلة تحقق منفعته الشخصية، أو المذهب (الأبيقوري) وأن الأخلاق نفعية لتحقيق مبدأ اللذة أو غيرها من النظريات الغربية التي ينحو كل منها منحى في تفسير منشأ المبادئ الأخلاقية فإن كل هذه النظريات وغيرها من النظريات الغربية تنطلق من منطلقات مادية تنكر الأصل الديني للأخلاق وتدعو إلى تحقيق المصالح الشخصية بأي وسيلة كانت وأن السعادة الحقة – على حد زعمهم – هي التي يشعر بها الإنسان نتيجة الإشباع ودوافعه الطبيعية وغرائزه الحسية دون التقيد بدين أو خلق قويم.

ومع ما نراه من التزام الغربيين ببعض القيم في بعض الأحوال كالصدق والأمانة، واحترام الأنظمة، والانضباط في المواعيد، ومع إقرارنا بوجود مثل هذه القيم عند طائفة منهم حتى أصبح يضرب بهم المثل في الالتزام بها إلا أنها تبقى في الغالب لتحقيق مصالح ومنافع شخصية أو لدفع مضار قد تلحق بهم إن لم يلتزموا بمثل هذه الآداب في تعاملاتهم فيما بينهم، وقد يكون الالتزام الظاهري بمثل هذه الآداب لخوف عقوبة القانون والسلطان البشري، وتنعدم بانعدام ذلك الرقيب البشري، أو لخشية النقد والاستهجان المجتمعي الذي تربى على احترام مثل تلك الآداب، ومع ما للتربية من دور في التزامهم بهذه الآداب إلا أنها تبقى ظاهرية وباقية ببقاء الرقيب البشري وتختفي وتختل هذه المعايير عند كثير منهم إذا غاب ذلك الرقيب فليست أصيلة في نفوسهم تنبع من دافع ديني طاعة لله تعالى ورجاء ثوابه وخوفًا من

عقابه كأصول الأخلاق الإسلامية، التي تـخلى عنها وللأسف الكثير من المسلمين.

هـذه بعض مزاعم وأصول الفكر الغربي الأخلاقية وما تمثله من انتكاسة في الفطرة ومحاربة للدين ومنافاة للعقول السليمة، ولنتعرف على جانب من خصائص الأخلاق في الإسلام في التالي:

نماذج من الأخلاق الفاضلة في الإسلام:

وسوف نستعرض فيما يلي طائفة من الأخلاق الفاضلة في الإسلام.

الصــــدق:

مصدر قولهم صَدَقَ يصْدُقُ صِدْقًا، وهو مأخوذ من مادة (ص د ق)، التي تدلُّ على قوة في الشيء قولًا أو غير قول، ومن ذلك الصدق خلاف الكذب؛ لقوته في نفسه، ولأن الكذب لا قوة له[(١)].

وفي الاصطلاح قال الراغب: «الصدق: مطابقةُ القول الضمير والمخبر عنه معًا»[(٢)].

وقيل: استواء السر والعلانية والظاهر والباطن بألاَّ تُكَذِبَ أحوالُ العبد أعمالَهُ، ولا أعمَالُهُ أحوالَه.

والصدق شامل لحياة الإنسان كلها، وعلاقته مع خالقه ومع الناس،

---

(١) نضرة النعيم، ٦/ ٢٤٧٣.

(٢) الراغب، المفردات، ص٢٧٧.

فيدخل في القول والعمل والحال(١).

والصدق رأس الفضائل وأساس مكارم الأخلاق، أمر الله به وأثنى على المتصفين به، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[التوبة: ١١٩].

وحث عليه ﷺ وأخبر أنه الباعث على كل خير والموصل إلى منازل الأبرار، فقال ﷺ: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقًا، وإياك والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا**»(٢).

وأخبر جل وعلا أن الصدق نجاة من الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقد أخبر جل وعلا في آيات عدة ما أعده الله من النعيم للصادقين، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

والصدق سمة الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، فقال تعالى

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ٢/ ٢٨١.

(٢) البخاري، حديث رقم (٥٢١٩)، ومسلم، حديث رقم (٢١٣٠).

واصفًا يحيى عليه السلام: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٩].

ووصف نبيه إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

وقال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١].

وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

فالصدق من سمات الأنبياء والملائكة والصالحين من عباد الله المؤمنين، وقد تمثل الصدق في حياته ﷺ فكان أفضل مثال للصدق في حياته ودعوته ﷺ، وكان ذلك فيه بمثابة السجية والطبع، فعُرف بذلك حتى قبل البعثة، وكان لذلك يُلقب بالصادق الأمين، واشتهر بهذا وعُرف به بين الناس، وعندما جمع قريشًا فقال لهم: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريدُ أن تُغير عليكم أكنتم مُصَدِّقي؟**»، قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا...» (١).

والصدق دليل استقامة الإنسان وسلامته، ومتى عرف المرء بالصدق وثق الناس بقوله، والصدق له آثاره العظيمة في حياة الناس والمجتمع.

(١) رواه البخاري (٤٤٩٢).

فالصدق طمأنينة، قال ﷺ: «**الصدق طمأنينةٌ، والكذب ريبةٌ**»(١).

والصدق سبب للبركة في البيع والأرزاق، قال ﷺ: «**البيّعان بالخيار ما لم يتفرقا** ـ أو قال: حتى يتفرقا ـ **فإن صدَقَا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحِقَت بركةُ بَيْعِهما**»(٢).

وكل ما قيل في محاسن الصدق يظهر في مقابلة مساوئ الكذب، وهو صفة من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

وقال ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا ائتِمنَ خَانَ**»(٣).

ولا يجتمع كمال الإيمان والكذب في قلب مسلم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وأفحش الكذب ما كان كذبًا على الله عز وجل أو رسوله ﷺ، ومن الكذب على الله التكذيب بآيات الله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى

---

(١) سنن الترمذي، رقم (٢٥٢٠).

(٢) البخاري، رقم (٢٠٧٩).

(٣) البخاري، رقم (٣٣).

ﱡﭐٱلظَّٰلِمِينَ ﱠ [هود: ١٨].

وأعظم الكذب بعد الكذب على الله الكذب على نبيه ﷺ، ففي البخاري عن المغيرة بن شعبة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن كذبًا عليَّ ليس ككذب على أحد، من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوَّأ مقعده من النار**»(١).

والكذب يؤدي بصاحبه إلى النار، كما أخبر النبي ﷺ بأن الكذب يهدي إلى الفجور، وأن الفجور يهدي إلى النار، والكذب يورث فساد الدين والدنيا، والكذاب مهان بين الناس ذليل محتقر حتى وإن جاملوه، فالكذب عقوبة في الدنيا قبل الآخرة، إذ يذهب المروءة والبهاء ويورث الذل والمهانة، وهو دليل على خسة النفس ودناءتها، ومن الناس من يكذب ويصطنع الكذب لإضحاك الناس، وهو موعود بالعذاب والعياذ بالله، قال ﷺ: «**ويلٌ للذي يُحدِّثُ بالحديث ليُضحك به القوم فَيَكذِبُ ويلٌ له ويلٌ له**»(٢).

والمسلم يؤمر بالتثبت عند سماع الأخبار، قال تعالى: ﱡﭐيَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﱠ [الحجرات: ٦].

---

(١) البخاري، رقم الحديث (١٢٩١).

(٢) سنن أبي داود، (٤٩٩٠).

وقال ﷺ: «**كفى بالمرء كذبًا أن يُحدث بكل ما سمع**»(١).

الحِلْـمُ:

مصدر حَلُمَ فُلانٌ أي صار حليمًا، وهو مأخوذ من مادة (ح ل م) التي تَدُلُ على ترك العجلة(٢).

والحلم في الاصطلاح يدور حول معنى ضبط النفس عند شدة الغضب وترك الانتقام مع القدرة عليه(٣).

ويكفي الحِلْمُ منزلة ومكانة أن وصف الله نفسه به في كتابه في معرض ذكره لفضله ورحمته ومغفرته لعباده، وقد جاءت صفة الحلم مقرونة بصفات المغفرة والعلم والغنى والشكر في آيات عدة، قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وتختتم آية المواريث بقوله تعالى: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢].

وقال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ

(١) صحيح مسلم، (٥).

(٢) نضرة النعيم، ٥/ ١٧٣٥.

(٣) ينظر: مفردات الراغب، ص١٢٩، وتهذيب الأخلاق، ص٢٣.

شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧].

وجعلها الله تعالى صفة مدح وثناء على أنبيائه، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

وقال تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

وبَشَّرَ الله نبيه إبراهيم بإسماعيل، ووصفه بالحلم، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

وقد تمثل الحلم في سيرته ﷺ ما لم تنتهك حرمة من حرمات الله تعالى، فقد كان ﷺ حليمًا في دعوته يتحمل الأذى الذي يلحق به في نفسه، فعن أبي هريرة –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: إن رجلًا أتى النبي ﷺ يتقاضاه فأغلظَ، فَهمَّ به أصحابُه، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالًا**»، ثم قال: «**أعطُوه سنًّا مثل سنه**»، قالوا: يا رسول الله، لا نَجِدُ إِلاَّ أَمْثَلَ مِنْ سِنِّهِ، قَالَ: «**أعْطُوهُ، فإِنَّ خَيْرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً**»(١).

ومن حلمه ﷺ ما ورد عن أنس بن مالك –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُردُ نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشيةُ البُرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمدُ مُرْ لي من مال الله

(١) البخاري، رقم (٢٣٠٦).

الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء»(١).

والأمثلة على حلمه ﷺ من سيرته كثيرة، وقد أخبر عن نبي من أنبياء الله، كما ورد عن عبدالله بن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء ضربه قومُهُ فأدموهُ، فهو يمسحُ الدم عن وجهه ويقول: **رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»(٢).

الحلم من الخصال التي يحبها الله ورسوله ﷺ، فقد قال ﷺ لأشج بن عبد القيس: «**إن فيك لخصلتين يُحبهما الله: الحِلْمُ والأناةُ**»(٣).

وفي مقابل الحلم الغضب، وهو صفة قبيحة عندما يكون مبدؤها الانتقام للنفس والتشفي من الأقران، ويكون الغضب محمودًا إذا صدر الغضب من الله أو لله، وقد ورد إخبار الله تعالى بغضبه على اليهود والمنافقين، ومن خالف أمره جل وعلا وانتهك حرماته، من ذلك غضبه جل وعلا على اليهود، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

وذكر جل وعلا غضبه على المنافقين والمشركين، قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ

---

(١) البخاري، رقم (٥٨٠٩).

(٢) البخاري، رقم (٦٩٢٩).

(٣) البخاري، رقم (٨٧)، ومسلم، رقم (١٨).

مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

ومع حلمه ﷺ الذي ذكرنا جانبًا منه فيما مضى إلا أنه كان يغضب لله إذا انتهكت حرمات الله، ففي الحديث عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: رخَّصَ رسولُ الله ﷺ في أمر فتنزه عنه ناسٌ من الناسِ، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فغضب حتى بان الغضبُ في وجهه. ثم قال: «**ما بال أقوامٍ يرغبون عمَّا رُخِّصَ لي فيه، فوالله لأنا أعلمُهُم بالله وأشدُهُم له خشية**»(١).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا خطب احمرَّتْ عيناه وعلا صوتُهُ، واشتد غَضَبُهُ حتى كأنه مُنذِرُ جيش يقول: صبَّحكُم ومسَّاكُم...»(٢).

والغضب إذا كان انتقامًا للنفس، وتجاوز حدود ما شرع الله تعالى أودى بصاحبه إلى المهالك، وقد حذر منه ﷺ، وأرشد إلى طرق توقيه، ففي الحديث عن سليمان بن صُرَدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: استب رجُلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جُلوسٌ وأحدهما يسُبُ صاحبه مغضبًا قد احمرَّ وجهُهُ، فقال النبي ﷺ: «**إني لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»(٣).

وقال ﷺ: «**إذا غضب أحدُكُم وهو قائم فليجلس فإذا ذهب عنه**

(١) البخاري، رقم (٦١٠١)، ومسلم، رقم (٢٣٥٦)، واللفظ له.

(٢) صحيح مسلم، رقم (٨٦٧).

(٣) البخاري، رقم (٦١١٥).

الغضبُ وإلا فليضطجع»(١).

وكان من وصيته الجامعة ﷺ أن رجلًا أتاه فقال أوصني. قال: «**لا تغضب**»، فردد مرارًا، قال: «**لا تغضب**»(٢).

والغضب المذموم من أسباب نشر الأحقاد والضغائن بين الناس ومُورث لغضب الله تعالى، يقول ابن القيم رحمه الله: «دخل الناسُ النار من ثلاثة أبواب: باب شبهة أورثت شكًا في دين الله، وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته، وبابُ غضب أورث العُدوان على خلقه»(٣).

العِفَّة:

العِفة: مصدر قولهم عفَّ عن الشيء يَعِفُ عِفَّةً وهذا مأخوذ من مادة (ع ف ف) التي تدلُ على الكف عن القبيح(٤).

وفي الاصطلاح: ضبط النفس عن الشهوات، واجتناب السرف في الملذات وقصد الاعتدال.

والعفة من الأخلاق الحميدة التي حثت الشريعة الإسلامية عليها ورغبت فيها، وقد أمر الله بها نبيه ﷺ والمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [طه: ١٣١].

---

(١) سنن أبي داود، (٤٧٨٢).

(٢) البخاري، رقم (٦١١٦).

(٣) الفوائد، ص٥٩.

(٤) نضرة النعيم، ٧/ ٢٨٧٢.

وأثنى جل وعز على الفقراء المتعففين عن المسألة، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وأرشد تبارك وتعالى إلى العفة لمن لم يقدر على النكاح، قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

والعفة تشمل العفة عن المحارم بضبط الفرج عن الحرام، وعدم الخوض فيما يثير الشهوات من السماع المحرم أو النظر المحرم؛ وتكون العفة بحفظ اللسان عن القدح في الأعراض بالسب والقذف وتجنب الغيبة والنميمة والفحش في القول وكل ما يستقبح قوله، والعفة عن أكل المال الحرام، مع العفة عن سؤال الناس وحفظ النفس عن التطلع إلى ما لدى الآخرين من متع الحياة الدنيا والرضا والقناعة بما قدر الله للإنسان من الأرزاق، مع بذل الأسباب الشرعية للكسب الحلال.

ومن العفة التي أمر الله بها عفة المرأة المسلمة عن التبرج وعن الخضوع بالقول، وعن مخالطة الرجال وكل ما يوصل إلى معصية الله والوقوع في الفاحشة.

وكان من دعائه ﷺ أنه كان يقول: «**اللهم إني أسألك الهدى والتُقى**

والعفاف والغنى»(١).

ومن طلب العفة وعمل بأسبابها وفقه الله إلى كل خير، وكان الله له معينًا ومسددًا، كما ورد في الحديث، قال ﷺ: «**ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف**»(٢).

ومن عف نفسه عن سؤال الناس عفه الله وأغناه، ففي الحديث عن أبي سعيد الخدري -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى إذا نفذ ما عنده قال: «**ما يكن عندي من خير فلن أدَّخره عنكم، ومن يستعفف يُعِفَّه الله، ومن يصبر يُصبره الله، وما أُعطيَ أحدٌ من عطاء خيرٌ وأوسع من الصبر**»(٣).

وقد ضرب يوسف عليه السلام أعظم الأمثلة في العفة عن الوقوع في الفاحشة مع قوة الدوافع المؤدية إليها، فقد كان شابًا عزبًا غريبًا والتي دعته ذات منصب وجمال وعدته بالحماية والتمكين وتوعدته إن لم يفعل بالسجن والعذاب، ومع توافر هذه الدواعي كلها صبر وثبت إيثارًا لما عند الله، قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ

---

(١) مسلم، رقم الحديث (٢٧٢١).

(٢) سنن الترمذي، رقم الحديث (١٦٥٥).

(٣) البخاري، رقم (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)، واللفظ له.

وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٣-٢٤].

وللعفة آثار عظيمة في حياة الأفراد والمجتمعات، إذ يجني العفيف ثمرة عفته في الدنيا والآخرة من طمأنينة النفس وراحة البال، ومحبة الله تعالى، والفوز برضوانه، وانظر إلى الثلاثة الذين آواهم المبيت في ذلك الغار الذي سُد عليهم، وأشرفوا على الهلاك، وعلموا ألا ملجأ من الله إلا إليه، فلجؤوا إلى الله بصالح أعمالهم، فذكر أحدهم بره بوالديه، وذكر الآخر حفظه للأمانة وعفته عن أكل المال بالحرام، وقال الآخر: «اللهم إنه كان لي ابنة عمّ من أحب الناس إليَّ وأني راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار فطلبتها حتى قدرتُ فأتيتها بها فدفعتها إليها، فأمكنتني من نفسها، فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركت المائة دينار، فإن كنت تعلمُ أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، ففرج الله عنهم فخرجوا»(١).

وأما إذا شاعت الفاحشة في بلد اضطرب بناء المجتمع وتفككت الأسر وهدمت البيوت واندثرت الفضيلة وعمت الجريمة، والعياذ بالله، وكانت مؤذنة بعقوبة عاجلة من الله في الدنيا وسخطه في الآخرة.

الحيــاء:

الحياء: مصدر من قولهم حَيِيَ، وهو مأخوذ من مادة (ح ي ي) التي تَدُلُ على الاستحياء الذي هو ضد الوقاحة(٢).

---

(١) البخاري، (٣٤٦٥).

(٢) نضرة النعيم، ٥/ ١٧٩٥.

وفي الاصطلاح: خُلقٌ يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق الله تعالى أو حقوق عباده(١).

ومثل ذلك قال الراغب: الحياء انقباض النفس عن القبائح وتركُها(٢).

والحياء قسمان: غريزي ومكتسب، والحياء المكتسب هو الذي جعله الشارع من الإيمان وهو المكلف به دون الغريزي، وقد ينطبع الشخص بالمكتسب حتى يصير كالغريزي(٣).

والحياء من صفات المولى عز وجل (الحييُّ) كما ورد في الحديث: «إن ربكم حيِيٌّ كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه يدعوه أن يردهما صفرًا، ليس فيهما شيءٌ»(٤).

وهو من صفات النبي ﷺ، فقد كان ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، كما يروي تلك الصفة أبو سعيد الخدري -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه»(٥).

وعندما دخل عليه عثمان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان كاشفًا عن فخذه غطى فخذه

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ٢/ ٢٦٠.

(٢) المفردات، ص١٤٠.

(٣) نضرة النعيم، ٥/ ١٧٩٨.

(٤) سنن الترمذي، حديث رقم (٣٥٥٦).

(٥) البخاري، رقم (٢٧٨).

ﷺ، وقال: «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة**»[١].

والحياء شعبة من شُعب الإيمان، قال ﷺ: «**الإيمانُ بضعٌ وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان**»[٢].

والحياء يدعو إلى كل خير ويباعد من كل شر، قال ﷺ: «**الحياء خير كله**»[٣]، وقال ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»[٤].

والحياء داع إلى كل خير صارف عن الشر يمنع المرء من فعل القبيح أو قوله، ويحمل صاحبه على التحلي بكل جميل ومحبوب، غير مانع من أن يقول حقًا أو يطلب علمًا أو يأمر بمعروف أو ينهى عن المنكر: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

قال مجاهد: «لا يتعلم العلمَ مستحي ولا مستكبر»[٥].

وكلما زادت مراقبة العبد ربه كمل حياؤه، إذ المراقبة تحمل العبد على الاستقامة في الأقوال والأعمال والبعد عما يغضب الخالق وما يقدح في مروءة العبد.

ومن تهاون في الوقوع في المعاصي نقص حياؤه وقلت مروءته، قال ابن القيم: «من عقوبات المعاصي ذهابُ الحياء الذي هو مادة حياة القلب،

---

(١) صحيح مسلم، (٢٤٠١).

(٢) البخاري، (٩).

(٣) مسلم (٦١).

(٤) البخاري (٦١١٧).

(٥) البخاري مع الفتح، ١/ ٢٧٦.

وهو أصل كل خير، وذهابُهُ ذهابُ الخير أجمعه»(١).

ولا يقع في الفحش والبذاءة إلا من بَعد عن خلق الحياء، وهذا مصداق لحديث النبي ﷺ، قال ﷺ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»(٢).

و الحياء يكسو المرء الوقار فلا يفعل ما يُخلِ بالمروءة، وهو دليل على كرم سجية صاحبه وطيب منبته وإيمانه.

والحياء هو الخلق الحائل بين المرء وبين البذاءة والمزجورات كلها؛ بقوته يضعف ارتكابُهُ إياها وبضعف الحياء تقوى مباشرتُهُ إياها، وقد أحسن من قال:

ورُبَّ قَبِيحةٍ ما حالَ بيني　　　وبين رُكُوبِهَا إلا الحياءُ
فكان هُو الدَّواءُ لها ولكن　　　إذا ذهَبَ الحياءُ فلا دواءُ

ومن قل حياؤه وقع في فحش القول، والقُبح في المنطق، وهذا مما لا يحبه الله تعالى، قال جل وعلا: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨].

وقال ﷺ: «**إن شَرَّ الناسِ من تركهُ النَّاسُ – أو ودعهُ الناسُ – اتقاء فُحشِهِ**»(٣).

(١) الداء والدواء، ص١٣١.
(٢) البخاري، (٦١٢٠).
(٣) البخاري، (٦٠٥١).

فالبذاءة دليل قلة الحياء، وتؤدي بصاحبها إلى الهوان على الناس، وأذية المسلمين، ونفرة الناس منه، ومداومة البذاءة من مخالطة مجالس الفحش والسوء ورفقاء السوء.

علو الهمة:

لغة: مصدر من قولهم: علا يَعْلُو عُلُوًّا، وهو مأخوذ من مادة (ع ل و) التي تدلُ على السمو والارتفاع(١).

وفي الاصطلاح: يدور معناها حول: استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور(٢).

وفي المصباح: الهمة بالكسر: العزم، وقد تُطلق على العزم القوي، فيقال له: همة عالية(٣).

وعلو الهمة يشمل حياة المسلم كلها في عباداته ومعاملاته، وجميع شؤون حياته، ولعل مما يحسن الوقوف عنده في هذا المقام لاتصاله الوثيق بمجالنا، ولحاجة الدارسين إليه، الهمة في طلب العلم، والعلمُ أرفع مقام تطمحُ إليه الهمم، وأشرف غاية تتسابق إليها الأمم، فلا يخلصُ إليه الطالب دون أن يقاسي شدائد ويتحمل متاعب، ولا يستهين بالشدائد إلا كبير الهمة ماضي العزيمة(٤).

---

(١) نضرة النعيم، ٧/ ٢٩٨٣.

(٢) الخضر حسين، وسائل الإصلاح، ص٥٧.

(٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٣٤٩.

(٤) نضرة النعيم، ٧/ ٢٩٨٤.

ولقد كان الصحابة والسلف رضوان الله عليهم المثل الأعلى في علو الهمة في طلب العلم، وكان على رأسهم عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس، والأئمة الأربعة: أبو حنيفة النعمان، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم كثير، فعمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يتناوب مع جار له من الأنصار النزول إلى رسول الله ﷺ.

وفي مقابل علو الهمة والجد والاجتهاد تأتي آفة العجز والكسل التي استعاذ منها ﷺ، فقد كان من دعائه ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب القبر**»(١).

والكسل مدخل للشيطان على المسلم يحول بينه وبين طاعة ربه وعبادته وتحقيق منافع الدنيا والآخرة، وهو دليل على سقوط الهمة، ويورث الذل والهوان، ويصرف المسلم عن معالي الأمور.

الوسائل التربوية لاكتساب الأخلاق الفاضلة:

ذكرنا عند بيان أسس ومنطلقات الأخلاق الحسنة بأنها: إيمانية، وجدانية، فطرية، مكتسبة، وأشرنا إلى أن لدى النفس الإنسانية استعدادًا فطريًا لاكتساب مقدار ما من الأخلاق الفاضلة.

فكيف تكتسب الأخلاق الفاضلة؟ وما الوسائل والأسس التي يلزم اتباعها لمن أراد أن ينال فضل تلك الأخلاق الفاضلة، ويرقى بنفسه إلى مصاف محاسن الأخلاق وينأى بنفسه عن رذائلها؟ هناك أساليب عديدة

(١) مسلم، (٢٧٢٢).

نذكر منها ما يلي:

١- **الاهتداء بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ**، وهذه أهم وأشمل وسيلة يسلكها المسلم لاكتساب الأخلاق الفاضلة، فما وجدت في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ من أوامر وتوجيهات إلهية فخذ بها والتزم بها، وما وجدت فيها من نواهٍ فابتعد عنها.

٢- **الطمع في مرضاة الله والخوف من عقابه**، فهذا سبيل المسلم في كل شؤون حياته من عبادات وشرائع ومعاملات وسبل كسب الأخلاق الفاضلة، واستحضار منزلة الأخلاق الفاضلة ومكانتها، وما أعده الله لأهلها من الثواب الجزيل يعين على الصبر والمصابرة والتخلق بالخلق الحسن.

٣- **تعلم الأخلاق الفاضلة**، والتدرب عليها، فكم من إنسان لا يعلم أسس الأخلاق الفاضلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أو ما قعده العلماء من قواعد وأسس استنبطوها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا يتوصل إليها إلا بالقراءة والتعلم، ومع القراءة والتعلم والاطلاع يحتاج الإنسان إلى تدريب ومجاهدة نفسه على تطبيقها وتكرارها، والتدرب عليها حتى تصبح عادة يسهل عليه أداؤها من غير بذل جهد، ومما يدل على أن مجاهدة النفس وتدريبها على الخلق الحسن وسيلة إلى تحققه ما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله**»(١) وقال ﷺ: «**إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم**»(٢).

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (١٣٦١).

(٢) الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٤٢).

أي يحاول أن يُعلم نفسه ويدربها على هذه الأخلاق حتى يعينه الله على تحقيقها، وقد يجد الإنسان العنت والمشقة في تدريب نفسه للتخلص من سلوك سيئ إلى خلق حسن، خصوصًا إذا كان ذلك السلوك السابق راسخًا في النفس لزمن طويل، فمثلًا شارب الدخان إذا أراد أن يقلع عنه قد يجد من المشقة والعنت الشيء الكثير ولكنه إذا استعان بالله تعالى وبذل أسباب التخلص من هذا الخلق الذميم وجاهد نفسه على ذلك وأثر مرضاة الله تعالى على هواه فسيجد الفرج بإذن الله تعالى، وهذا تحقق لكثير من الناس أصحاب الهمم العالية والعزائم الراسخة والإيمان القوي وكذلك في سائر الأخلاق الحميدة يكون تعلمه في أول الأمر شاقًا على النفس إذا لم تكن في أصل طبيعتها الفكرية ولكنه بتدريب النفس عليه والتمرس والصبر والمران يصبح ذلك الخلق سجية ثابتة يندفع الإنسان إلى ممارسة ظواهرها اندفاعًا ذاتيا دون أن يجد مشقة أو عقبة من داخل نفسه.

٤ – القدوة الحسنة:

ولا أعظم من أن يتخذ المسلم رسول الله ﷺ قدوة حسنة في حياته كلها، كما أرشدنا الله تعالى إلى ذلك، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وسيرة رسول الله ﷺ كلها تعلمنا مكارم الأخلاق،كيف لا وقد وصفته عائشة ﵂ بأنه كان خلقه القرآن ﷺ وعلينا أن نتخذ هديه ﷺ نبراسًا لنا في حياتنا نهتدي بهديه ﷺ في سلوكه وأقواله وأفعاله الذي لم يكن ينطق عن

الهوى بأبي وأمي هو رسول الله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤]، فدونك أيها المحب لرسول الله ﷺ سيرته العطرة وأخلاقه الفاضلة مدونة إجمالًا في كتاب الله تعالى ومفصلة في كتب الحديث والسيرة، وأوصيك أيها الحبيب بقراءة ما صح من سيرته ﷺ ومن أفضل الكتب في هذا الجانب كتاب: زاد المعاد في هدي خير العباد للإمام ابن القيم رحمه الله(١).

ويأتي من بعده ﷺ قراءة سير وتراجم الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، فقراءة سير الصالحين ترفع الهمم، وتعلو بالأخلاق، وتهذب السلوك، إضافة إلى الاقتداء بالصالحين من المعاصرين، ولا يخلو عصر من عصور الأمة الإسلامية من طائفة صالحة تصلح أن تكون قدوة حسنة وهو ما أخبر به نبينا محمد ﷺ: «**لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»(٢).

ولا شك أن تأثير القدوة المشاهدة يكون ذا أثر كبير في المتتلمذ على أصحاب الخلق الفاضل في سلوكهم وحديثهم، وما حققوه من نجاحات وإنجازات في حياتهم.

والقدوة الحسنة هي المثال الواقعي للسلوك الخلقي الأمثل، وهذا المثال والقدوة قد يكون مثالًا حسيًا مشاهدًا ملموسًا يقتدى به، وقد يكون

---

(١) ومن الدوائر والموسوعات التي جمعت أخلاق النبي ^ الفاضلة موسوعة: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ^ في اثني عشر مجلدًا.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٣٤٤٢).

مثالًا حاضرًا في الذهن بأخباره وسيرته، فالقدوة من أنجع المؤثرات في تكوين الشخصية ومن أكثر الأسباب أثرًا في اكتساب الخلق الحسن أو ما يضاده.

٥ ـ الرفقة والبيئة الصالحة:

وهذه من المؤثرات الهامة في حياة الإنسان سواءً إلى الخير أو إلى الشر والعياذ بالله، فمن أراد أن يكتسب الأخلاق الفاضلة فليحسن انتقاء الجليس الصالح الذي يدله على الخير وليبتعد عن جليس السوء الذي يورده المهالك، وكما أخبر النبي ﷺ في تمثيله لأثر الجليس الصالح والجليس السوء قال ﷺ: «**إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير...**»[1] الحديث.

وتدعو الشريعة الإسلامية إلى اختيار الجلساء الصالحين قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨].

ورفقاء السوء ضلال في الدنيا وخزي وندامة وعداوة في الآخرة، كما أخبر الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وما أكثر رفقاء السوء الذين يضلون الناس عن طريق الرشاد، كما أخبر جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا

---

(١) رواه البخاري، حديث رقم (٥٢١٤).

﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ – ٢٩].

فالحذرَ الحذر أيها الحبيب من مخالطة رفقاء السوء الذين يزينون لك الباطل ويدفعونك للوقوع فيه وعليك بمن يدلك على الخير ويرشدك إلى الحق.

إن مخالطة مجتمع المنحرفين وأهل الفسق والضلال يُكسب الشخص المخالط كل خصائصهم القبيحة وإن ملازمتهم ومصاحبتهم يفقد الإنسان معيار الحق الذي يميز به بين الحق والباطل، فالحق لديه ما استحسنوه والباطل ما أعرضوا عنه وإن كان من محاسن الأخلاق.

ومن أراد إصلاح نفسه فعليه مغادرة تلك البيئة الفاسدة إذ من المتعذر إصلاح الإنسان نفسه أو إصلاح المربي لرعيته ما لم يخرجهم عن تلك البؤرة الموبوءة.

ولا شك أن البيئة المحيطة بالفرد أفرادًا وجماعات لها الأثر الكبير في مسيرة حياته فليختر المسلم رفقاء ومجتمعًا يعينه على طاعة الله تعالى، فصداقة الأخيار والانغماس في البيئات الصالحة له الأثر الكبير في تكوين الخلق الفاضل المحمود والعكس كذلك قال ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»(١).

٦ ـ مجاهدة النفس:

النفوس جُبلت على حب الراحة والكسل والتفلت من القيود

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٦٢٧.

والتكاليف، ومن أراد معالي الأمور يلزمه مجاهدة نفسه وأطرها على الخير أطرًا، فلا هداية ولا نجاح في الدنيا والآخرة دون مجاهدة للنفس، كما أخبر الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقد أخبر النبي ﷺ أن طريق الجنة وما يؤدي إليها من أعمال صالحة بما في ذلك مكارم الأخلاق محفوف بما يشق على النفس مشقة محتملة تحتاج إلى مجاهدة، كما قال ﷺ: «**حُفت الجنة بالمكاره، وحُفت النار بالشهوات**»(١).

إن من يريد عظيمًا ويروم معالي الأمور يلزمه التميز عن غيره بالمجاهدة وبذل الثمن المناسب، من جهد وعزم وتضحيات، وإلا لاستوى الناس جميعًا في فرص الوصول إلى المعالي من عمل ومن لم يعمل.

٧ ـ التواصي بالخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ومن أساليب اكتساب الأخلاق الفاضلة هذا الأصل العظيم من أصول الإسلام، وقد حث الله تعالى على التواصي بالخير وجعله مع الإيمان بالله تعالى من الصفات التي ميز الله بها عباده المؤمنين دون سائر الخلق قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [سورة العصر] والأمر

(١) رواه مسلم، حديث رقم (٢٨٢٢).

بالمعروف والنهي عن المنكر صمام الأمان في هذه الحياة لا تستقيم الحياة ولا يصلح المجتمع بدونهما، أمر الله بها عباده المؤمنين حتى يصلح الفرد ويتماسك المجتمع من الانهيار وتحمى حمى مكارم الأخلاق قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»(١).

وجعل الله هذا الأصل من صفات خيرية هذه الأمة على سائر الأمم قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ [آل عمران، ١١٠].

فالتواصي بالخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصدر وأساس من أسس اكتساب الأخلاق الفاضلة في المجتمع وأسلوب من أساليب الحفاظ عليها.

ونكتفي بهذه النقاط أمثلة للوسائل والأساليب التربوية والإيمانية لاكتساب الأخلاق الفاضلة، وإلا لو أردنا حصر معظم الوسائل والأساليب لطال بنا المقام، ولا شك أن لدور التربية والتعليم وقبلها المنزل وللمجتمع ولسلطان الدولة الإسلامية القائم على التواصي بالخير والتناهي عن الشر دورًا هامًا في إكساب الأخلاق الحميدة بجانب ما ذكر من أساليب تدخل في

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ح(٧٨).

المسؤولية الفردية المنبعثة من الشخص نفسه لمن أراد التخلق بالأخلاق الحسنة.

وصايا وقواعد أخلاقية:

وإليك أيها الحبيب بعض الوصايا والقواعد الأخلاقية:

١- عامل الناس بمثل مَا تحب أن يعاملوك به، كما في الحديث الصحيح: «**وليأت إلى الناس الذي يحبّ أن يُؤتى إليه**»(١).

٢- أحِبَّ للناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تَكْرهُ لها، وقد قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(٢).

٣- إذا أردت تهذيب نفسك فيمكنك مخالطة الناس: فما كرهت منهم من أخلاق فابتعد عنه؛ فإنهم يكرهون منك ما تكره منهم.

٤- لا تكتف بنقد أخلاق الآخرين وتنس نفسك، بل اشتغل بنقد نفسك أولًا، لأنك مكلف بها أولًا، ثم اشتغل في إصلاح الآخرين، وقد حذر الله تعالى من ذلك الخلق، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

٥- تذكر أن عليك واجبات، كما أن لك حقوقًا، وليكن همك البحث عما عليك من واجبات وأدائها، فذلك شرط لتحصيل حقوقك.

٦- إذا أردت الاجتهاد في تحصيل الأخلاق الحميدة، فعليك أن تعلم

(١) رواه مسلم، حديث رقم (١٨٤٤).

(٢) رواه مسلم (١/ ٦٧).

فضلها وفوائدها في الدنيا والآخرة، لتعرف أي شيء تطلب.

٧- بإمكانك التعرف على حقيقة أخلاقك بالنظر إليها في الحالات الآتية: إذا خلوتَ. إذا غضبتَ. إذا احتجتَ. وإذا استغنيتَ. وإذا قدرتَ.

٨- اعلم أن عليك أخلاقًا ينبغي أن تلتزم بها مع أعدائك، كما أن عليك أخلاقًا تلزمها تجاه أصدقائك.

٩- إذا ساءك تصرف أخيك تجاهك، فلا تسلم لما يهجم على قلبك مباشرة من تخطئته ونقده والغضب منه، بل اتهم نفسك أولًا، وحاكمها، فلعلك المخطئ فإن لم يظهر لك خطؤك، فالتمس لأخيك عذرًا لعل له عذرًا وأنت تلوم.

١٠- لا تلتمس لنفسك الأعذار في الأخطاء الصغيرة، فإنها طريق لما هو أكبر منها.

١١- لا يغررك حسنُ أخلاقك في الرخاء، حتى تُربِّي نفسك في أوقات الشدة والغضب وسائر الحالات التي تشتد فيها الحاجة إلى الأخلاق الفاضلة، فإن لم يطرد حسن أخلاقك في تلك الأحوال فاعلم أنه ليس لك كبير فضل في وقت الرخاء.

١٢- لا تتخذ لك أخًا بشرط ألا يخطئ، وإذا أخطأ أخوك مرة، فأنهيت ما بينك وبينه، فكأن شرطك في أخوته ألا يخطئ، فلن تجد لك أخًا إذن، وأنت أيضًا لا تصلح للأخوة بهذا الشرط، لأنك لست معصومًا، كما أن غيرك ليس بمعصوم.

١٣- من الاستعداد لما يُنتظر أو يتوقع في الغيب، بعد التوكل على الله، وأخذ الأسباب المشروعة، توطين النفس على أسوأ الاحتمالات فإن

ذلك مفيد جدًا، لما فيه من التمهيد لقبول النفس لأقدار الله تعالى المؤلمة وتحملها.

١٤- ينبغي أن تتعلم الأخلاق الفاضلة وذلك بدراستها نظريًا من مصدرها الصحيح، والتعود عليها عمليًا بتطبيقها ومحاسبة النفس عليها دائمًا، ومصاحبة أهلها.

١٥- ولتعلم أن الدراسة لها نظريًا وحدها لا تكفي، والتطبيق لها مرة واحدة أو مرتين أو وقتًا قصيرًا في حياتك، لا يكفي أيضًا، بل لابد من التطبيق المستمر والملازمة لها دائمًا لتكون حقيقًا بوصفك بالأخلاق الفاضلة.

١٦- الكرم والصبر والحلم والرحمة، ونحوها من الأخلاق، لا تأتي دفعة واحدة، كما أنها لا تدرك بسهولة، ولا تدرك في وقت قصير، بل تحتاج إلى وقت طويل، وإلى تدرج، ومران وصبر وتضحية، ولكنها أخلاق ضرورية نفسية، فتستحق أن يبذل فيها الثمن، والله المستعان.

١٧- كن مع الناس كالنحل، الذي يقع على أحسن الزهور وأطهر الزروع، فيجتني منها ما يفيده، وما يخدم به الناس، ودع مساوئهم وأخطاءهم، ولا تكن كالذباب، الذي لا يقع إلا على أقذر الأشياء وينشرها في الناس ويؤذي بها الأحياء.

١٨- يظن الحسود والنمام والمغتاب والفاحش البذيء، يظن هؤلاء جميعًا أنهم ينتقمون من الآخرين وينسون أنهم إنما يُلحقون الضرر بأنفسهم في الدنيا قبل الآخرة وفي العاجل قبل الآجل، إذ يعود عليهم

ذلك الصنيع بأمراض النفس والبدن، وعذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

١٩- أنت أعرف بنفسك، فلا تغتر بمدح الناس إذا مدحوك.

٢٠- أقصرُ الطرق لقضاء الحاجات، التوجه إلى الله تعالى.

وخلاصة الأمر: إذا أردت اكتساب الأخلاق الفاضلة والابتعاد عن الأخلاق السيئة فعليك باستعراض ما في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، فما وجدت فيها من أوامر وتوجيهات إلهية فخذ به، وما وجدت فيها من نواهٍ فابتعد عنه.

❊ ❊ ❊

قائمة المصادر والمراجع

- الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد، صالح بن فوزان الفوزان، دار ابن الجوزي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- أشراط الساعة، يوسف الوابل، دار ابن الجوزي، الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ – ١٩٩٤ م.
- الاعتصام، الشاطبي، تقديم محمد رشيد رضا، دار العدالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، دار الحديث،١٩٨٧م.
- التعالم وأثره على الفكر والكتاب، د. بكر بن عبد الله أبو زيد، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ.
- تلبيس إبليس، ابن الجوزي، تحقيق د. السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ه – ١٩٨٥م.
- حادي الأرواح، ابن القيم، مطبعة المدني، القاهرة.
- دستور الأخلاق في القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، تعريب وتحقيق وتعليق: د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ- ١٩٧٣م.
- دعوة التوحيد: أصولها، الأدوار التي مرت بها، مشاهير دعاتها، د. محمد خليل هراس، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

- رسائل الإصلاح، محمد الخضر حسين، مكتبة القدسي، ١٣٥٨هـ-١٩٣٩م.
- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط – عبد الله بن المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م
- شرح العقيدة الواسطية، محمد بن صالح العثيمين تحقيق سعد فواز الصميل، دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة، ١٤١٩ه.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨.
- صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م.
- في العقيدة الإسلامية مدخل ودراسة، د. أحمد قوشتي، دار الهاني، القاهرة ٢٠٠٤ م.
- القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية محرم ١٤٢٤هـ.
- مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، وساعده ابنه محمد، مكتبة ابن قتيبة، بدون تاريخ.

- مدارج السالكين ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣ هـ– ١٩٧٣م.
- معارج القبول، بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، حافظ بن أحمد الحكمي، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم – الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م
- معنى لا إله إلا الله ومقتضاها وآثارها في الفرد والمجتمع، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة الطبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م
- منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، محمد الأمين الشنقيطي، الدار السلفية – الكويت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
- النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، الطبعة السابعة (١٤١٣هـ-١٩٩٣م).
- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، المؤلف: عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة: الرابعة.
- وسطية أهل السنة والجماعة بين الفرق، د. محمد باكريم عبد الله، دار الراية للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

- * * *

فهـــرس الموضوعـــات

الموضـــوع	الصفحة
تقديم اللجنة العلمية	٥
الأهداف العامة لتدريس الثقافة الإسلامية وأبرز موضوعاتها..........	٩
مقدمة..	١٤
مدخل لدراسة الثقافة الإسلامية	١٨
تعريف الثقافة	١٨
المعنى الاصطلاحي للثقافة	١٨
العلاقة بين الثقافة الإسلامية والعلوم الشرعية الأخرى..................	٢١
أهمية تدريس الثقافة الإسلامية	٢٤
مكانة العلم وآداب طالب العلم	٢٥
آداب طالب العلم..	٢٦
القسـم الأول: العقيدة	٤٣
المقدمة الأولى: مفهوم العقيدة لغة واصطلاحا	٤٣
المقدمة الثانية: أهمية العقيدة	٤٤
المقدمة الثالثة: ثمرات العقيدة وآثارها على الفرد والمجتمع	٤٨
المقدمة الرابعة: خصائص العقيدة الإسلامية	٦١
المقدمة الخامسة: سمات أهل السنة والجماعة، وأبرز أصولهم المنهجية	٧٦
أصول العقيدة	٨٠
الأصل الأول: الإيمان بالله تعالى	٨٠
– أولا: الإيمان بوجود الله..	٨١
– ثانيا: الإيمان بربوبية الله تعالى (توحيد الربوبية)	٩٤

الموضـــوع	الصفحة
- ثالثا: الإيمان بألوهية الله (توحيد الألوهية)	٩٨
- رابعًا: الإيمان بأسماء الله وصفاته (توحيد الأسماء والصفات) ...	١٠٧
ثمرات الإيمان بأسماء الله وصفاته	١١٢
الأصل الثاني: الإيمـــان بالملائكـــة	١١٦
- صفات الملائكة الخَلْقِية والخُلُقِية	١١٧
- وظائف الملائكة........................	١٢٥
- ثمرات الإيمان بالملائكة	١٣٠
الأصل الثالث: الإيمـــان بالكتب	١٣٢
- الكتب الإلهية الواجب الإيمان بها........................	١٣٤
- موقف المسلم من الكتب السماوية السابقة........................	١٣٦
- ثمرات الإيمان بالكتب والرسالات	١٤١
الأصل الرابع: الإيمان بالرســل	١٤٤
- وجوب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام...........	١٤٥
- وظائف الرسل والمقصد من إرسالهم........................	١٥٠
- صفات الرسل عليهم السلام	١٥٦
- أدلة صدق الرسل (دلائل النبوة)	١٦٠
- خصائص النبي ﷺ، وحقوقه على أمته........................	١٦٤
الأصل الخامس: الإيمان باليوم الآخر	١٧٣
- الحقائق التي يشملها الإيمان باليوم الآخر	١٧٥
- أشراط الساعة	١٧٩
- فائدة البحث في الأشراط والمغيبات المستقبلة	١٨٠
- أقسام علامات الساعة	١٨٣
- ضوابط منهجية للتعامل مع أشراط الساعة وفتن آخر الزمان......	١٩١

الموضـــوع	الصفحة
– القيامة الكبرى وأسماؤها	١٩٤
– المعاني العملية والتربوية المترتبة على إيمان المسلم بالأمور الأخروية السابقة	٢٠٩
– الجنة والنار	٢١٢
الأصل السادس: الإيمان بالقضاء والقدر	٢١٧
– مفهوم القضاء والقدر	٢١٧
– أدلة وجوب الإيمان بالقضاء والقدر	٢١٧
– مراتب الإيمان بالقضاء والقدر	٢١٩
– خلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في باب القضاء والقدر	٢٢٥
– الانحرافات والشبهات في باب القدر	٢٢٦
– ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر على وجهه الصحيح	٢٣٠
القسم الثاني: العبادة في الإسلام	٢٣٤
تعريف العبادة	٢٣٤
مكانة العبادة في الإسلام	٢٣٥
شروط العبادة في الإسلام	٢٣٧
خصائص العبادة في الإسلام	٢٣٩
فقه التفضيل بين العبادات	٢٤٦
الآثار الإيمانية والتربوية للعبادات في حياة المسلم	٢٤٩
– الآثار الإيمانية والتربوية للصلاة في حياة المسلم	٢٥٠
– الآثار الإيمانية والتربوية للزكاة في حياة المسلم	٢٥٣
– الآثار الإيمانية والتربوية للصيام في حياة المسلم	٢٥٧
– الآثار الإيمانية للحج في حياة المسلم	٢٥٩
القسم الثالث: الأخلاق في الإسلام	٢٦٢

الموضـــوع	الصفحة
تعريف الأخلاق	٢٦٢
مكانة الأخلاق في الإسلام	٢٦٤
أسس الأخلاق ومصادرها في الإسلام	٢٦٨
– المصدر الفطري للأخلاق	٢٦٨
– المصدر العقلي للأخلاق	٢٧٠
– المصدر التعليمي المكتسب	٢٧٠
– المصدر الإيماني الجزائي	٢٧١
خصائص الأخلاق في الإسلام	٢٧٢
الارتباط بين الأخلاق والثواب والعقاب في الإسلام	٢٨٠
الأصول الأخلاقية للفكر المادي	٢٨١
مكيافيلي وفكرة الغاية تسوغ الوسيلة	٢٨٤
فرويد ومدرسته في علم النفس	٢٨٨
إميل دور كايم ونظرية العقل الجمعي	٢٩١
موقف نيتشه من الأخلاق	٢٩٤
نماذج من الأخلاق الفاضلة في الإسلام	٢٩٦
– الصـــدق	٢٩٦
– الحِلْـمُ	٣٠١
– العِفَّـة	٣٠٥
– الحيـاء	٣٠٨
– علو الهمة	٣١٢
الوسائل التربوية لاكتساب الأخلاق الفاضلة	٣١٣
وصايا وقواعد أخلاقية	٣٢١
قائمة المصادر والمراجع	٣٢٥

الموضـــوع	الصفحة
فهرس الموضوعات	٣٢٩

❊ ❊ ❊